

Est-il permis de critiquer Israël ?

من يجرؤ على نقد إسرائيل

باسكال بونيفاس



تقديم وترجمة
أحمد الشيخ



منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

باسكال بونيفاس

من يجرؤ على نقد إسرائيل؟!

تقديم وترجمة: أحمد الشيخ

القاهرة



بيروت



من يجرؤ على نقد إسرائيل؟!

الكتاب : من يجرؤ على نقد إسرائيل؟

الكاتب : باسكال بونيفاس

المترجم : أحمد الشيخ

الطبعة الأولى مايو ٢٠٠٤

جميع الحقوق محفوظة

الناشر : - المركز العربي للدراسات الغربية - أحمد الشيخ

- والفارابي - بيروت - جوزيف بوعل

العنوان : القاهرة - الألف مسكن عمر ٤ فيلا ١٣٧ (ب)

ت وفاكس : ٤٩٣٣٤٧٦ - ٢٤١٦٤٧٦٩

E-mail: elcheikhahmed11@hotmail.com

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٩٠٦٨

الترقيم الدولي . I.S.B.N 977-6000-20-9

هذه ترجمة لكتاب :

Est-il Permis de Critiquer Israël?

تأليف :

Pascal Boniface

الناشر :

Robert Laffont

تاريخ النشر :

Mai 2003

تقديم

كانت المرة الاولى، منذ عشرين عاماً، مع المحامى الأمريكى بول فندلى، عندما أصدر كتابه الشهير : من يجرؤ على الكلام؟ والذي كشف علانية ما كان يفكر فيه الكثيرون سراً، عن طريقة عمل اللوى الصهيونى فى أمريكا، وكيف كان يسيطر هذا اللوى ويؤثر على كافة الأجهزة الفعالة فى المجتمع الأمريكى، بدءاً من الكونجرس إلى الإدارات المختلفة وحتى وسائل الإعلام، وما أعقب ذلك من حملة شرسة شتتها الدوائر الصهيونية ضد المؤلف الذى لم يستطع بعدها مزاوله مهنته مرة أخرى.

كان هذا منذ عشرين عاماً، وما كان غريباً آنذاك يكاد يصبح اليوم من المسلمات أو البديهيات التى لا تستثير الدهشة والعجب، "ولو عاد بول فندلى^(١) لتأليف كتابه من جديد أو إصدار طبعة ثانية منقحة ومعدلة سيجد العجب العجائب، وسيكتشف أن ما أراح النقاب عنه قبل عشرين سنة لم يكن سوى غيض من فيض، ونقطة من بحر ما هو قائم الآن من هيمنة تامة على مفاصل الدولة والإدارات والمؤسسات، و"وقاحة" علنية غير مسبوقة، حيث صار كل شئ "على المكشوف" بعد أن كانت الهيمنة سرية وغير معترف بها، ويخجل من الاعتراف بوجودها أطراف التحالف فى واشنطن وتل أبيب ودوائر اللوى الصهيونى المنتشرة فى كل مكان"

(١) عرفان نظام الدين، من يجرؤ على الكلام؟ جريدة الحياة اللندنية، ٩ فبراير (٢٠٠٤).

بالطبع لم يكتب فندلى كتابا جديداً، ولم يطبع كتابه السابق طبعة جديدة، لكن فعلها الكاتب والباحث الاستراتيجى الفرنسى باسكال بونيفاس، الذى أصدر فى الصيف الماضى، كتابا يطرح علانية، ومن جديد، التساؤل ذاته الذى طرحه بول فندلى: "من يجرؤ على الكلام؟"، لكن تساؤل بونيفاس صار: "من يجرؤ على نقد إسرائيل؟"، أو "هل من المسموح به نقد إسرائيل؟"، إذا التزمنا الترجمة الحرفية، والعنوان كما هو واضح يلخص بصورة بليغة فكرة الكتاب وقضيته الرئيسية، أى صعوبة ومخاطر ممارسة الحق فى نقد إسرائيل وسياساتها.

يعرف المؤلف جيداً أن من حقه نقد إسرائيل، لكنه يعرف أيضاً، وبصورة ملموسة، ما يترتب على هذا النقد من مصاعب وأخطار، وكتابه الذى تجرأ ومارس هذا الحق يحكى قصة هذا "الردع الاستباقى" الذى يمارسه اللوبى الصهيونى فى المجتمعات الغربية لإفشال أي نقد يوجه لإسرائيل، لاسيما فى فرنسا. ويقدم لنا بونيفاس توثيقاً هاماً يعكس تطور الوعي السياسى الفرنسى والأوروبى تجاه إسرائيل مع ازدياد قمعها للفلسطينيين فى الأراضى المحتلة، وردود أفعال غلاة الموالين لإسرائيل على هذا التغير فى مواقف شرائح كبيرة داخل الراى العام الفرنسى والأوروبى لغير صالح إسرائيل.

يرصد بونيفاس فى كتابه الوقائع والأحداث والتصريحات، وبعضها يتعلق بما عايشه شخصياً، وبعضها الآخر ينتمى إلى مجال التحليل السياسى والاستراتيجى لأزمة الشرق الاوسط وتداعياتها. ويروى قصة

صراعه مع غلاة الموالين لإسرائيل، وكيف بدأ الصراع بمذكرته السياسية التي أرسلها إلى قادة الحزب الإشتراكي الفرنسي قبل انتخابات الرئاسة الفرنسية الماضية (٢٠٠٢)، والتي حذر فيها قادة الحزب من أن دعمهم المطلق لإسرائيل، عن حق وعن باطل، سيؤثر على نجاحهم الانتخابي، وأن أبناء الطائفة العربية والمسلمة، من المقيمين على الأراضي الفرنسية، والذين يملكون حق التصويت، ينظمون أنفسهم الآن، وينبغي أن يؤخذوا في الاعتبار، وأن الساحة الفرنسية، لاسيما لدى الشباب، تشهد تراجعاً وانحساراً للتعاطف مع إسرائيل بالقياس إلى ما كان عليه الأمر في الماضي.

وقامت القيامة ولم تقعد كما يقولون. وانطلقت الحملة مع سفير إسرائيل السابق في باريس ايلي بارنافي، الذي وصف بونيفاس، في جريدة لوموند، بأنه يقف على حدود العداء للسامية. ثم تطورت الحملة في الصحف والمجلات والاذاعات والقنوات التليفزيونية، وصار بونيفاس، منذ هذا الوقت، هدفا دائما لغلاة الموالين لإسرائيل، وتعرض لحملة تشويه وتشهير، وتلقى تهديدات بالقتل، ومورست ضغوط كبيرة لإقصائه من عمله كمدير لمعهد العلاقات الدولية والاستراتيجية، كما مورست ضغوط على أقرانه ورؤسائه للتخلي والابتعاد عنه، كما وجهت طلبات لبعض الهيئات الممولة لمشاريع بحثية حتى تلغى عقودها مع المعهد الذي يديره بونيفاس.

يصف بونيفاس، في كتابه، آليات الضغوط التي تعرض لها، والتي تعرض لها غيره، بدءاً من تجاهل القضايا المطروحة والحديث عن أمور أخرى، مروراً بالانتهاكات ومحاولات القتل المعنوي والتدمير الشخصي،

وصولاً إلى حجب الآراء وعدم النشر، ورفع دعاوى قضائية لإسكات الأصوات الناقدة، وممارسة الضغوط المهنية، وتصعيد مشاعر الخوف، وتحويل بعض المؤسسات عن الدور المناط بها إلى أدوار أخرى بعيدة عن منطق عملها، وتهديد الناقدين، بشتى أنواع التهديدات، حتى يختاروا طريق الصمت.

يحلل بونيفاس، في أكثر من موقع، أحد أشهر آليات الضغط وهي الاتهام بالعداء للسامية. ويناقش الكتب الجديدة التي تناولت معاداة السامية في الوقت الحاضر، ويناقش كذلك الإحصاءات التي أعدها المجلس التمثيلي للمؤسسات اليهودية في فرنسا. ويتبنى بونيفاس، في هذا الشأن، إستراتيجية تكشف أولاً عن مبالغاة غلاة الموالين لإسرائيل بشأن ما يحدث من اعتداءات على يهود فرنسا، ويفسر ثانياً ما يحدث من اعتداءات على أبناء وممتلكات الطائفة اليهودية بأنه عائد إلى نزاع الشرق الأوسط، وانعكاساته على أبناء المهاجرين العرب والأفارقة الذين يضعون على عاتق اليهود الفرنسيين مسؤولية ما يفعله الجيش الإسرائيلي ضد أبناء الشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة.

ويؤكد بونيفاس أن التركيز على فزاعة العداء للسامية يخدم أغراضاً أخرى قد لا تكون لها علاقة مباشرة بقضية معاداة السامية. فإسرائيل أمام التحدي الديموغرافي الذي يواجهها، والذي يسير في غير صالحها، تقوم، كما يرى المؤلف، بتصعيد الشعور بالخطر لدى يهود فرنسا حتى يهاجروا إلى إسرائيل، كما يسمح لها الحديث عن اللاسامية في فرنسا بالتهرب من الحوار مع الفلسطينيين الذي تؤيده وتدعمه السياسة الفرنسية. ويدخل

المؤلف فى سجال مع غلاة الموالين لإسرائيل، ويقدم وجهات نظر مغايرة بشأن الحديث عن كراهية اليهود وعن الأشكال الجديدة لمعاداة السامية، وينتقد بشدة الذين يصورون فرنسا وكأنها بلد معاد للسامية، ويتعرض فيه اليهود إلى شتى أصناف الإضطهاد والعذاب، أمثال: تاجيف، أرنوكلا رسيفلد، آن سنكلير، فكتور الجرى، بيير لولوش، جاك تارنيرو، الكسندر أرلر وكوكيرمان . . وغيرهم.

يقدم الكتاب، أيضا، صورا غير معروفة عن الإعلام الفرنسى الذى عادة ما ينظر له، فى واقعنا العربى، على أنه موال لإسرائيل بينما الوقائع والأحداث التى يشير إليها بونيفاس تقدم صورة مغايرة إلى حد ما، حيث نجد دعاوى قضائية ضد بعض الإعلاميين وضد أجهزة الإعلام التى لا تسير فى فلك الروى والمواقف الإسرائيلية (محاكمة الصحفى ميرميه، مظاهرات أمام وكالة الصحافة الفرنسية، تهديدات بمقاطعة الصحف والمجلات التى تدعو إلى السلام فى الشرق الأوسط، تحميل الإعلام الذى ينشر مظاهر القمع الإسرائيلى للفلسطينيين مسئولية الأحداث المعادية للسامية فى فرنسا).

يرفض بونيفاس، أيضا، محاولات تصدير صراع الشرق الأوسط إلى الساحة الفرنسية وينتقد الذين ينتهجون هذا الطريق، لاسيما غلاة الموالين لإسرائيل الذين يرفضون عمليات الخلط بين يهود فرنسا والإسرائيليين، فى الوقت الذى يعملون فيه على تحويل المؤسسات اليهودية الدينية والاجتماعية فى فرنسا إلى ملحقات لسفارة إسرائيل فى باريس، كما ينتقد، فى هذا الشأن، بعض قادة إسرائيل الذين يخاطبون يهود فرنسا أحيانا كما لو أنهم من المجندين تحت إمرتهم وعليهم أن يتصرفوا ويتضامنوا مع دولة إسرائيل

بدون قيد أو شرط، وهو ما دفع المؤلف إلى الحديث - وهذه هي إحدى النقاط الرئيسية في الكتاب - عن مخاطر تأثير الطوائف المقيمة بفرنسا على القرار والسياسات الفرنسية، ومحذراً من خطر أن تتحول سياسة فرنسا الداخلية والخارجية إلى رهينة لمصالح وأغراض هذه الطوائف.

وإذا كانت هذه هي بعض الخطوط الرئيسية للكتاب، فإن من حقنا أن نتساءل لماذا إذن كل هذه الضجة حول الكتاب ومؤلفه؟ وتزداد الدهشة عندما نعلم أن المؤلف يصصر على أنه ينتقد سياسة شارون فقط. وأنه يقر أولاً بحق إسرائيل في الوجود والأمن، ولا يعتبر إسرائيل دولة عنصرية ولا يرى الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية، ولم يتحدث أبداً عن اليهود ككتلة واحدة، ولم يتحدث عن لوبي يهودي وإنما لوبي موال لإسرائيل يضم يهوداً وغير يهود، وكان يتحدث دائماً عن صراع إسرائيلي - فلسطيني وليس صراع إسرائيلي - عربي، ولم يقل بالانحياز لصالح الطائفة العربية والمسلمة في فرنسا وإنما بوضعها في الاعتبار، ولم ينحز إلى مواقف بعض الدول العربية، وإنما طالب فقط بتطبيق المعايير ذاتها على صراع الشرق الأوسط مثلما هو الحال في بعض الصراعات الأخرى، ناهيك عن بعض كتاباته ومواقفه الأخرى التي تبنى فيها وجهات نظر أقرب إلى وجهة النظر الإسرائيلية، كما في انتقاداته لمؤتمر دوربان ضد العنصرية .. وغيرها من المواقف، ومع ذلك لم يشفع له كل ذلك ولم يخفف من حدة الحملة الموجهة ضده منذ أن كتب مذكرته الشهيرة في (٢٠٠١) ثم مع صدور كتابه: من يجرؤ على نقد إسرائيل؟ (٢٠٠٣).

وإذا كان الأمر على هذا النحو، وإذا كان هذا سجلا سياسيا داخل فرنسا وإذا كان ما يطرحه بونيفاس يدركه عالمنا العربي جيدا، فما الجديد إذن في هذه القضية؟ ولماذا فكرنا في نقل الكتاب إلى اللغة العربية؟ وهل نحن في حاجة لمن يؤكد لنا مدى سطوة اللوبي الصهيوني في أوروبا وأمريكا؟ وهل ما تزال هناك أسرار لم يكشف النقاب عنها في هذا الشأن؟ وهل نحن في حاجة إلى من يجرؤ على نقد إسرائيل؟ ونحن نعيش عمليا - وليس نظريا - ما يفرز أفعالا تتجاوز التنديد بسطوة اللوبي الصهيوني هنا أو هناك.

في الحقيقة كان دافعى وراء نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية، هو أننا في العالم العربي لم نعد نعيش فقط آثار التدمير والتخريب المادي في المجتمعات العربية، على أكثر من صعيد، من جراء القوة الصهيونية المتشعبة، بل أصبحنا نعيش ظاهرة جديدة، ظاهرة الخوف والخشية من آثار اللوبي الصهيوني في بلادنا - وهذه هي الطامة الكبرى - والذي يحتل مواقع هامة في أروقة الأجهزة الفعالة في المجتمعات العربية ليس أقلها أهمية أجهزة الإعلام العربية الرسمية وغير الرسمية ..

وإذا كان بول فندلى قد كشف منذ عشرين عاما آليات عمل هذا اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة، وإذا كان باسكال بونيفاس قام بدوره بكشف آليات عمل هذا اللوبي في فرنسا، فإنه ربما جاء دورنا في الكشف عن آليات عمل هذا اللوبي داخل المجتمعات العربية .. وهذه قصة كبيرة، تحتاج وقفة تأمل لا يتسع المجال هنا سوى للإعلان عنها، في انتظار لحظة جديدة للكشف عن تفاصيلها.

في هذا الإطار وجدنا أنه من المناسب نقل محاولة باسكال بونيفاس

الأخيرة إلى العربية لما تكشفه، وما تساعد على إضاءته فيما يحدث داخل مجتمعاتنا وداخل المجتمع الفرنسى ذاته. فالكتاب يقدم معرفة دقيقة وموثقة لما يحدث داخل المجتمع السياسى الفرنسى من صراعات وضغوط تهدف إلى تهريب النقد بعيداً عن إسرائيل، ومنع أى مساءلة لها رغم توافر الأدلة والبراهين السياسية لذلك. وأهمية الكتاب تكمن فى انه يضئ بالمعرفة الموثقة حقائق ووقائع ليس كما نتصورها نحن فى مجتمعاتنا وإنما كما هى فى الواقع فعلاً.

فى الحقيقة يندرج كتاب بونيفاس: من يجرؤ على نقد إسرائيل؟ ضمن الكتب المعاشة، أى تلك الكتب التى تتناول قضايا جارية أمام أبصار الناس يتابعون تفاصيلها لحظة بلحظة، ولا يقف بونيفاس عند حدود رسم خرائط تفصيلية لقضايا الصراع التى يتناولها وإنما يمارس تحليلاً عقلانياً للأحداث والتصريحات السياسية، ويبحث داخلها عن صحة الدليل أو البرهان السياسى ويفتش عن مدى اتساقه أو تناقضه. وهو فى كتابه يكشف عن براعة حقيقية فى اصطيد التناقضات، فلا توجد صفحة من صفحات كتابه إلا ونجد أمامنا الحدث السياسى وقد نزعته عنه الأقنعة التى كان يتلبسها من قبل تبريراً وتزويراً...

نحن هنا أمام عقلانية سياسية تحاول أن تحلل وتحكم على أحداث وتصريحات تتسم أحياناً بغباوة سياسية شديدة وعنجهية عسكرية تعود إلى ما قبل التاريخ الحديث للبشر.. والكشف الذى يقدمه هذا المنهج فى التحليل العقلى للحدث السياسى يشكل فى نظرنا إضافة جديدة ينبغى أن تتبعها إضافات أخرى.

غير أن الذهاب بعيداً فى منطق التحليل العقلى للسياسة، قد يغيب أحياناً الموقع والتكوين والانتماء الحضارى والدينى والسياسى لمن يمارس مثل هذا التحليل. لا شك أن بونيفاس باحث وطنى، وليس فى هذا ما يعيب، وهو يدافع عن مواقف وسياسات بلاده، وليس فى هذا ما يعيب أيضاً. لكنه عندما يفعل ذلك نجده ينطق باسم مبادئ عالمية وعامة قد تخفى تحت طياتها بعض التناقضات أحياناً، وهو أمر يجعلنا نختلف مع المؤلف فى بعض القضايا.

يتحدث بونيفاس لغة واحدة، ويخشى اللغة المزدوجة، وهو محق فى ذلك، لكن الازدواجية والتناقضات قد تنبع، فى المقام الاول، من أن العالم ليس موحداً ولا متناغماً ولا يقبل أحياناً اللغة الواحدة المتسقة. وخير نموذج لذلك هو عنوان كتابه الذى قد يكون مقبولاً بالفرنسية، أما فى الحياة السياسية العربية، فإن نقد إسرائيل يعتبر من المسلمات التى تحظى بإجماع شامل. وإذا ذهبنا أبعد من العنوان، سنجد أن النقد الذى مارسه بونيفاس ضد السياسة الإسرائيلية قد يكون من الأمور المألوفة فى العالم العربى، وربما يستغرب القارئ العربى من هذه الضجة المثارة ضد بونيفاس، بل ربما أزعج أن كتاب بونيفاس رغم ما فيه من نقد شديد لسياسة شارون إلا أنه قد يُغضب بعض الدوائر والاتجاهات فى العالم العربى، لأنه لم يذهب مسافة أبعد فى النقد الذى مارسه، وأنه يقبل بأشياء مازالت بعيدة عن منطق البرهان السياسى فى العالم العربى والإسلامى.

فى الحقيقة فإن ما يحاسب عليه بونيفاس ليس ما أدلى به من آراء ومواقف وإنما لاختراقه سياسة "الردع الاستباقى" التى يمارسها غلاة الموالين

لإسرائيل. فمنذ سنوات عديدة واللوبي الموالي لإسرائيل ينجح فى خلق مناخ سياسى عام لا يسمح إلا بتأييد إسرائيل عن حق وعن باطل، ولا يسمح بأى نقد جاد وعقلانى لسياسات هذه الدولة، لذلك عندما نشر بونيفاس مذكرته تم كتابه - رغم اعتدال وتواضع النقد الموجه لإسرائيل وأنصارها - بدا بحكم ما هو سائد فى الساحة السياسية الفرنسية وكأنه يحدث انقلاباً فى الرؤية والمواقف لم تتعود عليها الأوساط السياسية السائدة. وعوقب السيد بونيفاس ليس على ما قاله وإنما للأثر الذى تتركه أقواله على ساحة ظن البعض أنها ثابتة ولا يمكن تغييرها. وهنا تكمن المفارقة : فالنقد الذى عبر عنه بونيفاس يبدو متواضعاً، من وجهة النظر العربية، ومتطرفاً من وجهة النظر الفرنسية السائدة. والذين يتابعون عن كثب ما يحدث فى العاصمة الفرنسية يعرفون جيداً بحكم موازين القوى السائدة أن ما قاله بونيفاس يعتبر بالفعل تجاوزاً بارزاً للقناعات السياسية المهيمنة فى فرنسا فيما يتعلق بإسرائيل والعداء للسامية وما شابه هذه الأمور . . .

وربما يكمن سر هذه المفارقة فى أن بونيفاس لا يتعرض مباشرة إلى الصراع فى الشرق الأوسط وإنما إلى انعكاساته على الأوضاع الفرنسية الداخلية. وكذلك الأمر ذاته عندما يتعرض لظاهرة العداء للسامية، فهو لا يبحث فى جذور المشكلة وأبعادها التاريخية وإنما يلتقط انعكاسات الصراع فى منطقة الشرق الأوسط أيضاً على بعض أبناء المهاجرين العرب والمسلمين. وربما يفسر هذا عدم اكتمال التفسير، أو توازنه، لدى المؤلف، فى مثل هذه القضايا. فتركيز المؤلف انصب على مسئولية سياسة إسرائيل فى الشرق الأوسط وما تعكسه من ردود فعل لدى بعض أبناء الطائفة العربية والمسلمة الذين يندفعون فى اعتداءات لاسامية، وهو قول قد لا

يمكن دحضه لكنه فى الوقت ذاته لا يفسر هذه الظاهرة تفسيراً شاملاً .
ويلاحظ أن المؤلف لم يناقش أبعاداً أخرى كثيرة . فالبعض يرى أن " معادة
السامية تعد نتاجاً للثقافة الأوروبية التى تبلورت وتطورت كجزء من الديانة
المسيحية ، وتبلور القوميات الأوروبية منذ ألف وخمسمائة عام . وهذا هو
السبب فى أن معادة السامية التى تتوطن فى أساس الدين والمجتمع
الإوروبى سوف تستمر فى الازدهار دون عائق . . "

كذلك غاب عن المؤلف ظاهرة العداء الإسرائيلى للسامية ، وهى الوجهة
الآخر لهذه الظاهرة ، التى يتم تناولها فى العادة على أساس أنها موجهة
فقط ضد اليهود ، ويتم التغاضى عن واقع العرب كساميين ، وهو ما يعترف
به بعض الإسرائيليين أنفسهم ، فنجد على الموقع الالكترونى لصحيفة
معاريف بتاريخ ٩ نوفمبر (٢٠٠٣) ، مقالاً كتبه شموئيل جوردون بعنوان
معادة إسرائيلية للسامية حيث يقول : " وضعت دائرة المعارف العبرية معادة
السامية بأنها كل مظاهر الكراهية والعنصرية الموجهة ضد الساميين . . ومن
هنا فإن معاداة السامية تشمل أيضاً كل مظاهر الكراهية والعنصرية الموجهة
ضد العرب . . لقد تطورت معاداة العرب فى إسرائيل وتكونت من
الاحتقار لمظاهر التخلف والاستهانة بالطبيعة البشرية . . وبرزت شحنات
عميقة من العنصرية . . حيث تسمع أقوالاً عنصرية من قبيل : قتلة . .
عديموا الاخلاق . . حذار من الثقة بهم . . الورقة التى يقعون عليها لا
تساوى ثمنها . . الموت للعرب . . العربى الجيد هو العربى الميت . . "
وربما يكون للمنهج الذى سار عليه بونيفاس فى تأليف كتابه أثر واضح فى
عدم اكتمال تفسير بعض الظواهر الهامة التى تطرق إليها . فهو يجمع فى
كتابته بين التحليل السياسى والسيرة السياسية الذاتية ، يتحدث بلغة
الدراسة الأكاديمية وتارة أخرى يتحدث لغة المعاشة الشخصية للأحداث
والقضايا .

وبرغم الملاحظات السابقة إلا أنه يظل للكتاب قيمة كبرى . وكان مؤلفه من أوائل الذين رصدوا ظاهرة انحسار التعاطف مع اليهود فى فرنسا، وقبل أن تظهر النتائج المدوية لاستطلاع الرأى فى دول الاتحاد الأوروبى، والذي أكد ما أشار إليه بونيفاس قبل ذلك بعامين . كما أنه قدم نقداً عقلانياً للسياسة الإسرائيلية وغلاة التعاطفين معها .

والكتاب، فى النهاية، يقدم توثيقاً هاماً ومعاشاً، وليس تحليلاً نظرياً مجرداً، لآليات عمل اللوبى الصهيونى فى فرنسا، وكان لمؤلفه جرأة التصدى لتيار سياسى غالب فى الحياة السياسية الفرنسية، ولم يتراجع أمام قوة الضغط المتشعبة فى ميادين مختلفة وظل وفيما لقناعاته الخاصة . . لذا ينبغى علينا أن نهتم بهذه المحاولة الجادة من باحث فرنسى فى مجال العلاقات الدولية والاستراتيجية، وعلينا أن نتأمل بعمق هذا المنطق السياسى فى نقد إسرائيل، وهو نقد من المفيد التعرف إليه وبناء جسور مع صاحبه، ومع الذين يسировون فى الاتجاه ذاته، وهم يشكلون تياراً جديداً صاعداً فى الحياة السياسية الفرنسية، وأن غضى معهم فى الطريق إلى الحدود المسموح بها ! وأن لا ننتظر من الآخرين ما ننتظره من أنفسنا . .

أحمد الشيخ
باريس - القاهرة
مارس ٢٠٠٤

لا يفوتنى، فى هذا المقام، توجبه الشكر للزملاء والأصدقاء الذين ساعدوا، بملاحظاتهم القيمة، على صدور الترجمة، وأخص بالذكر منهم: عمر المزى ومصطفى الذوايدى وحلى شلى، وماجد يوسف، ومصطفى زين، ومحمود نسيم، ومنى طلبة، وأنور مغيث . . إلى كل هؤلاء أتوجه بمشاعر التقدير والعرفان . . .

الفصل الأول

نقد إسرائيل

حق نظري لكن ممارسته عملية شائكة

هل نملك الحق في نقد إسرائيل؟ نعم، بالتأكيد! إلى درجة أن سفير إسرائيل في باريس^(١) وأصدقاء هذا البلد من الفرنسيين، يدعونك إلى ممارسة هذا النقد. إسرائيل دولة ديمقراطية، وهي بهذه الصفة، تقر الحق في ممارسة النقد .

هذا على الصعيد النظري، أما في الممارسة العملية، فإن الأمر أكثر تعقيداً وأكثر مخاطرة. في داخل هذا البلد (إسرائيل) نجد رجال السياسة والصحف والناشطين في الجمعيات الأهلية لا يترددون في نقد الحكومة بشدة. ونجد المعارضة التي هي دائما في موقع الأقلية، وهو أمر طبيعي في أي نظام ديمقراطي، تمارس نقداً عنيفاً. لكن خارج هذا البلد ينبغي على المرء، ولاسيما في فرنسا، أن يتوخى الحذر فيما يقوله بشأن إسرائيل.

يستطيع المرء أن يمارس النقد ضد الحكومة الفرنسية، وضد دستور فرنسا، وأن يتهم رئيس الجمهورية، أو رئيس الوزراء، وينعتهما بأفظة

١- صحيفة ليبراسيون، عدد ٣٠ أغسطس ٢٠٠١.

النموت دون أن يتعرض لآى أذى . يستطيع المرء المطالبة بتغيير النظام القائم، لأنه يبدو غير قادر على النهوض بالأعباء الملوطة به، دون أن يؤاخذك أحد على ذلك، فانت تساهم فى صراع الأفكار .

ويستطيع المرء أيضاً أن يحكم بصورة سلبية على حكومات دول أخرى، وأن ينتقد الطابع الانفرادى لأمريكا فى العلاقات الدولية وسياساتها العسكرية، وأن يدين جمهورية الصين الشعبية بمناسبة قمعها للمظاهرات فى ساحة تيانن منن ، أو لسياساتها فى التبت، وأن ينتقد روسيا لقصور العدالة، أو بسبب ممارستها فى منطقة الشيشان، أو أن ينتقد صربيا بسبب كوسوفو، أو المملكة العربية السعودية لغياب الديمقراطية ولغياب الشفافية، أو كوريا الشمالية لسياساتها فى السير نحو تصنيع الصواريخ أكثر من سيرها فى طريق إطعام شعبها، أو أن ينتقد الأنظمة الأفريقية لفسادها، أو أن ينتقد انجلترا وألمانيا لرغبتهما فى الهيمنة على أوروبا (بدلاً من فرنسا) . الخ .

باختصار، يمكن للمرء أن ينتقد مائة وتسعة وثمانين دولة هى دول أعضاء فى الأمم المتحدة، بدون أن يواجه صعوبات، وبدون أن يتعرض للخطر . وسواجه هذا النقد بمواقف مضادة، وبردود رافضة، الأمر الذى يفضى إلى وجود حوار فعلى . لكن أبدأ لن يتهمك أحد بالعنصرية المعادية لأمريكا إذا أنت انتقدت جورج بوش، أو بالعنصرية المعادية لروسيا إذا كنت عنيفاً فى نقدك لبوتين، أو بالعنصرية المعادية للصين إذا سخرت من زيانج زيمين، أو بالعنصرية المعادية لكوبا إذا سخرت من كاسترو، أو بالعنصرية المعادية للسود إذا قلت إن رئيس دولة إفريقية ما يدير شئون بلاده بطريقة كارثية، الخ . من حقل الحديث عن أخطاء عرفات، وانتقاد لغته المزدوجة، ودعاه المستر للإرهاب ورغبته فى البقاء فى السلطة على حساب

مصلحة شعبه، أو نظراً للفساد الذى يحيط بالسلطة الفلسطينية. ولن يستتج أحد من هذا النقد أنك معاد للعرب، وسيؤخذ هذا النقد على أنه من طبيعة الحوار النقدى والتفكير السياسى. والذين ينطقون بهذه الأحكام السلبية لن توجه إليهم تهمة أنهم ينظرون إلى العرب نظرة عنصرية تصفهم بالخداع والتوحش وانعدام النزاهة.

لكن هناك دولة - ودولة واحدة فقط - هى دولة إسرائيل، يؤخذ النقد الموجه إلى حكومتها مباشرة على أنه عنصرية مقنعة، أو عنصرية لا تعلن عن نفسها صراحة.

وإذا سمحت لنفسك بالتشكيك فى سياسة آرييل شارون، ستتهم على الفور بالعداء للسامية من قبل بعض أنصاره. كما ستوجه إليك تهمة الجهل بالوقائع التاريخية والسياسية والثقافية بالمنطقة. ويستخدم غلاة الموالين لإسرائيل أحكاماً متكررة تنزع إلى التشكيك فى مصداقية من لا يشاركونهم الرأى. وهنا أيضاً نجد الصراع الاسرائيلى الفلسطينى متميزاً عن بقية الصراعات الأخرى.

بالتأكيد يستخدم بعض أنصار القضية الفلسطينية أحياناً براهين غير جيدة، لكن منذ متى يطلب من أحد إعداد رسالة دكتوراه فى الدراسات البلقانية حتى يحق له أن ينتقد ميلوسوفيش! ومنذ متى كان ضرورياً أن يمكث الإنسان عشر سنوات فى التبت حتى يحق له الحديث عن هذه المنطقة. فى الحقيقة لا يوجد صراع ينتج انفعالات أكثر مما هو عليه الحال مع الصراع الاسرائيلى- الفلسطينى. وهو ليس، مع الأسف، الصراع الوحيد فى العالم.^(١)

بيد أن المرء استطاع، ويستطيع، أن يناقش، بدون أن يواجه مشاكل كثيرة، صراعات كثيرة مثل حرب الخليج والصراعات الممتدة فى يوغسلافيا

١- لابد من الإقرار بأنه ليس الصراع الأكثر دموية، هناك صراعات أخرى فى العالم خلفت ضحايا أكثر دون أن تشغل حيزاً كبيراً فى أجهزة الاعلام وفى ساحة الحوار العام.

السابقة، والإبادة التي حدثت في رواندا، والحادي عشر من سبتمبر، وحرب أفغانستان، وحرب العراق.. بمسألة البراهين المطروحة، ولا يتحسب لشئ سوى مقارعة الحججة بالحجة.

ليس هناك شئ من هذا كله فيما يتعلق بالصراع الإسرائيلي-الفلسطيني. إذ سرعان ما تنطلق الإهانات وتوجه الإجراءات التأديبية في المجال المهني، ثم تأتي التهديدات المباشرة بعد ذلك، وقد تصل أحياناً إلى حد التهديد بالموت.

العداء للسامية موجود بالفعل. وأفضى، في الماضي، إلى أسوأ ما يمكن أن يقوم به الإنسان عندما يفقد إنسانيته أى الإبادة المبرمجة لشعب.. وإسرائيل التي ولدت بعد الحرب العالمية الثانية، نُظِرَ لها على أنها ملاذ ممكن لكل يهود العالم إذا تعرضوا لخطر جديد في البلاد التي يحملون جنسيتها. ويمكن للمرء إذن أن يفهم بدون مشقة مدى ارتباط يهود العالم بإسرائيل. وكما لاحظ روبير بادنتير عن حق: "إسرائيل ولدت من شعور بقلق الموت لم يعرفه شعب آخر منذ بداياته". (١)

وكتب ريمون آرون أثناء حرب الأيام الستة في عام (١٩٦٧): لم أكن يوماً صهيونياً، أولاً وقبل أى شئ آخر، لأننى لم أعش كيهودى... ومع ذلك أشعر بصورة أكثر وضوحاً اليوم أكثر من ذى قبل أن مجرد احتمال تدمير إسرائيل يجرحنى حتى أعماق روحي. وبهذا المعنى أعترف بأن أى يهودى لن يصل أبداً إلى الموضوعية الكاملة عندما يتعلق الأمر بإسرائيل". (٢)

وبعد أن تعرض اليهود لعمليات اضطهاد مخيفة عبر القرون، وحتى مجيئ هتلر، وتنفيذ الحل النهائي ضدهم، أى الإنهاء المبرمج لشعب بأسره،

١- "القلق والسلام" صحيفة لوموند عدد ٢٠ أغسطس ٢٠٠١

٢- استشهاد مذكور بمجلة الاكسبريس عدد ١ فبراير ٢٠٠١

كيف لا يمكن فهم ارتباط يهود العالم كله بإسرائيل؟

وهذه الدولة التى ولدت فى ظروف مؤلة^(١) ، والمعرضة لتزاعات مسلحة من جيرانها الأكثر عدداً من الناحية السكانية ، تمثل الملاذ الممكن لشعب يخشى من عودة ما هو أسوأ.

لكن منذ عام (١٩٦٧) تغير الوضع بصورة واضحة. أولاً لأنه منذ هذا التاريخ أصبح التفوق العسكرى لإسرائيل واضحاً للعيان. وقد تحقق لها ذلك بفضل تفوق الجيش الإسرائيلى على كل جيرانه العرب ، حتى لو تمكن هؤلاء من تشكيل تحالف متماسك وهو أمر غير محتمل ، فسيبقى هذا التفوق لإسرائيل بالنظر إلى الدعم الأمريكى ووجود سلاح نووى إسرائيلى^(٢).

لقد حصلت إسرائيل أثناء حرب (١٩٦٧) على مكاسب ، وأخذت أراضى من مصر (أعادتها فى إطار إتفاقيات كامب ديفيد ١٩٧٨) ومن سوريا والأردن. ويرى بعض الإسرائيليين ، أن هذه الأراضى هى بمثابة

١- لكنها كانت أيضاً ظروفًا مؤلة بالنسبة للفلسطينيين. انظر كتاب الخطيئة الأصلية لإسرائيل لدومنيك فيدال. دار الآتيلية سنة ٢٠٠٢ ، صفحة ٢٢٢.

٢- وبطريقة منذرة بشكل خاص كتب ريمون آرون وكأنه يستشرف المستقبل فى ١٩٧٦ فى كتابه المخصص لكللا وزفيتس 'فى غياب طرف ثالث صاحب مصلحة، هل فى امكان العرب والإسرائيليين وحدهم بلوغ السلام بقوة البعض وخضوع البعض الآخر؟ لا اعتقد ذلك. سيستمر البعض فى امتلاك العدد والزمن والمحيط بينما يمتلك الآخرون الجيش الأكثر فعالية. وقد يتنصر الجيش فى معركة، وربما فى أكثر، لكن هذا الجيش لا يمكنه وحده أن يصل إلى أى هدف بعينه. وفى هذه الحالة تصبح إدارة الحرب متوقفة على الحكام وتتطلب عند هذه النقطة استعمال وسائل غير عنيفة. غير أن إسرائيل منذ ١٩٤٨ إلى يومنا هذا توجه أمورها بحسب عقيدة الأمن ذات الفعالية العسكرية الجزئية والمؤكدة، وهى بهذا المعنى، ستسير فى اتجاه مناقض للغاية السياسية.

ضمانات أرضية من الممكن أن تعاد مقابل اتفاق حقيقى للسلام، بينما يرى البعض الآخر من الإسرائيليين أنها تمثل الأرض التوراتية لإسرائيل وأنه ينبغي الحفاظ عليها أيا كان الأمر.

لقد اتجه الفلسطينيون، تحت ضغط البلاد العربية، إلى رفض الحق فى إنشاء دولة فى عام (١٩٤٨)، أثناء تقسيم الأراضى فى ظل الانتداب البريطانى، وغزت الدول العربية ما كان يمكن أن يكون دولة فلسطينية عربية إلى جانب دولة إسرائيل وفقا لخطط الأمم المتحدة. والمفارقة أن ظهور القومية الفلسطينية قد جاء بصورة كبيرة "كنتيجة مترتبة"، وكرد فعل على احتلال إسرائيل للضفة وقطاع غزة^(١).

وفى ظل هذا الاحتلال الإسرائيلى سينمو ويتطور الشعور القومى الفلسطينى الذى لم يكن موجوداً من قبل، أو كان موجوداً فى نطاق محدود (حتى لو كانت منظمة التحرير الفلسطينية قد تشكلت فى عام ١٩٦٤ وفتح فى ١٩٥٩). وقد ساهمت بعض الأحداث بقوة فى ظهور الشعور القومى الفلسطينى: كالمذابح التى حدثت فى ١٩٧٠ (سبتمبر الأسود) والتى قتلت المملكة الأردنية الهاشمية خلالها ألافاً من الفلسطينيين المقيمين فى أراضيها فى حالة من عدم مبالاة من العالم العربى. لقد أرادت منظمة التحرير استخدام القوة والإرهاب فى البداية لإجبار الإسرائيليين على

١- ظهرت القومية الفلسطينية فى نهاية القرن التاسع عشر فى سياق حركة النهضة العربية، وتجدرت على مدار الحرب العالمية الأولى وأثناء الانتداب البريطانى. انظر هنرى لورانس فى "قضية فلسطين؛ الجزء الأول (١٧٩٩-١٩٢٢) الصادر عن فايار (١٩٩٩) وانظر كذلك الآن جريش ودومنيك فيدال فى "فلسطين ١٩٤٧ التقسيم المهضوم" عن دار كومبلكس بروكسيل (١٩٨٧).

الرحيل ، لكن مع الوقت بدأت تدرك أن اللجوء إلى الإرهاب وعدم الاعتراف بإسرائيل يفضى إلى طريق مسدود .

إن المسيرة الطويلة للشعب اليهودى والمسيرة القصيرة لدولة إسرائيل تشكلان تاريخاً مليئاً بالمخاطر . ويمكن للمرء أن يتفهم هذا الارتباط الوثيق لليهود بإسرائيل . لكن بدءاً من (١٩٦٧) ، ولنقل بوضوح أكثر بدءاً من ثمانينيات القرن العشرين ، حدث تحول فى مواقف شرائح كثيرة ، على رأسها كثير من اليهود أنفسهم، الذين أدركوا أنه لا يمكن إنكار حقوق الفلسطينيين باسم الدفاع عن إسرائيل . وأن احترام القانون الدولى يفرض القبول بإعادة الأراضى المحتلة والسماح بإنشاء دولة فلسطينية فوقها . وأن الاحتلال العسكرى المتواصل وتزايد المستوطنات اليهودية فى الأراضى الفلسطينية يفضيان إلى ما يفضى إليه أى احتلال عسكرى ، أى إذلال وقمع وحقد . الخ . وبالنسبة لكثير من اليهود فإن دعم إسرائيل يمكن أن يكون له حدود معينة ، وأن العدالة والمصلحة ، بما فيها مصلحة إسرائيل ، تكمنان فى قبول السلام مقابل الأرض . وهناك آخرون يرون ، على النقيض من ذلك ، أن من يعيشون خارج إسرائيل لا يمكنهم أن يعارضوا من هم " فى الجبهة " ، وأن التضامن مع إسرائيل هو تضامن غير مشروط .

هناك معادون للسامية يعارضون إسرائيل ، وهم أناس يعارضون إسرائيل بشكل دائم لأنها دولة يهودية ، ولهذا السبب فقط يعارضونها .

لا ينبغى إنكار وجود عدااء للسامية . ينبغى مكافحته دائماً وأبداً لأنه لم يختف ، لكن لا ينبغى أيضاً أن يستغل هذا الكفاح سياسياً لخدمة أغراض أخرى ، وهو ما تقوم به الحكومة الإسرائيلية عندما تجد نفسها فى مأزق

أمام المجتمع الدولي فلا تنظر للانتقادات التي توجه إليها على أنها انتقادات عادية، وإنما تنظر إليها كأنها موجهة إلى طابعها اليهودي.

يتميز هذا التكتيك بمزيتين وفقاً لوجهة نظر الحكومة الإسرائيلية الحالية. فهو يجرم سياسياً نقد إسرائيل. والذين يجاهرون بعدائهم للسامية سيظل عددهم محدوداً، والتلميح إلى أن مجرد انتقاد إسرائيل هو فعلاً عداً للسامية سيسفر عن تجميد البعض لحريتهم في نقد إسرائيل.

والمزية الثانية تكمن في أن المواطنين الإسرائيليين سيشعرون أمام انبعاث العدا للسامية بأن عليهم أن يتضامنوا بقدر أكبر مع حكومتهم، كما سيصل يهود الدياسبورا (الشتات) إلى تبني الموقف ذاته، وإذا كانت هذه الطريقة مفيدة لإسرائيل على المدى القصير، إلا أنها خطيرة على المدى البعيد، فمن أضرار هذه الطريقة أنها ستجعل من العدا للسامية أمراً شائعاً. فإذا كان كل العالم معادياً للسامية، إذن لا يوجد أحد معاد بشكل خاص. وهي طريقة خطيرة أيضاً لأنها تؤيد فكرة قديمة في معاداة السامية وهي وجود لوبي يهودي. فإذا كان كل يهود العالم وإسرائيل يرون - بصورة موحدة - الأمور ذاتها، ويفكرون بطريقة مختلفة عن الأغلبية ممن هم ليسوا إسرائيليين ولا يهوداً، فإن هذا الأمر يشكل دليلاً كبيراً على وجود لوبي يهودي بالنسبة للمعادين للسامية.

وتساءل إستير بنباसा Esther Benbaassa بصدد الفظائع التي يتعرض لها أبناء الشعب الفلسطيني، الأمر الذي يجعلها تشعر بأقصى درجات العار فيما يحدث - "كيف نظل كيهود وكأننا لا نرى ولا نسمع عن كل هذا

الذى يحدث؟^(١) .وقع عدد كبير من المثقفين والعلماء الفرنسيين نداءً ينتقد سياسة شارون حتى باسم يهوديتهم^(٢) . كما نشرت صحيفة لوموند فى ١٨ سبتمبر (٢٠٠٢) خطاباً مفتوحاً إلى المجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية فى فرنسا ينتقد "الدعوة المتعسفة للذين يرفضون سلاماً عادلاً فى الشرق الأوسط" وقعه عدد كبير من المثقفين والعلماء اليهود وبعضهم من الذين عاصروا فترات النفى الإجبارى . كما نجد العديد من مسئولى جمعيات التضامن مع الفلسطينيين من اليهود . ومنذ سبتمبر (٢٠٠١) نجد تيوكلاين، الرئيس السابق للمجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية بفرنسا والذى يملك جنسية مزدوجة - فرنسية وإسرائيلية - ينتقد ويدين عبر العديد من المقالات أو المقابلات والإصدارات، المازق الذى يقود إليه شارون دولة إسرائيل . وإذا كانت غالبية الطائفة اليهودية الأمريكية يصطفون كتلة واحدة خلف شارون، فإن الوضع ليس كذلك فى أماكن أخرى . ففى بريطانيا نجد عدداً من الشخصيات اليهودية، عبر نص منشور بصحيفة الجارديان فى ٨ أغسطس (٢٠٠٢)، وقد تخلوا عن حقهم فى المواطنة الإسرائيلية احتجاجاً على سياسة شارون فى الأراضى المحتلة .

وصرح جوناثان ساكس Jonathan Sacks الحاخام الأكبر فى بريطانيا، أن الصراع مع الفلسطينيين "يفسد" الثقافة الإسرائيلية^(٣) . وتوضح هذه النماذج شيئين، على نقيض ما يريد أن نعتقد به غلاة الموالين لإسرائيل

١- "بين العار والعاصفة" . صحيفة ليبراسيون عدد ١٠/٤/٢٠٠٢ . كما أصدرت إستير بيناسا مع جان كريستوفر أتياس كتاباً بعنوان: هل لا يزال لليهود مستقبل؟ عن دارجان كلود لاتيس ٢٠٠١ .

٢- "بوصفى يهودياً" صحيفة لوموند ١٨/١٠/٢٠٠٠ .

٣- الحاخام الأكبر فى بريطانيا ينتقد إسرائيل . ليبراسيون فى ٢٨ أغسطس (٢٠٠٢) .

والمعادين للسامية في آن واحد. الشيء الأول هو انه يمكن انتقاد حكومة إسرائيل بدون أن نكون معادين للسامية، والثاني هو أن الطائفة اليهودية ليس لديها مواقف موحدة في هذا الشأن.

وفي مقالة بالهيرالد تريبيون الدولي، في ديسمبر (٢٠٠١) ^(١) - لم يتم الإشارة إليها في فرنسا على الرغم من أن أجهزة إعلامها تتهم بانتظام بأنها معادية لإسرائيل - تشير إلى أن روني كازريكس (Ronnie Kasrils) وماكس أوزنسكي (Max Osinsky) وهما اثنان من يهود جنوب أفريقيا ومن أبطال الكفاح ضد التمييز العنصري، قد أثارا جدلاً كبيراً بنشرهما في صحافة بلدهما مقالاً شارك في التوقيع عليه ٢٢٠ يهودياً من جنوب أفريقيا عنوانه "ليس باسمي"، مؤكدين على حق إسرائيل في الأمن، لكنهما يحملان في الوقت ذاته الدولة العبرية، في هذا الإعلان، مسئولية تفاقم العنف في الشرق الأوسط، وقارنوا بين المعاملة التي يلقاها الفلسطينيون بتلك التي تعرض لها السود في جنوب أفريقيا أثناء فترة التمييز العنصري.

ومن المعروف أن التمييز العنصري في جنوب أفريقيا تشكل في عام ١٩٤٨، وهو العام نفسه الذي تأسست فيه دولة إسرائيل. وكان الحزب القومي (في جنوب أفريقيا) قد صنف اليهود بوصفهم "من البيض" الأمر الذي أبعدهم عن قسوة التمييز العنصري. وبعد ذلك قامت إسرائيل وجنوب أفريقيا بتطوير العلاقات بينهما، وظلت هذه العلاقات قائمة حتى بعد أن قرر المجتمع الدولي فرض عقوبات ضد النظام العنصري بجنوب أفريقيا، غير أن هناك من يهود جنوب أفريقيا من تخلى عن أمانه وامتيازاته لكي ينضم إلى المؤتمر القومي الأفريقي ANC.

بالطبع المقارنة بين إسرائيل وجنوب أفريقيا لها حدود. فإسرائيل ليست

١- «إعلان ضد أتباع إسرائيل من يهود جنوب إفريقيا» هيرالد تريبيون الدولي، ٢١ ديسمبر ٢٠٠١.

فى حاجة إلى الفلسطينيين كى تعيش، بينما كان السود ضروريين لجنوب أفريقيا العنصرية. ومن الناحية القانونية نجد أن المواطنين فى إسرائيل يتمتعون بالمساواة، وهو ما لم يكن قائماً فى جنوب أفريقيا العنصرية. وشاء القدر أن يكون مصير الفلسطينيين فى الأراضى المحتلة، خاصة إذا ما قارناه بمصير المستوطنين، هو مصير مواطنين من الدرجة الثانية، وهو ما تنتقده المنظمات الإسرائيلية لحقوق الإنسان.

لا توجد إذن علاقة مباشرة بين انتقاد إسرائيل والعداء للسامية. فالمرء لا ينتقد إسرائيل فى وجودها، وإنما لما تقوم به.

والحال أنه منذ عامين ونصف لا يحظى ما تقوم به إسرائيل بترحيب متزايد. بالتأكيد يمكن نقد النقد والقول بأن أولئك المعادين لسياسة شارون لا يضعون فى الحسبان كل الاعتبارات، أو ينسون هذا الدليل أو ذاك. غير أن الموقف المتمثل فى إلصاق تهمة العداء للسامية لأى نقد إنما يهدف فى الحقيقة إلى منع أى حوار حول هذه القضايا.

هل يمكن أن نميز بين معاداة السامية (العداء لليهود) ومعاداة الصهيونية (رفض وجود دولة إسرائيل)؟ الإجابة بالنفى كما يقول غلاة الموالين لإسرائيل لأن العداء للصهيونية، كما يرون، هو شكل ناتج عن العداء للسامية.

يمكن أن نرصد تصريحات عديدة سائرة فى الاتجاه ذاته ومؤدية إلى غموض مزدوج: فمن جهة نقد حكومة إسرائيل هو عداء للصهيونية، وأن تكون معادياً للصهيونية يعنى أن تكون معادياً فى الواقع للسامية.

ويرى بيير أندريا تاجييف، وهو أحد المؤلفين الأكثر إسهاباً فى التطرق لهذا الموضوع، أن هناك مواقف دعائية تعتمد على جدالات مغلوطة فى

تسلسها 'يهود = صهاينة (إسرائيليين)، صهيونية = كولونيالية وعنصرية، شارون = هتلر، إسرائيليين = نازيين' (١)

بالفعل هناك متطرفون مناصرون للقضية الفلسطينية يقومون بهذا الخلط بين الإسرائيليين والنازيين، أو بين شارون وهتلر، لكن هذا الخلط لا معنى له وينزع الصداقية عن القضية التي يدعون خدمتها. لكن من الخطأ أيضا التأكيد على أن كل من ينتقدون إسرائيل يمارسون هذا الخلط... فهو قائم، وهو مدان، وهو نتيجة عمل أقلية صغيرة.

في كتابه المخصص لظاهرة "العداء لليهود"، يقول تاجييف: إن استخدام كلمة "معاد للصهيونية" يتضمن التفافاً وإحلالاً لهذا التعبير بدلاً من آخر هو العداء للسامية، وهو تعبير صريح ومباشر وقد ينزع الصداقية. ففي الساحة العامة للمجتمعات الديمقراطية التعددية منذ (١٩٤٥) لا أحد يقول: معاد للسامية أو معاد لليهود. لكن عدداً متزايداً من الأفراد يصرحون بأنهم: "معادون للصهاينة" (٢)

وتاجييف، الذي يستعير مصطلح "كراهية اليهود" من المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون، وهو يهودي أيضاً، لا يتبع هذا الأخير في تمييزه بين العداء للسامية والعداء للصهيونية، والذي أكد على الطابع العبي للخلط بينهما (٣).

١- "الأشكال الجديدة للعداء للسامية". صحيفة الفيجارو عدد ٨ أكتوبر ٢٠٠٢.

٢- الكراهية الجديدة لليهود دار ألف ليلة وليلة ٢٠٠٢. ص ٤٢. شفيق مراد كركي

٣- مكسيم رودنسون: شعب يهودي أم مشكلة يهودية. دار ماسبيرو (١٩٨١)، ص ٣١٥ "وهكذا فإن معارضة مشروع سياسى معين، ونقد نتائجه يتم تحويلهما إلى عداء جوهرى تجاه كل الجماعة الاثنية الدينية التى نما فيها". والكتاب تم إعادة نشره فى (١٩٩٧) عن دار لاديكوفرت.

ويمكن فى الواقع قلب المنطق السياسى لتاجييف. من منظور أن العداة للسامية صار هامشياً ومداناً بشدة فى العالم، ولا أحد يصرح بذلك بالفعل بدون أن يتعرض للخرى أو للإدانة الجنائية كما هو الحال فى فرنسا. وفى الوقت ذاته فإن سياسة إسرائيل التى صارت متقدمة أكثر فأكثر فى العالم، ومن أجل تمكين هذه الدولة من الإفلات من النقد، كان من الضرورى إذن ماثلة أى نقد يوجه لسياسة إسرائيل بالعداء للسامية.

ونجد باتريك كلوجمان، وهو رئيس اتحاد الطلاب اليهود بفرنسا، والذى عبرت مواقفه عن اعتدال وانفتاح نحو الحوار، يؤكد مع ذلك على أن "العداء للصهيونية هو الذى يقود فى نهاية المطاف إلى حرق المعابد اليهودية كما حدث منذ عام. ولا يمكن للمرء أن يكون معادياً للصهيونية وأن يكون خالياً تماماً من عداة للسامية بشكل ما. على الصعيد النظرى يمكن الفصل بين العداة للسامية والعداء للصهيونية. وأضف إلى ذلك أن إسرائيل تشكل واقعاً ملموساً وقائماً. وإنكار حق اليهود فى أن يكون لهم دولة هو فى واقع الأمر إنكار لحقيقة أنهم شعب وأن لهم بالتالى الحق فى استكمال كل مكونات الشعب، بما فى ذلك دولة هذا الشعب. من الصعوبة بمكان إدراك أن العداة للصهيونية منفصل عن العداة للسامية. وأولئك الذين يقفون خلف هذا التخييل ينبغى أن يعرفوا أن الستار فى طريقه للسقوط". (١)

بعض الأشخاص يصرحون علناً بموقفهم المعادى للصهيونية، فضلاً عن ذلك، يتمون إلى الطائفة اليهودية فى فرنسا. ويرون أن اليهود عليهم أن

١- جان بيير اللالى "الأشكال الجديدة للعداء للسامية: تشريح قلق" عن دار Desclee de Brouwer مارس (٢٠٠٢).

يندمجوا، بصورة فردية، داخل الدول التي يعيشون بها، وأنهم ليسوا في حاجة إلى دولة خاصة قد تكون بالضرورة مؤسسة على العرق والدين. وهؤلاء ينتمون إلى يسار المشهد السياسى مثل رونى برومان، لكن أيضاً نخدمهم فى اليمين الليبرالى مثل جى سورمان^(١)

فى العالم العربى، هناك من يرفضون ولا يقتصر الأمر فقط على الافراد دائما وأبداً وجود دولة إسرائيل، لأنها دولة اليهود، ويخلطون إذن بين العداء للسامية والعداء للصهيونية. نحن هنا أمام حالة غموض شاملة. فإذا كانت مسلمة "نقد شارون= العداء للصهيونية= العداء للسامية" يتم تكرارها بدون كلل، فإنها لم تبرهن أبداً على صحتها. وإذا كتبت أن بوش أخطأ فى تصعيد الأحادية القطبية الأمريكية، وأنها على المدى البعيد لا تخدم مصالح الولايات المتحدة، ولا تخدم المصلحة العامة فى المدى المباشر، وحتى إذا كنت أعرف أن هذه السياسة يدعمها غالبية الشعب الأمريكى، فإن هذا لا يعنى أننى أتمنى بذلك، نهاية الولايات المتحدة الأمريكية كدولة. وإذا كتبت أن السلطات الروسية أخطأت فى تغليبها الحل العسكرى على أى حل سياسى فى الشيشان، حتى إذا كان غالبية الروس يشجعون هذه السياسة، فأنا لا أعارض الدولة الروسية بوصفها دولة. وإذا كتبت أن القادة الفرنسيين أخطأوا فى توجيههم نحو حل المشكلة الجزائرية بالقوة، وأن استقلال الجزائر كان المخرج الوحيد الممكن، مهما كانت الانتقادات التى يمكن أن نوجهها إلى جبهة التحرير الوطنى الجزائرى، فأنا لا أرغب بذلك فى اختفاء الجمهورية الفرنسية. بل يمكن القول، على النقيض من ذلك، إن فرنسا أصبح لها هامش من المناورة أكثر على الصعيد الدولى، وحازت

١- أبناء رفاة، دار فايار، (٢٠٠٣)، فصل "نهاية الشعب اليهودى" ص١٩٧-٣١٨.

مزيدا من الاحترام فى العالم حين حلت المشكلة الجزائرية. بالنسبة لى أنا مقتنع بأن دولة إسرائيل هى واقع سياسى وتاريخى واجتماعى لا جدال فيه. ولها الحق فى الحياة فى سلام عبر حدود آمنة ومعترف بها. وأعتقد أيضا أنه لا يمكن اعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية.

لكن الاعتراف بحق إسرائيل فى الوجود لا يعنى الاعتراف بحقها بأى شئ، بل على العكس، من منظور أننى أعتبر أن إسرائيل دولة مثل الدول الأخرى، فإن لها الحقوق نفسها لكن أيضا عليها الواجبات نفسها. وأن الاعتراف بالواقع القومى الإسرائيلى لا يمكن أن يقوم على قاعدة عدم الاعتراف بالواقع القومى الفلسطينى.

ولم تكن إزالة التمييز العنصرى فى جنوب إفريقيا تعنى البتة إزالة دولة جنوب إفريقيا، وإنما على العكس سمح لها ذلك بالاندماج فى المجتمع الدولى ومنحها مكانة لا تضاهى. فإذا وضعت إسرائيل اليوم بمحض إرادتها، وهى فى مركز قوة ورغم تهديد الإرهاب، نهاية لاحتلالها للأراضى والاعتراف باستقلال الدولة الفلسطينية، فإن هذا لا يعنى نهايتها كدولة، بل على العكس تتحقق لها شعبية متميزة على الصعيد الدولى تقوم بتدعيم أمنها أيضا.

بشكل عام: المعادون للسامية هم معادون للصهيانية. بالطبع يمكن للمرء أن يكون معاديا للسامية ومعاديا للصهيانية فى الوقت ذاته، لاسيما لدى اليمين المتطرف بالساحة السياسية. وهذا يتمثل فى تفضيل رؤية اليهود فى إسرائيل وليس فى بلد آخر. لكن هناك معادين للصهيانية ليسوا معادين للسامية بما أنهم أنفسهم من اليهود، غير أن أغلب الذين يتقدون إسرائيل ليسوا من هؤلاء ولا أولئك.

هناك عديد من اليهود، ممن لا يشك أحد في إرتباطهم بإسرائيل يؤكدون ذلك. وتبرهن مواقفهم الشجاعة على أن رأى يهود فرنسا ليس موحداً في هذا الشأن كما يحاول البعض الإيحاء بعكس ذلك سواء من قبل ممثلى مؤسسات الطائفة اليهودية أو من المعادين للسامية أيضاً.

وليس من السهل رؤية الإسرائيليين الذين يؤكدون أن شارون قد أخطأ برفضه تسوية مع الفلسطينيين، وهم متهمون بأن ما يحركهم هو العداء للسامية. وتيوكلالين هو بالتأكيد الوجه الرمزي لهذا التيار. وكما يشدد هو ذاته:

"ليس لأتينا على إختلاف مع هذا الموقف أو ذاك ليهودى أو للدولة اليهودية نكون معادين للسامية! للمرء الحق فى نقد إسرائيل. ويصدمنى هذا الانغلاق على الهوية الذى يجسده هذا الخوف من العداء للسامية". (١)

١- الفيجارو عدد ٣ ديسمبر (٢٠٠١). وقد عاد الرئيس السابق للمجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية بفرنسا مرات عديدة إلى هذه القضية: اعتبر أن (المعادى للصهيونية) هو كل شخص يرفض فكرة دولة يهودية على تلك الأرض التى كانت تسمى أثناء الوجود البريطانى فلسطين، أرض إسرائيل. ويبدو لى هذا الأمر معارضة ايدولوجية. وبالقدر نفسه الذى يمكن للمرء أن يكون لا ماركسيا يمكن له أن يكون لا صهيونيا".

"واعتبر أن اللاسامى هو شخص يرفض من حيث المبدأ إعطاء اليهود الحقوق ذاتها والاحترام ذاته الذى يمنح للآخرين، أو هو شخص يعتبر أن اليهودى لا يمكن أن يكون، على سبيل المثال، هو المواطن الحقيقى لدولة كفرنسا، أو على الأقل لا يمكنه ممارسة كافة الحقوق التى تمنحها له وضعيته كمواطن. حكومة فيشى كانت لاسامية. ولاساميتها ترجمت بشكل واضح فى إقرارها وضعية خاصة باليهود وليس لى أن اعتبر شخصا لا يشاركنى وجهات نظرى لاساميا بشرط أن يعبر عن وجهات نظره بصورة لائقة. فحوار الأفكار هو حوار مفتوح. لكن على العكس إذا انتقد شخص ما أقوم به وما اعتقد به لأسباب مرتبطة بما أكونه، بوجودى كيهودى، آنذاك هناك فى معارضته شئ ما يمكن أن نعتبره لاسامية". المجلة الدولية والاستراتيجية عدد ٤٧ خريف (٢٠٠٢). ويسير فى الاتجاه ذاته قائد الاوركسترا الشهير داتيل بارين باوم: "كثير من الناس يعتقدون أن انتقاد شارون يعنى اللاسامية. هذا الكلام لاصلة له بالحقيقة" أنا لا أفهم شارون". الفيجارو عدد ٩ أبريل (٢٠٠٢).

لا أعتقد بوجود لوبي يهودى . هذا التعبير يشكل أحد المحرمات لسبب بسيط هو أنه قد استخدم من قبل المعادين للسامية بدون روية . فهو يتضمن فكرة جماعة منظمة تتحكم فى الإعلام والمال والسلطة لخدمة مصالحها الطائفية فقط . وهذه الفكرة ليست فقط شائعة بل رائجة أيضاً .

لا يوجد لوبي يهودى ، لأن الطائفة اليهودية الفرنسية متنوعة سياسيا واجتماعيا وثقافياً واقتصادياً ، الخ . وحتى بالنسبة للصراع الإسرائيلى الفلسطينى فإن مواقفها على درجة كبيرة من التنوع والاختلاف .

وهناك يهود غير صهيونيين ، سواء لأنهم متدينون جداً أو لأنهم علمانيون جداً . بالنسبة للمجموعة الأولى تبدو لهم دولة إسرائيل مناقضة لمملكة الله . وبالنسبة للمجموعة الثانية فإن الدولة اليهودية كما هى تمثل نوعاً من الضلال . وهناك صهاينة يرون أن العدالة ومصلحة إسرائيل تلتهيان على الأمد البعيد ، ولا يتعارضان مع الاعتراف بإنشاء دولة فلسطينية . غير أن طرق الوصول إليها ليست واحدة بالنسبة للجميع . البعض يرى أن حلاً عسكرياً ينبغى أن يفضى إلى حل سياسى . وآخرون يرون أن اللجوء إلى الوسائل العسكرية يحول دون ظهور حل سياسى . وبين هذين الرأيين هناك كافة التنبؤات الممكنة . وآخرون يرون ، فى النهاية ، أن الفلسطينيين لديهم دولة فعلاً هى الأردن . ويرى البعض أن طرد الفلسطينيين نحو هذه الدولة سيحل المشكلة . بينما يرى البعض الآخر أن الفلسطينيين ، ببساطة ، ليس لهم أى حق .

تبدو الطائفة اليهودية فى فرنسا مثل كل الطوائف موحدة وكتلة واحدة إذا نظرنا إليها من بعيد ، وإذا لم نعرفها جيداً ، أو عرفناها قليلاً . وكلما اقتربنا منها أكثر ظهرت الاختلافات على سطحها ، لكن أليس الأمر ذاته

لدى الكاثوليك، والمسلمين، والماسونيين، والمعلمين، والزراعيين، والعسكريين، والشواذ جنسيا الخ.؟

إنّ لا يوجد لوبي يهودى، حتى إذا كان علينا أن نستخدم هذا التعبير دون أن يشير مشكلة أكبر من تلك التى تحدث عندما نتحدث عن لوبي زراعى، كاثوليكي، ماسونى، بروتستانتى، تعليمى، عربى، عسكرى، الخ. فسهولة استخدام التعبير تجعله ينتشر على حساب الواقع الأكثر تعقيداً، وبالفعل يستخدم مصطلح لوبى، فى العادة، بصورة سلبية من قبل خصوم طائفة ما. بينما نجد مفهوم اللوبى فى الولايات المتحدة من الأمور الشائعة بل وأكثر من ذلك من الأمور المطالب بها. وليس هذا هو السائد فى فرنسا. وإذا لم يكن هناك لوبى يهودى فهناك بالمقابل "لوبى" موال لإسرائيل. ويشمل بالطبع يهوداً لكن يشمل أيضاً غيرهم.

وهكذا نجد، فى هذا الإطار، اقتراحاً من ثمانين برلمانياً لإنشاء لجنة تحقيق حول استخدام القروض الممنوحة من فرنسا بموجب التعاون الدولى الأوروبى إلى السلطة الفلسطينية^(١). ووفقاً لهؤلاء فإن المساعدة يتم تحويلها لصالح النساء والإرهاب والتعليم الذى يزرع الحقد. وطالب خمسة عشر من البرلمانين، فى مقال نشرته جريدة الفيجارو^(٢)، ب إطلاق تحرك عام لدى الجهات القضائية ضد الأشخاص والجمعيات التى تنادى بمقاطعة البضائع الإسرائيلية. لقد تضامنوا بصورة تامة مع حكومة شارون.

هناك فى هذا اللوبى الأكثر موالاة لإسرائيل فرنسيون من غير اليهود يؤكدون على تضامنهم مع إسرائيل لأسباب متعددة، يقومون بذلك كرد

١ - مضبطة رئاسة البرلمان الفرنسى فى ٢ أكتوبر (٢٠٠٢)، المادة ٢٤٠ للسيد كلود جواسجون

٢ - 'مقاطعة فاضحة'. الفيجارو ١ نوفمبر (٢٠٠٢).

فعل على الإبادة النازية، وكإعجاب ببلد صغير بدأ من لا شيء، كان لروح الريادة أثر كبير في نجاحه، أو لأنهم معجبون بالديمقراطية الإسرائيلية وبنمط الحياة الإسرائيلية حيث أقاموا هناك فترة من الزمن، أو لأنهم مع دولة صغيرة ديمقراطية في مواجهة أنظمة عربية تسلطية، الخ.

يؤكدون أيضاً على هذا التضامن مع إسرائيل لأنهم ارتبطوا بعلاقات عائلية، لاسيما الزواج من يهود، وبعض هؤلاء لديهم، إضافة إلى ذلك، ميل للدفاع عن إسرائيل بأى ثمن. وآخرون يتضامنون لأسباب أقل نبلاً، لأنهم لا يحبون العرب، وتبدو لهم إسرائيل بوصفها الدولة الوحيدة التى لا تتردد فى النيل من العرب. والبعض الآخر يتضامن مع إسرائيل من قبيل الحذر، لأنهم يرون أن نقد إسرائيل سيدفع بإناس حازمين للوقوف ضدهم. كما نجد فى أقصى المشهد بعض الفرنسيين من غير اليهود يتمون إلى اللوى الأكثر ولاءً لإسرائيل وهم فى الوقت ذاته من المعادين للسامية، جامعين بذلك بين النذالة والعار (والحال أن الصفتين تسيران فى العادة معا) فهم يعتقدون أن اليهود على درجة كبيرة من القوة (ويشكلون لوى موحداً) وبالتالي فمن الأفضل الوقوف إلى جانبهم.

من الذى يمكن أن يندهش أو يصطدم بواقع أن يهود فرنسا لديهم علاقة خاصة بإسرائيل؟ فضلاً عن أن الفرنسيين ليسوا وحدهم الذين يملكون شعوراً ذا طابع خاص إزاء هذا البلد. لكن المشكلة هى أن البعض القليل منهم سبق تضامنه مع إسرائيل أى اعتبارات أخرى مهما كانت الظروف. لأنهم يعتقدون أن إسرائيل فى نهاية المطاف تظل الملاذ الوحيد لليهود فى العالم كله فى حالة تجدد العداء للسامية. ولأنهم يعتبرون أن إسرائيل معزولة ومهددة وتستحق إذن التضامن معها تضامناً لا يقبل النقاش، لأنهم ليسوا فى المكان ذاته على الجبهة الشرق الأوسطية. فبعضهم يشعر بذنب

لأنهم لا يعيشون في إسرائيل، فيحولون دون أى نقد يوجه إليها ويعبثون أنفسهم لجلد كل من تسول له نفسه القيام بهذا النقد. وهذا يدفعهم إلى مساندة غير مشروطة مهما كان ما تفعله الحكومة الإسرائيلية. فالنقد سيكون خيانة.

ستشكل إذن جماعة غلاة الموالين لإسرائيل، والتي ستجعل من المساندة العمياء لإسرائيل منهجها ونقطة الاحتكام الرئيسية في تحديد عملها وأحكامها. وسيذهبون، في دعمهم، إلى أبعد من واقع أنهم "لا يمكنهم الوصول إلى الموضوعية الكاملة" التي تحدث عنها ريمون آرون عندما يتعلق الأمر بإسرائيل، وسيفضلون تضامناً طائفاً يسبق أى شئ آخر. وسيدعمون الحكومة الإسرائيلية في كل المناسبات، ويجدون لها كل الأعذار الممكنة مقدماً، ولا يلتزمون أى شئ من هذه الأعذار لأولئك الذين يعارضونها. وسيقبلون بأحداث يدينونها إذا ارتكبها آخرون غير الحكومة الإسرائيلية^(١). وعندما تبتعد ممارسات الحكومة الإسرائيلية عن احترام المبادئ الإنسانية نجد تشنجهم الطائفي يقودهم ليس إلى نقد هذه الممارسات وإنما إلى تحميل مسئولية تدهور الأوضاع إلى الفلسطينيين وحدهم. لقد رأينا على مدار الثلاث سنوات الماضية مثقفين وخبراء وصحفيين كانت لهم علاقة حذرة مع الشرق الأوسط، ثم إذا بهم يسقطون في الطائفية الأكثر احتياجاً ويدافعون عن فرضيات جذرية لصالح حكومة إسرائيل، وهم الذين كانوا من الأوائل في رفضها حتى وقت ليس ببعيد. لديهم الحق تماماً في الدفاع عن وجهات نظرهم في إطار مناقشات ديمقراطية.

١- مكسيم ردونسون قد أدان من قبل في (١٩٨١) "أولئك الذين يدون أكبر قدر من التسامح إزاء الممارسات الإسرائيلية، في الوقت الذي تثير استيائهم الشديد لدى حدوثها من قبل آخرين، مرجع سبق ذكره ص ٣٠٥.

بالطبع ليس ممنوعاً أن يكون الإنسان مع سياسة شارون. لكن من غير المقبول أيضاً أن يتهموا من لا يشاركونهم وجهات نظرهم بأنهم معادون للسامية. لماذا لا يقبلون أن يكون للمرء الحق في نقد حكومة دولة إسرائيل ليس فيما يشكل هويتها وإنما لما تفعله؟ ولماذا لا يقبلون أن يكون للمرء الحق في أن يؤيدها- إذا كنا من المناصرين للسلام- عندما تسير في عملية أوصلو، ونقدتها عندما تجعل السكان الفلسطينيين مسئولين بصورة جماعية وتعاقبهم بالتالي على أعمال إرهابية لبعض المتطرفين؟

أن يدعم الإنسان دولة ما، لا يعنى بالضرورة أن يعطيها الحق في كل الظروف، بل يمكن النظر حتى إلى النقد على أنه يندرج ضمن واجب الولاء. ومع تدهور الوضع بين الإسرائيليين والفلسطينيين منذ خريف (٢٠٠٢)، صارت العلاقات مع إسرائيل أكثر حساسية أيضاً عما كانت عليه من قبل. وبينما كان النقد الموجه للحكومة الإسرائيلية يتصاعد كتنجيعة مباشرة لتزايد القمع الإسرائيلي،^(١) كان غلاة الموالين لإسرائيل يرون ذلك نتيجة تصاعد العداء للسامية.

هناك مثقفون مناصرون للسلام، ومؤيدون لإنشاء دولة فلسطينية إلى

١- حول مسألة حقوق الإنسان في الأراضي الفلسطينية، انظر: إسرائيل، فلسطين، الكتاب الأسود. محققون بلا حدود. لاديكوفرت (٢٠٠٢)
انظر المواقع التالية على الأنترنت:

Silte de B'Tselem. The Israeli Information Centre for Human on Right in the occupied Territories: WWW.B.Tselem. org.

.. العساكر الإسرائيليين الرافضين للخدمة في الأراضي المحتلة:
<http://WWW.Seruv.org.il/defaulteng.asp>.

وموقع حركة "السلام الآن".
<http://WWW.Peacenow.Org.il/English.asp>. WWW.Peacenow.org.

جانب إسرائيل عن إقتناع أخلاقي واختيار عقلاني في الوقت ذاته، وإذا كانوا قد ظلوا دائما مؤيدين نظريا لهذا الحل، إلا أنهم يأخذون، مع ذلك، مواقف لا تتوافق مع هذا الهدف إلا قليلا.

فهم لا يرفضون فقط توجيه أدنى نقد تجاه شارون، بل يأخذون أيضا مواقف في المناقشات لا تختلف في شيء عن مواقف المتشددين من الليكود، ولا يترددون في أبلسة معارضيتهم. وتزايدت المواقف المتطرفة منذ عام (٢٠٠٠)، ومن كانوا من المعتدلين صاروا من المتطرفين ومن كانوا من المتطرفين صاروا أكثر تطرفا^(١).

وكما يؤكد، على ذلك، إيلي بارنافي: "لا، إذا كنت قلقا، فذلك لأنني أدركت مدى الانحراف الأصولي الذي يهدد طائفتك".^(٢)

والنموذج الواضح لذلك هو ألان فينكلكرت، وهو فيلسوف زائع الصيت في أجهزة الإعلام ولدى عامة الناس. ففي عام (١٩٩٩) كان قلقا من عودة العنف: "العنف اللفظي، العنف المادي، الانحسار في اختيارات السلوك المتاحة إلى بدائل صديق/عدو، وبالمقابل إلى يهودي/خائن".

وكان يشعر بالسرور لأن العداء للسامية قد عرف "أفولا ملحوظا"... غير أن كل شيء كان يسير كما لو أن "الشوا" تحتل اليوم كل ساحة الذاكرة اليهودية، الأمر الذي يفضي إلى شعور بالقلق والعزلة.^(٣)

١- هكذا صرح الكسي موشيه مثل ليكود فرنسا "اليوم نجند الخطاب السائد في UJF,BCBGمشابها لما كنا نقوله منذ عشر سنوات. صحيفة لوموند ١٣ يناير (٢٠٠٣).

٢- إيلي بارنافي، خطاب مفتوح إلى يهود فرنسا، دار Stock-Bayard ، ٢٠٠٢، ص ٣٦-٣٥.

٣- مجلة L'Evenement، عدد ١٨-٢٤ فبراير (١٩٩٩).

وكتب أيضاً، في ٢ نوفمبر (٢٠٠٠): لا يتعلق الأمر بحماية إسرائيل من النقد بل بإبعاد النقد للموجه لإسرائيل عن اللطيف واللامية.^(١) وهو ذاته فينكلركروت، الذي مارس يعد ذلك خطاً بين الشباب الذين نزلوا إلى استاد فرنسا أثناء مباراة فرنسا والجزائر، وبين كل الفرنسيين من أصل جزائري المقيمين في فرنسا، وهو أيضاً الذي لم يجد في كتاب أوريانا فالانشي^(٢) سوى عيوب شكلية، وهو ذاته الذي سينهب إلى الشهادة ضد دانييل ميريه^(٣) في القضية المرفوعة ضده بتهمة العدا للسامية. (٤)

١- كان يشكو من وسائل الإعلام التي تركز مساحة للضحايا الفلسطينيين أكبر من المساحة المكرمة للضحايا الإسرائيليين لأنهم كانوا أكثر عدداً، وكان يعترف بالطابع الكابوسي الذي تمثله المستوطنات كمصدر لإذلال الفلسطينيين. ووقاله فإن الفلسطينيين بالنسبة للمستوطن "لا وزن لهم، وستظل في ذاكرتي لفترة طويلة صورة حديثة ليهودي متدين كان يجوب الشوارع المهجورة لمدينة ممنوعة على العربي أثناء حظر تجول شامل. لا شيء يجسد خطأ إسرائيل أكثر من هذا ..."

٢- انظر الفصل السابع.

٣- انظر الفصل الثاني.

٤- ومع ذلك فإن هذا الفليسوف قد دافع بشجاعة، قبل عامين، عن رينوكامو الذي تعرض لسخرية بسبب أقوالاً نارية الطابع فيما يتعلق ببرنامج بانوراما بإذاعة فرانس كولتور. "أخيراً جاء رينوكامو. والساهاون الذين يجوبون بيأس صحراء التار سيكاثون بعد طول انتظار. فالعدو حي وقائم. والشر سيوقف من جديد كآبة الأيام." الان فينكلركروت. صحيفة لوموند، عدد ٢٠ يونيو (٢٠٠٠). ويرى فينكلركروت أنه بالنسبة لعدد من الفرنسيين الذين كانت أسرهم معادية للسامية لم يعد هناك مجال للمجال في خطأ الأجداد. وكذلك بالنسبة لعدد من اليهود الذين لم يلحقهم أي ضرر لذلك سنحت لهم الفرصة لكي يعيشوا أحاسيس الملاحقة. "مقتبس من les maîtres censeurs اليزايث ليفي ص ٣٠٨.

بيد أنه يصرح في (٢٠٠٢): "يطلبون مني أن أكون يهودياً جيداً. إذن على أن أكون فلسطينياً، وداعماً لياسر عرفات بدون شروط، وإذا أظهرت ذلك أنقذت نفسي. أما إذا أددت تحفظاً فساكون يهودياً سيئاً، ومتواطئاً مع شارون. إذن نازى".^(١) اليس هذا منطقاً متسرعاً إلى حد ما.

يسير في الاتجاه ذاته جاك تارينو الذى يقدم نفسه كباحث غير أنه فى الحقيقة ملتزم التزاماً مهووساً بالدفاع عن إسرائيل كمصدر وحيد لتجربته: "منذ أكثر من عام وإسرائيل، مهما تفعل، تتعرض لشهير الأمم. هناك نوع من التهليل الاعلامى يسعى لإضفاء الطابع النازى على إسرائيل، وجعلها مذنبه بطبيعتها دون أن يريد أحد أن يأخذ بعين الاعتبار مغزى القنابل البشرية".^(٢)

والحال أن أغلب أولئك الذين يفضلون الحل السلمى فى الشرق الأوسط يدينون العمليات الانتحارية، وفى الوقت ذاته يدينون القمع الإسرائيلى. لكن غلاة الموالين لإسرائيل لا يفعلون سوى إدانة الفلسطينيين والتغاضى عن الإسرائيليين. أضف إلى ذلك أن يهود فرنسا الذين أخذوا موقفاً ضد شارون تعرضوا للإهانات من قبل اللوى الموالى لإسرائيل. ويتم إتهامهم بصورة منتظمة بأن ما يحركهم الحقد على الذات "أو الرغبة فى إرضاء أعداء إسرائيل، والرغبة فى الظهور عبر إستراتيجية

١- النوفيل أوبرفاتور عدد ٤-١٠ إبريل (٢٠٠٢).

٢- "أى متعة فى إضفاء الطابع النازى على إسرائيل؟" لبراسيون ١٣-١٤ إبريل (٢٠٠٢).

فردية ، أو بدافع تجارى والظهور بمظهر اليهودى الذى يتقدم
إسرائيل. (١)

ولم يتردد الرئيس الحالى للمجلس التمشيلى للمنظمات اليهودية فى
فرنسا روجيه كوكيرمان فى الرد على ايال سيفان ، وهو سينمائى إسرائيلى
كان يعيب على كوكيرمان أنه يلعب لعبة شارون بإشعاله خوف يهود فرنسا
حتى يهاجروا إلى إسرائيل فكان رد كوكيرمان عليه : " أنت من
حماس . " (٢) فهل من الطبيعى لمؤسسة تزعم أنها تتحدث باسم كل يهود
فرنسا أن تمارس مثل هذا الخلط ؟ وما جدوى الأمر إذا كان أحد لا يجرؤ
على أن يوجه له لوماً .

وعندما قام موقع متطرف (على الانترنت) بنشر قائمة بأسماء اليهود

١- إنظر تاجييف ص٤٢ مرجع سبق ذكره " وهناك أفراد من أصول يهودية
يشاركون فى تشكيل وإشاعة كراهية اليهود الجديدة ، لأسباب متعددة ووفق معدلات
متباينة (الحقد على الذات، نزعة شكلية، نزعة لا شكلية والصدق فى إختيارات تعود
للرحمة والشفقة، كراهية إنتقائية للأجانب (على سبيل المثال الموالين للفلسطينيين بصورة
مطلقة) لأهداف فردية، التزام ثورى، نذالة، سخف وضعف العقل، الخ " .

وبهذه الطريقة نحمدهم يقرأون مأكبة بسيرفيدال ناكيه ورونى برومان، وحتى أناس
كانوا عمليا غير معروفين قبل ذلك أمثال ايال سيفان وميشيل مانسو الخ . فإذا كان هناك
من اليهود من يقول ذلك، وإذا كان هناك من الإسرائيليين من يدبنون ذلك، فإن هذا
الامر لا يمكن إلا أن يكون صحيحاً ! بالتأكيد إن هذا لشرف كبير للشعب اليهودى أن
يحمل فى جنباته تنوعاً فى الفكر وحرية الكلام . وانه بعيد عن ممارسة الرقابة على أى
شخص، حتى لو كان هناك بعض "المحللين" الذين يتحلون بعبقريّة فى مجال عملهم
أكثر من تحليلهم للصراع الإسرائيلى الفلسطينى (وهذه القضية تستحق معالجة أطول لا
تتحمل المساحة هنا الإشارة إليها) مرصد العالم اليهودى، ص ٤٠ .

٢- صحيفة ليبراسيون عدد ٨ إبريل (٢٠٠٢) .

الذين وقعوا على نداء من أجل السلام فى الشرق الأوسط، لاصفا بهم نجمة داود، وواصفا إياهم بأنهم خونة^(١)، وداعيا إلى تكميم أقواهم، كانت الادانة بالطبع بالإجماع. غير أن المتحدث الرسمى باسم ليكود فرنسا يرى أنه من المفيد القول: نحن نشكو أيضا أنه من بين الشخصيات اليهودية المشار إليها فى القائمة من لم يكتشف يهوديته إلا فى لحظة فقد إسرائيل^(٢). إنه التناقض المرعب لمثلئ المؤسسات والمثقفين العضوين للطائفة اليهودية! فمن جهة يرفضون (عن حق) أن يرى المرء الطائفة اليهودية كأنها كتلة واحدة متناغمة، ومن جهة أخرى يرمون بالشبهات اليهود الذين يتقدون شارون.

ولا يميل أوليفيه جولان، رئيس تحرير "المنبر اليهودى" نصف الشهرية، إلى إحدى المجموعتين المكونتين للطائفة اليهودية. فالذين يدعمون إسرائيل بصورة مطلقة يعبرون عن "موقف، بالنسبة له، غير ناضج ويتسم بتمجيد يتنافى مع التراث اليهودى". إنهم يشكلون، كما يرى، "مجموعة صغيرة طابعها النضالى حاصر بصورة نشطة، ويجعلها تحتل ساحة الطائفة والإيهام بأنها ممثلة لها. وهناك أيضا أولئك الذين لا يهتمون بهويتهم اليهودية ويرفضون أن يطلق البعض باسمهم نداءات عمياء للتضامن السياسى فى الوقت الذى يرون فيه أن سياسة شارون إجرامية. ويستخدمون، كما يرى، كذريعة، مهما كان صدقهم، فى أيدى المعادين للسامية. ونظراً للآزمة الكبيرة التى تسيطر عليهم، ونظراً للاعتداءات اللاسامية فى فرنسا، ونظراً للحجم الهائل من النقد الذى يستهدف إسرائيل، فإن الغالبية الشاسعة من

١- انظر صحيفة لوموند عدد ٢٣ أغسطس (٢٠٠٢).

٢- صحيفة لوموند ٢٨ أغسطس (٢٠٠٢).

اليهود تعاني من قلق عميق: أغلبية صامتة للأسف لا تجد نفسها في المجموعة الأولى ولا في المجموعة الثانية.^(١)

لا يمكن للمرء إلا أن يوافق على هذا التحليل. فمسألة معرفة من يمثل يهود فرنسا تشكل صعوبة كبرى، والتنوع على مستوى القاعدة يوجد بصورة أقل على مستوى القمة. كما أن الذين يتحدثون باسم الطائفة لا يعطون الانطباع بالتنوع، وإنما بتعبير يميل بدرجة أكبر إلى ما هو موحد، كما لاحظ ذلك اثنان من المثقفين اليهود هما جان كريستون أتياس وأستير بنباسا.^{*} ما هو مدى تمثيلية المؤسسات (اليهودية) إذا نظرنا بعين فاحصة؟ من بين ثلاثمائة ألف يهودي بباريس والمنطقة الباريسية هناك ستة آلاف فقط هم الذين صوتوا في انتخابات المجمع المركزي الديني. أما فيما يتعلق بالمجلس التمثيلي للمؤسسات اليهودية فهو تجمع لأربعة وستين اتحاداً وجمعية يهودية، لكن من المستحيل الحصول على مزيد من المعلومات حول الإحصائيات.^{*} (٢) وتؤكد سيلفي بربان ودومنيك فيدال، من جانبهما، أن من بين سبعمائة ألف فرنسي ينتمون إلى عقيدة ذات أصول أو ممارسات يهودية هناك مائة ألف يقيمون علاقات مع المجمع المركزي الديني أو مع إحدى الجمعيات المتجمعة داخل المجلس التمثيلي للمؤسسات اليهودية: "وعندما يتخذ روجيه كوكيرمان، رئيس هذا المجلس، موقفاً، فإنه يلزم على أقصى تقدير يهودياً فرنسياً من كل سبعة".^(٣)

١- أوليفيه جولان: "يهود فرنسا، فلتتفق" صحيفة لوموند عدد ١١ إبريل (٢٠٠٢).

٢- جان كريستوف أتياس، استير بنباسا: "لسنا ضحايا" صحيفة لوموند عدد ١٨ ديسمبر (٢٠٠١).

٣- "يهود فرنسا يبحثون عن هوية" صحيفة لوموند دبلوماسيتك عدد أغسطس (٢٠٠١).

وقد يقول رؤساء المجلس التمثيلي أنه ليس هناك تمثيل بديل . وهو أمر قد لا يخالف الواقع ، وأنه في نهاية المطاف نجد نموذج الرئيس الامريكى الذى انتخب بنسبة ضعيفة جداً من مواطنيه نظراً لامتناع عدد كبير عن الانتخاب ، ومع ذلك فهو يمثلهم جميعاً بدون احتجاج يُذكر .

لكن ما يطرح مشكلة هو أن البعض يريد ، فى العلاقة مع إسرائيل ، ألا يتم الحديث إلا بصوت واحد ، وفى تناقض مع تنوع الطائفة الفعلية .

بالطبع هناك العديد من اليهود الفرنسيين الذين يحتجون باستمرار ضد تحايل بعض ممثلى الطائفة والحديث باسمهم ، وأخذ مواقف لا يتفقون معها . وكثير منهم عبروا بصورة جماعية "بوصفهم يهوداً" لكى يتقنوا السياسة التى يتتهجها شارون .^(١)

١- كتب إيلى آرى ، من الموقعين على النداء "بوصفنا يهوداً" ، فى خطاب موجه لى وسمع لى أن أستعيده هنا : " منذ أن أنشأ نابليون المجمع الإسرائيلى ، متجاوزاً بذلك الروح الجمهورية والعلمانية لأصول الجمهورية ، اعتاد الفرنسيون الحديث عن يهود المؤسسات الذين يتحدثون باسم كل يهود فرنسا . الذين أسموهم بصورة غير دقيقة بـ الطائفة اليهودية لفرنسا ، ومنذ نشأة دولة إسرائيل يطلبون دعم سياستها بدون أى تردد . ويجهلون أن الغالبية العظمى من يهود فرنسا لا يجدون أنفسهم مطلقاً فى هذه المواقف . وحول أسباب مثل هذا التماهى لبعض الفرنسيين اليهود مع دولة إسرائيل ، فالمرح ، ولست بمؤرخ ، لا يمكنه إلا أن يضع فرضية أن مبدأ العلمانية لدى يهود فرنسا هو حديث ولا يتجاوز قرنين . وكان من الممكن بدون شك أن يكون أكثر تقدماً لولا ظهور عاملين خارجيين أوقفاً مؤقتاً مسيرة هذا المبدأ ، وهما من جهة الفترة المربعة لحكم فيشى ، والتى لم يكن ممكناً أبداً أن تحدث بدون احتلال المانيا النازية لفرنسا ، ومن جهة أخرى حدوث موجة هجرة اليهود القادمين من بلاد المغرب العربى بعد فترة الاستقلال ، وهى بلاد كان يحكمها النمط الطائفى (أعنى مرسوم كريمو) أى جاءوا من بلاد يحكمها النموذج القديم للمجتمعات التى لا يعرف الفرد بداخلها إلا عبر إثماته الدينى بالإضافة إلى جنسيته ومهته وأفكاره الخاصة . وهو النموذج الذى وضعت روح عصر التنوير نهاية له فى فرنسا .

هكذا نجد نداءً منشوراً في أكتوبر (٢٠٠٠) من قبل عديد من يهود فرنسا "بوصفهم يهوداً مؤكدين أنه ليس من عادتهم أن يعبروا عن أنفسهم "بوصفنا يهوداً". وأنهم إذا كانوا يفعلون ذلك اليوم، فلأنهم يرفضون أن يدعى قادة إسرائيل "حق الحديث باسمنا رغماً عنا. وهذا الابتزاز باستخدام ورقة التضامن الطائفي يعطى شرعية لسياسة التحالف المقدس بين الحكام" ومع إقرارهم أن "تفاقم أعمال العنف تصاحبه أعمال لا يمكن قبولها من الطرفين" فإنهم يرون أن "المسئوليات السياسية لا يمكن أيضاً أن تحمل بالتساوى على الأطراف المعنية، وأن إسرائيل تتحمل المسؤولية الرئيسية (...). ليس حقاً كيهود بل لأننا كيهود نعارض هذا المنطق الانتحاري للهويات المفروضة. نحن نرفض هذا المسار القاتل لإضفاء الطابع الاثنى على الصراع وتحويله إلى حرب أديان. نحن نرفض أن نكون ملتصقين بحائط الانتماء الطائفي".^(١)

توضح هذه النماذج أنه من الممكن نقد إسرائيل طالما توجد شخصيات عديدة، بما فيها يهود فرنسا، تمارس هذا النقد.

يمكن إذن لإيلي بارنافي أن يصرح: "في كل مرة نرد على إهانة، نواجه بوجوه مندهشة ويدها على قلبها ولسان حالها يقول هل توجيه النقد إلى إسرائيل ممنوع؟"^(٢) لا أيها السادة الفريسيين ليس ممنوعاً نقد إسرائيل^(٣). لكن من هو الفريسي هنا؟ أليس من الأمور غير الدقيقة أن يتحدث بارنافي عن رد على إهانة وليس على إنتقادات، هل يكون كل نقد للحكومة شارون إهانة؟

١- صحيفة لوموند عدد ١٨ أكتوبر (٢٠٠٠).

٢- يستشهد بمقالتي المنشورة في صحيفة لوموند عدد ٣٠ أغسطس "هل توجيه النقد إلى إسرائيل ممنوع؟".

٣- إيلي بارنافي ولوك روزين فاج، فرنسا وإسرائيل دار Perrin (٢٠٠٢) ص ٨٠.

وعندما نعرف مدى إجراءات العقاب التى يتعرض لها أولئك الذين تجرأوا على نقد إسرائيل - ولا اعتقد أن إيلى بارنافى يجهلها - سندرك جيداً أن قضية معرفة ما إذا كان يمكن للمرء أن ينتقد إسرائيل، ليست فى الواقع مسألة نظرية صرفة.

يقول روجيه كوكيرمان فى هذا الشأن: "نحن لا نعترض على حق أحد - سواء عن صواب أو خطأ - فى نقد سياسة القادة الإسرائيليين، بما فيهم آريل شارون^(١) "ويتابع: "لكن من ينتقد إسرائيل عليه بدوره أن يتحمل النقد المضاد." غير أن "غلاة الموالين لإسرائيل" لا يقبلون - سوى إستثناءات قليلة - الحوار الذى يتسم بالعلنية والاختلاف. ويتحول النقد المضاد بسرعة إلى إهانة وتهديد والمطالبة بتوقيع عقوبات على ذلك الذى ينتقد شارون كثيراً. وستمارس ضغوط على المحيطين به بالتركيز على أن "الطائفة اليهودية قد اعتدى عليها" بهذا القول أو ذاك. وسيطلب إبعاد هذا المنتقد وإنهاء التعامل معه، ناهيك عن التهديدات الشخصية التى يتلقاها فى منزله. وواقع الأمر إذن إنه من الحقيقى أنه يمكن للمرء نقد إسرائيل لكن هذا النقد محفوف بالمخاطر والمجازفات سواء على الصعيد الشخصى أو المهنى.

ويصير الحوار أكثر التواءً وصعوبة، وستوضع أجهزة الإعلام التى تغطى الوضع فى الشرق الأوسط، موضع اتهام أيضاً.

١- صحيفة الفيغارو "اليهود، هل هم منقسمون؟" عدد ٨ أكتوبر (٢٠٠٢).

الفصل الثانى

محاكمة الإعلام

مكافحة العنصرية والعداء للسامية، هما هدفان لا يمكن لأحد إلا أن يؤيدهما . بالمقابل يمكن للمرء أن يظهر تحفظاً إزاء شكل من أشكال تحويل هذه المعركة إلى أداء فى عملية توظيف سياسى . فالبعض يرى أن أجهزة الإعلام التى تتناول الوضع فى الشرق الأوسط تصب الزيت على النار وأنها فى النهاية مسؤولة عن الإعتداءات المعادية للسامية التى تحدث فى فرنسا . ويمكن لنا أن نرى إلى أين يقود مثل هذا التفكير . هل من أجل أن نمنع حرق المعابد اليهودية فى فرنسا علينا ألا نتحدث عن القتل فى الأراضي المحتلة؟

وهؤلاء أنفسهم الذين يهتمون أجهزة الإعلام الفرنسية بأنها تمارس تعتيماً على الإعتداءات اللاسامية فى فرنسا ^(١) هم أنفسهم الذين يريدون فرض هذا التعقيم حول الوضع فى الشرق الأوسط .

ومع تدهور الوضع فى الشرق الأوسط، وانطلاقاً من خريف (٢٠٠٢)، ستتصاعد حدة النقاش فى فرنسا .

يشدد بيير-اندريا تاجييف، أحد المتحمسين المدافعين عن إسرائيل، على هذه النبوة قائلاً: "أتحدث عن عداء مطلق للصهيونية حتى أميز بين أسطورة

١ - أنظر الفصل الثالث من هذا الكتاب.

الدعاية هذه وبين النقد المشروع للسياسة الإسرائيلية في هذا الجانب أو ذاك من جوانبها، والذي يعود إلى حرية الرأي والتعبير. وأجهزة إعلامنا، في مجملها، تبدو لى مطبوعة بهذا العداء الجذرى للصهيونية في معالجتها لصراع الشرق الأوسط.^(١) وتكمن المشكلة، فيما يتجاوز الإقرار بمبدأ الحرية المشروعة في نقد إسرائيل، فى أنه لا يوجد فى الواقع أى إمكانية لممارسة هذا الحق. فضلاً عن ذلك لن يجد المرء فى كتابات تاجيف أقل نقد تجاه شارون منذ عام (٢٠٠٠)، أو أدنى قبول من جانبه لآى انتقاد موجه من قبل آخرين. ومن يمارسون هذا الحق النظرى، على العكس، يتم إتهامهم مباشرة بالعداء للسامية، هذا إذا لم نجعلهم مسئولين عن الحرائق التى تتعرض لها المعابد اليهودية. وكان جان بيير الكباش، فى إذاعة أوروبا ١، فى ١٠ يناير (٢٠٠٢)، قد سأل بيير اندريا تاجيف ذاته، بصدد كتابه "الشكل الجديد لكرامية اليهود" السؤال التالى : أنت وضعت موضع تساؤل مثقفين من اليسار واليسار المتطرف والمناهضين للعمولة، والمعادين للصهيونية لأنهم يعتبرون أن الشر ينبع من إسرائيل. من كنت تقصد على وجه التحديد؟

وكانت الإجابة، على الأقل، بدون تمييز. "كنت أعنى بعضاً من المناهضين للعمولة فى حركة أتاك Attac، وبعض المحررين فى لوموند ديبلوماتيك الذين يعملون دائماً على إضفاء الطابع الشيطاني على إسرائيل، والذين يشيرون، فى العمق، عبر بعض كتاب الافتتاحيات إلى مواقف علنية مؤداها أن كل شئ فى العالم كان سيسير على مايرام إذا لم تكن إسرائيل قائمة، وعلى نطاق واسع لدى آخرين إذا لم يوجد اليهود".

ومثل هذا التفكير لا يمكن إلا أن يثير الدهشة. فإذا بدأ المرء، على سبيل المثال، انتقاد سياسة الاستيطان في الأراضي المحتلة فإنه سرعان ما يتهم بأنه يحلم بعالم متخلص من اليهود! وكما نرى فإن تاجيف تعوزه الفطنة. نحن هنا بعيدون عن الدقة التي من المفروض أن تتوافر لدى مدير أبحاث بالمركز القومي للبحث العلمي.

وفي الاتجاه ذاته يسير أرنوكلارسيفلد، وهو مدافع دائم عن إسرائيل^(١)، وناقد لا يرحم أولئك الذين لا يشاطرون سياسة إسرائيل مشاطرة كاملة يقول " هناك حملة من مثقفي اليسار لأبلسة إسرائيل، دون أن يضعوا في الاعتبار السياق الجيوبولتيكي والتهديدات الموجهة لهذه الدولة. وفي نظرهم أن العالم سيكون أفضل إذا لم تكن إسرائيل قد وجدت كما في العصور الوسطى حينما كان البعض يعتقد أن المجتمع سيكون أكثر تألفاً بدون اليهود!"^(٢)

وتدرجياً سنشهد حملة فعلية ضد أجهزة الاعلام التي تتناول الوضع في الشرق الأوسط والتي تتجراً على الاعتقاد بأن المشاكل لا تقع مسئوليتها على عاتق الفلسطينيين فقط. ويمكن لهؤلاء الصحفيين الذين يتناولون هذه الملفات، التحدث عن نوعية الرسائل البريدية والالكترونية والتليفونية التي تصلهم بصورة منتظمة عندما يتقدمون الحكومة الإسرائيلية.

١- لقد طلب أرنو كلارسيفلد المواطنة الإسرائيلية بدون أن يرغب في الإقامة في إسرائيل. "وأثناء إعداد جواز السفر، رفض الموظفون الإسرائيليون، مع ذلك، تسجيل كلارسيفلد بوصفه يهودياً ومنحوه تقدير "بروتستانتي" حيث أن والدته من أصل لوترى "الاكتيوايلتيه اليهودية رقم ٧٧٦ في ١٠ أكتوبر (٢٠٠٢).

٢- لوبوان في ١٨ يناير (٢٠٠٢).

وتستخدم الصياغات ذاتها والتي يتم نسخها وإعادة إستخدامها بصورة أوتوماتيكية. وإلى جانب التهديدات الشخصية هناك الرسائل التي ترسل إلى مديري تحرير الصحف، وبالنسبة لهيئات الإذاعة العامة، ترسل الرسائل إلى المجلس الأعلى لهيئة الإذاعة والتليفزيون CSA. وأحيانا تتعلق التهديدات بإدارة الإعلانات. ويتم انتقاد الصحافة كما لو كانت هى المسئولة عن تدهور الوضع. وبما أنه لا يوجد من يطلب من شارون العمل على تحريك عملية السلام والتخلى عن سياسة القمع إلى حد ما، فإننا نجد من يطالب الصحافة ألا تتحدث عما يحدث.

هكذا، على سبيل المثال، نجد مجلة آرش، مجلة الطائفة اليهودية، تدين تحت عنوان "ملف العدا للسامية" تناول أجهزة الإعلام الفرنسى للأحداث الجارية فى الشرق الأوسط، ويشهد عنوان المقال وتوجهاته عن وضوح بارز فى أن الحديث عن الفلسطينيين كضحايا محتملين يفضى تقريبا إلى تغذية العدا للسامية، كذلك صحيفة مون كوتيديان (موجهة للأطفال من ١٠ إلى ١٤) تعرضت لسهام النقد لأنها كتبت فى ٢٢ نوفمبر (٢٠٠١): "وفقا لليونيسيف هناك العديد من الأطفال الفلسطينيين عوملوا بشكل سيئ فى السجون الإسرائيلية". ووفقا لمجلة آرش: "المقالة المنشورة فى الصفحة السادسة، لم تكن أكثر وضوحاً، وسيكون لدى القراء الشباب الفرصة لتوهم حدوث تعذيب يتعرض له الأطفال الفلسطينيون من قبل سجانهم، وربما أيضاً استدعاء استيهامات أقرانهم فى الفصل الذين يتمتعون إلى الشعب ذاته الذى يتمى إليه هؤلاء السجانون المرعبون، هكذا يبدأ العدا للسامية فى المدرسة(١) .

ولنلاحظ بالضرورة، - كما ترى مجلة آرش - على كل الذين يتمتعون

إلى الشعب ذاته أن يتضامنوا مع موقف الجيش الإسرائيلي. ومع ذلك ليس الأمر على هذه الحالة، وهنا فإنها مجلة آرش ذاتها التي تخلق الالتباس بين يهود فرنسا وإسرائيل.

ما العمل إذن؟ "الا يمكن لأحد أن يعرف شيئاً عما يحدث في الشرق الأوسط؟ إن هذا هو ما يدعو إليه البعض مواربة.

في نشرة أخبار القناة الثانية (بالتلفزيون الفرنسى) يرى ممثل المجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية بفرنسا: أن مساندة الفلسطينيين هي السبب وراء الاعتداءات اللاسامية ضد المعابد اليهودية في فرنسا. ويدعو إلى التزام الصمت إزاء هذه الأحداث، وعلى العكس يتم انتقاد أجهزة الإعلام الفرنسية بشدة بسبب الصمت المفترض على الأعمال المعادية للسامية في فرنسا. (١)

وأثناء الحملة الانتخابية في (٢٠٠٢) صرحت آن سنكلير، وهي إحدى أكثر الصحفيات شعبية في فرنسا، وقيادية بارزة من غلاة الموالين لإسرائيل "أن الطائفة اليهودية في فرنسا تشعر أن أجهزة الإعلام الفرنسية تأخذ موقفاً منحازاً بشدة ولا تعطى إلا وجهة نظر واحدة، لشعب مضطهد ولشعب يمارس الاضطهاد والمذابح. على الصعيد الإعلامى نجد الميزان غير متكافئ: فعندما تحدث هجمة في القدس تؤدي إلى مقتل ١٥ إسرائيلياً في

١ - آن ليفشيتز-كرامز التي تقدم نفسها كباحثة بالمركز القومي للبحوث العلمية CNRS ، والتي يبدو أن دافعها ليس رغبة البحث العلمى، تهاجم صراحة روبر مينار، السكرتير العام لـ "محققون بدون حدود " نعم أيها السيد مينار، إن الصحفيين أمثالك، يقطرون حقداً بسبب البارائويا التي يعانون منها وبسبب مخططاتهم السياسية، ويكتبون تقارير جزئية ومنحازة عن الواقع، يتحملون نصيبهم من المسؤولية عن الأحداث المعادية للسامية التي تحدث في فرنسا. لماذا كل هذه الضراوة؟ الفيجارو مارس (٢٠٠٢).

كافيتيريا أو مطعم بيتزا نجد الكاميرات فى الاراضى (المحتلة) مع العائلات التى تعيش آثار الانتقام الإسرائيلى. هذه ليست صحافة، هذه طريقة فى الانحياز".

من الغريب أن نجد هذا الاتهام بالانحياز من قبل أن سنكلير وهى التى تقوم بالانحياز لصالح قادة إسرائيل فى كل الظروف.

ما الذى ينبغى أن نستخلصه من كلامها؟ هل الصحافة الفرنسية يسيطر عليها العرب أو المسلمون؟ إن هذا أمر يدعو للضحك أكثر مما يدعو لآخذه مأخذ المجد كيف تصف شخصاً، على العكس، يشكو من سيطرة اليهود على أجهزة الإعلام؟^(١)

ويشكو من هذه المعالجة الإعلامية أيضا فكتور الجريسى، وهو رئيس الطائفة اليهودية فى الهافر؟ وبعد أن أستقبل شيراك فى المعبد اليهودى بالمدينة قال: "لقد مضى عام أو عامان على الأحداث اللاسامية دون أن يتم تناولها من قبل الصحفيين أو الحكومة". ويضيف: "المشكلة هى أن العالم كله يخاف من العرب".^(٢) هل من كل العرب؟ هل لأنه لا يوجد سوى العرب الذين يهاجمون اليهود؟ وماذا كنا سنقول إذا وجدنا مسؤولاً عن إحدى الجمعيات الإسلامية يدين الهجوم الذى تتعرض له طائفته منتهاياً فى

١- بالنسبة لدانييل شيندرمان الذى كان يعلق على هذه الأقوال فى عموده الأسبوعى به اللوموند يقول ينبغى الذهاب إلى أبعد من ذلك، فالسيدة آن سنكلير التى تعرف جيداً من الداخل كيفية تحرير الأخبار الإذاعية/التلفزيونية كان عليها أن تسمى هؤلاء المناضلين الموالين للفلسطينيين الذين تعاملهم بقسوة، هل هم باتريك بوافر دارفور؟ روبرت نامياس؟ شارل اندرلان؟ "أعاجيب الحرب" لوموند ١٣ إبريل (٢٠٠٢).

٢- الفيجارو ٣ إبريل (٢٠٠٢) "المرشحون لرئاسة الجمهورية يتقربون للناخبين اليهود والمسلمين".

كلامه إلى التأكيد على أن: "المشكلة هي أن كل العالم يخاف من اليهود" سيكون الاستكثار فوراً، وسيضطر إلى الاعتذار.

لا شيء من هذا هنا. يمكن على العكس ارتكاب أفظع الإهانات مع الاحتفاظ بضمير هادئ ومع الحفاظ على مكانته.

يؤكد مدير تحرير مجلة الأكسبريس دونى جامبير أن الصحافة الفرنسية لها تعاطف مع الفلسطينيين... لماذا يوجد كثير من الأطفال الذين يموتون (في فلسطين)؟ لأن الشعب الفلسطيني هو الوحيد في العالم الذى يضعهم فى المقدمة (على خط المواجهة) ثم النساء فى المرتبة الثانية ثم المحاربين فى المرتبة الثالثة.^(١)

أقل ما يمكن أن يقال بشأن هذا رأى، هو أنه قابل للنقاش. هذا الرأى يستعبد كلاماً قديماً مفاده أن الفلسطينيين لا يكونون احتراماً لحياة أبنائهم وأنهم يقفون إذن على حدود ما هو إنسانى. بينما يمكن النظر، على العكس من ذلك، إلى أنه إذا كان هؤلاء الأطفال يموتون فربما لأن هناك أيضاً من يطلق النار عليهم، وأنه فى أماكن أخرى ليس الآباء هم من يتم تجرييمهم وإنما أولئك الذين يسكون البنادق.

"بالتأكيد، أنا شخصياً، يتابع جامبير، أميل إلى إسرائيل، وهو ما أعبر عنه فى يومياتى، لكننى لست الذى يحدد سياسة التحرير فى القسم الخارجى".^(٢) وهذا قول حقيقى، فالقسم الخارجى للإكسبريس الأسبوعية فى العادة ينتقد شارون.

غير أن الأكسبريس عندما تخصص ملفاً عن الاسلام فإنها تضع له

١ - Medias، رقم ٢. "إسرائيل - فلسطين، الحياذ المستحيل"

٢ - نفس المصدر

عنوانا: "ما لم يتجرأ أحد على قوله"^(١)، أو "أموال الإسلام"^(٢). والمقالة سلبية بصورة واضحة وتعتمد على كتاب لواحدة من غلاة الموالين لإسرائيل بشكل مطلق وهي ميشيل تريبالا^(٣).

وعندما يتناول ملف أوضاع يهود فرنسا، فإننا نجد العنوان "قلق يهود فرنسا"^(٤) ونادراً ما يجد القارئ في الاكسبريس ملفاً يتناول "قلق مسلمي فرنسا" أو "يهود فرنسا ما لم يجروا أحد على قوله". أو "أموال اليهودية". ويمكن للمرء أن يقرأ في الاكسبريس استطلاعاً عن صورة إسرائيل طالب بأعداده سفير إسرائيل في فرنسا. هل لها سابقة؟ وتستقبل الاكسبريس نفس نمط نموذج الاستطلاع مصحوباً بملفات من قبل بلاد أخرى؟^(٥)

ويقر إيلي بارنافي أن الاكسبريس منذ نشأتها أظهرت ميلاً إلى إسرائيل بل وحتى ميلاً صهيونياً. "وحتى بعد تحويلها إلى مجلة إخبارية فإن هذا الموقف المتعاطف تجاهنا قد استمر..."^(٦)

ووفقاً لباتريك جويير، رئيس منظمة اليكرا licra: "ألاحظ تطوراً غير عادي في استخدام المفردات. يمكن للمرء اليوم أن يجعل الكلمات تقول أي

١- ١٢ سبتمبر (٢٠٠٢).

٢- ٢١ نوفمبر (٢٠٠٢).

٣- الجمهورية الفرنسية والإسلام، جاليمار ص ٣٣٨، والكتاب يريد "أن يزيل عنا وهم افتتان مبالغ فيه فيما يتعلق بالإسلام، ومازوشيه لا قومية تغلب مذاق الآخر، وتحملنا فيما يتعلق بالإسلام إلى إعجاب استغفاري."

٤- الاكسبريس ١٠ أكتوبر (٢٠٠٢).

٥- "الفرنسيون أمام الصراع الإسرائيلي الفلسطيني" الاكسبريس في ٨ نوفمبر (٢٠٠١).

٦- إيلي بارنافي ولوك روزين فايج، فرنسا وإسرائيل ص ١٢٥، مرجع سبق ذكره.

شئ، إنه أمر غير مسؤول، في أياست هذه، تنظيم مظاهرات موالية للفلسطينيين، أو إجراء مناقشات حول قضايا من نوع "هل يمكن انتقاد إسرائيل بدون أن نكون لاسمييين"؟. كما يعطل اليسار المتطرف واتصار البيئة ومنظمات الدفاع عن حقوق الإنسان. ليست اللحظة مناسبة حقاً لهذا الكلام.^(١)

لكن متى تحين اللحظة إذن؟ إذا لم يكن ذلك عندما يتصاعد العنف ضد الفلسطينيين، وعندما يتضاعف عدد الموتى كل يوم، وعندما تدين المنظمات غير الحكومية التي تعمل في الميدان جرائم حرب، وإذا لم تكن اللحظة قد أتت للتظاهر، فلماذا نفعل إذن؟ هل ينبغي انتظار نهاية الصراع حتى نظاهر من أجل السلام؟

من جانبه يتحدث يسير لولوش نائب برلمانى عن حزب الاتحاد من أجل حركة شعبية فى باريس عن "انطلاق سيل من الحقد المعادى لإسرائيل" يتم استعادته على مدار أعمدة الصحف مثل لوموند وليبراسيون، بهدف تأسيس السياسة الحققة فى فرنسا^(٢). ومع ذلك تفتح لوموند وفيجارو صفحاتها لمناير تقدم وجهات نظر مختلفة. وفى مقالته بـ لوموند دييلوماتيك، يكشف دومنيك فيدال. بدون أن يناقضه احد، أن صحيفة ليبراسيون قد استدعت مراسلتها فى القدس الكسندرا شوارتزبوردر، لأنها كانت محل انتقاد شديد من الموالين لإسرائيل بصورة مطلقة. وأن هذه

١- جان بيير اللالى، "الاشكال الجديدة..." مرجع سبق ذكره. وموسى كوهين، وهو رئيس المجمع المركزى الإسرائيلى، ومواقفه مع ذلك معتدله، نجده أيضاً ينتقد التغطية الإعلامية للصراع من قبل قنوات التلفزيون القومية (فى فرنسا): "هذه الصور تنطبع فى وجدان كائنات واهنة، حمقاء، مجرمى الضواحي أو آخرين (...). وتقود أشخاصاً معينين، ضعفاء ربما إلى إرتكاب أعمال اعتداء على المعابد" لوموند ١١ أبريل (٢٠٠٢).

٢- المعادون لليهود، كالمات ليفى (٢٠٠٢) ص ١٧٨.

الصحيفة اليومية قد نشرت عدة تحقيقات عن العداء للسامية لدى المهاجرين العرب، لكن لم تنشر شيئاً عن العنصرية المعادية للعرب والمتشرة لدى بعض الشباب اليهودى الفرنسى (١)

ويروى نيقولا فيل، وهو صحفى يتابع القضايا الثقافية وقضايا المجتمع فى جريدة لوموند فى كتاب له أنه أثناء محاكمة بابون التى كان يغطيها لصحيفته، فضل الجلوس فى مقاعد المواطنين وليس فى مقاعد الصحفيين الذين يراهم معادين بصورة غير كافية لبابون.

كتب يقول 'رغبتي فى تسجيل اسمى فى تاريخ اليهود، وتعاطفى الدائم مع إسرائيل ومع الصهيونية، كانا بمثابة البوصلة الدائمة لى' (٢)

وبالفعل كانت كتاباته متسمة دائماً بالرغبة فى الدفاع عن إسرائيل أكثر من الاهتمام بالموضوعية الإعلامية. يمكن أن يفهم هذا فى صحيفة طائفية لكن ليس فى صحيفة مرجعية. إن الحديث عن "اندلاع سيل الحقد" يبدو إذن مبالغاً، إلا إذا اعترفنا أن السياسة الإسرائيلية على درجة كبيرة من الحق بحيث من الأفضل ألا نتحدث عنها. يبدو أنه لا يهم. يكفى تكرار هذا النمط من الحقائق المضادة بلا كلل حتى تبدو وقد صارت تماثل الواقع

وعلى مدار البرامج والمناقشات نجد الإذاعات الطائفية تنتقد أجهزة الإعلام القومية التى تعيب عليها أنها لا تتحدث إلا عن الضحايا الفلسطينيين، وأنها تلف بالصمت مصير الضحايا الإسرائيليين (٣)

اتهمت وكالة الأنباء الفرنسية كذلك بأن ما يحركها فى الغالب الرغبة

١- باسم المعركة ضد اللسامية، لوموند ديبلوماسيك ديسمبر (٢٠٠٢).

٢- نيقولا فيل، تاريخ شخص للعداء للسامية روبريلافون (٢٠٠٣)، ص ١٨٠.

٣- "الإذاعات الطائفية فى مواجهة الصراع الإسرائيلى الفلسطينى" لوموند ١١ ابريل (٢٠٠٢).

فى تفضيل المعسكر الفلسطينى، وظل غلاة الموالين لاسرائيل ولفترة طويلة يطلقون عليها أنها وكالة فرنسا فلسطين. وكانت تنظم أمام مقرها مظاهرات بصورة منتظمة وأحيانا عنيفة.

الا يوجد هنا مشكلة فى ممارسة ضغط ماذى حول أجهزة الإعلام عندما يكون مضمون الإعلام لا يلانم البعض؟

الا يشكل ذلك طريقة فى تهديد حرية الصحافة؟ كذلك وقعت مظاهرات أخرى أمام مبنى مجلة النوفيل أوسرفاتور حيث نظر البعض الى تغطيتها لأحداث الشرق الأوسط على أنها معادية لإسرائيل. فبعض غلاة الموالين لإسرائيل لا يريدون الصفع عن جان دانيل بسبب مقالاته التى يدافع فيها منذ سنوات عن السلام فى الشرق الأوسط. وقد اطلقت حملة بهدف إلغاء الاشتراكات لمعاقبة المجلة. ولم نجد حملة ماثلة ضد الأكسبريس لبواعثها المناقضة.

فى ديسمبر، نظمت مظاهرة أخرى أمام مقر دار فلاماريون المتهمه بإنها نشرت رواية لطفلة "الحلم بفلسطين"^(١).

ومنحت رابطة الدفاع اليهودية خمس مرات "جائزة جوبلز للتزوير الإعلامى" للصحف التى كانت ترى أنها تتنقذ بشدة شارون، بدون أن تجرؤ الصحف ذاتها على الاحتجاج ضد مثل هذه المعاملة^(٢).

وبدورها ستعرض كاترين ناى، وهى محررة بإذاعة أوروبا I، لحملة إعلامية شديدة. لأنها قالت فى كلمة لها، فى يونيه (٢٠٠٢)، تستحث

١- ليبراسيون ١١ ديسمبر (٢٠٠٢).

٢- الكانار إنشنيه، ٢٧ نوفمبر (٢٠٠٢).

شارون على أن يحترم الذاكرة وأثارت طرد وفتح الفلسطينيين في (١٩٤٨) من قبل الإسرائيليين، وعاقمت حالتها في سبتمبر (٢٠٠٠) عتلتا قارنت صورة الطفل محمد الدرة^(١) بصورة اليهودي الصغير في جيتو وارسو.

وعلى موجات راديو العاطفة اليهودية في ١٢ يونيو (٢٠٠٢) يندفع جاك تارنيرو ناقداً هذا "التركيز الهوس" على إسرائيل من قبل الصحافة كاترين ناى الامر الذى لا يخلو من غرابة، حيث أن تارنيرو لم يكتب ولم يتحدث إلا عن إسرائيل واليهود فقط، وهو ما لا نجده عند كاترين ناى التى بدون هذا الهوس، كما يرى، "متسقط في اكتساب عميق... فما حلمت به حماس كتبه كاترين ناى...". وقد نسى تارنيرو في طريقه أن يذكر أن كاترين ناى كانت تستشهد بالمؤرخ الإسرائيلي إيان بابيه.

وفى ١٩ يونيو، سيعود كوكيرمان إلى هذه القضية من جديد مشيراً إلى أن "إنصار القضية الفلسطينية يعتدون فى فرنسا على المعابد والمدارس اليهودية وعلى اليهود... أيضاً ألا يكون سلوكهم غير مبال تماماً عند ترديد الشائعات والأكاذيب والافتراءات على دولة إسرائيل، سواء بالنسبة لسمعة هذا البلد ومصالحه السياسية أو بالنسبة لحماية وأمن المواطنين اليهود فى فرنسا. ولدينا مؤخراً نموذج واضح على غياب الدقة والشعور بالمسئولية لدى صحفية تتمتع بمكانة وانتشار كبير فى فرنسا، فالسيدة كاترين ناى

١- مات فى أحضان والده بعد أن تعرض لفترة طويلة لقصف من العساكر الإسرائيليين.

مثلما السيد جوزيه بوفيه يعزون حرائق المعابد اليهودية في فرنسا لجهاز الموساد. فلماذا لم يستشهدوا مباشرة في نفس المضمار، بيروتوكولات حكماء صهيون؟^(١)

يا له من منطق! لأنها انتقدت شارون إستناداً إلى آراء مؤرخ إسرائيلي (صحيح انه مرتبط بمعسكر السلام) يمثّلون بين كاترين ناى وحركة حماس وبيروتوكولات حكماء صهيون.^(٢) هل تحدث أحد عن إرهاب فكرى؟

الهدف هو سحق إرادة التعبير عن هذا الموضوع. فعندما يعرف المرء أنه عندما يطلق أحكاماً سلبية ضد شارون فإنه يغامر بأن يعرض نفسه لحملة، فإنه يفكر مرتين قبل أن يتحدث. وحملات الترويع تأتى بتائجها وتستثير نوعاً من الرقابة الذاتية لها وزنها.

وكما لاحظ عن حق جان فرانسوا كاهن: "ما يطلبونه، فى العمق، هو رقابة على الصورة عندما تبدو لهم-ولنا-غير محتملة. ينبغى إذاعة ونشر هجوم العسكر الإسرائيلى فى رام الله ولكن ليس الطفل محمد الدره فى أحضان والده."^(٣)

لكن لماذا لا نذهب بعيداً أو نطلب فى النهاية إيقاف إرسال الصحفيين

١- كتاب شهير مزور من قبل المعادين للسامية لبث الاعتقاد أن هناك مؤامرة يهودية تحكم شئون العالم... رئيس الـ Crif يواصل: "السيد رئيس إذاعة أوروبا I ، السيد المدير العام، السيد رئيس المجلس الأعلى للإذاعة والتليفزيون، هل حرية التعبير تعنى نشر الاعتداءات؟ خاصة تلك التى من شأنها أن تقود الأرواح الضعيفة إلى ارتكاب أعمال عنف والنيل بذلك من السلام المدنى بشكل خطير؟" desinfo.com. Metula News agency

٢- كاترين ناى صرحت منذ ذلك الوقت: "قررت ألا أكتب عن هذا الامر" ماريان ٢٧/١/ (٢٠٠٣).

٣- ماريان ١٨ يناير (٢٠٠٢).

إلى الميدان؟ وهذا بالفعل ما قاله مواربة "مرصد العالم اليهودى . فى نشرته
الثالثة يمكن أن نقرأ "فى نفس نطاق الأفكار، لماذا يكون هناك الكثير من
المراسلين والمبعوثين الخصوصيين إلى إسرائيل والأراضى الفلسطينية^(١)،
فهل يوقف حذف الإرسال الإعلامى الحمى السائدة فى الشرق الأوسط !
وهذا النمط من التفكير السياسى المنسق يطرح عدة نماذج من القضايا .

لقد صار من المقبول أكثر فأكثر أن التغطية الاعلامية للأوضاع السيئة،
هى الخطوة الأولى نحو إدراك وعى الرأى العام، الضرورى للتقدم نحو
الحل . والأنظمة التى تفضل الصمت حول نشاطها ليست بشكل عام هى
الأكثر احتراما وتقديرا . فلماذا يرغبون حيثئذ فى إقامة ستار خجول حول

١- فى الواقع، فلدى كل من الصحف اليومية الثلاث فى عين المكان مراسل دائم
معتمد لدى دولة إسرائيل (جيل بارى بالنسبة لوموند؟ بيرى لليفجارو، الكسندرا
شواردنور الليراسيون ويضاف إليهم اثنان بل وثلاثة مبعوثين خصوصيين فى الأراضى
الفلسطينية للحكم الذاتى وهم (سييل، كاترين ديبايرون برونو فيليب (لوموند) ومارك
هنرى وتيرى أوبيرل (الفيجارو) وجان بيرى بيران، وديديه فرانسوا (ليراسيون) بالإضافة
إلى برقيات مرسلة من مختلف وكالات الأنباء العالمية، فهل الأحداث تتطلب مثل هذه
التغطية؟ اليس فى ذلك أيضا استفادة من واقع أن إسرائيل هى النطاق الديمقراطى
الوحيد فى المنطقة حيث تسود أكبر حرية كاملة فى التعبير، ألا يوجد سهولة ما فى
كتابة مقالات انطلاقا من القدس وتل ابيب، بل وحتى غزه والخليل أكثر من دمشق
وبغداد وطهران وحتى الرياض؟

وبالتالى الا يمكن أن نخلص إلى أن الصراع الإسرائيلى الفلسطينى يشهد تغطية
إعلامية مفرطة؟ والا تساعد هذه التغطية المفرطة بالمقابل فى زيادة الأبعاد الدامية لهذا
الصراع والمبالغة فى إثارة قلق القراء " الا تشجع على ظهور اتجاه يرى أن الصراع
الإسرائيلى الفلسطينى خطر على السلام فى العالم وأن هذا المسئول عن إدامته بشكل
خطرا على الجميع؟ " لوموند، الفيجارو، ليراسيون، مكان وصورة دولة إسرائيل،
أو هل أجهزة الاعلام الفرنسية موضوعية؟ " مرصد العالم اليهودى، النشرة الثالثة
ص ١١٥ .

ما يحدث فى الشرق الأوسط؟ هل يتوقع أحد فى القرن الواحد والعشرين أنه فى الامكان تغييب صراع من هذه النوعية ! لا بالطبع. إذا كان الواقع لا يبعث على السرور أليس من الأفضل العمل على تعديله بدلا من إخفائه! فضلاً عن ذلك فإن غياب المعلومات يولد بالضرورة الشائعات التى ناهيك عن ضررها، تفتح الباب أمام كل التلاعبات.

إن حرية الإعلام حول الشرق الأوسط، والحق فى النقاش حول هذا الموضوع فى فرنسا صارت تحديا ديمقراطيا كبيراً.

أمام محاولات الرقابة ومحاولات الضغوط لإحداث رقابة ذاتية حول هذه الأحداث المعقدة، لابد من مقاومة التهديدات، وعدم الخضوع للابتزاز الا يضع فى الحسبان أولئك الموالون لإسرائيل بشكل مطلق أن خطابهم حول الإعلام (الفرنسى) وأنه فى أيدي الموالين للفلسطينيين لا صدقية له؟ يمكنهم، بالتأكيد، تنظيم مؤتمرات حول التلاعبات الاعلامية لصالح الفلسطينيين، وحيث بعض أجهزة الإعلام الطائفية يمكنها استعادة هذا الخطاب لتدعيم الشعور بالعزلة والخوف لدى قطاع من الطائفة. لكن هذا المنطق السياسى لا يسير إلى ما هو أبعد من هذه الدائرة المحدودة. فالرأى العام، صار له اقتناع أن ما يستحق الادانة هو ما يحدث هناك وليس ما يقال هنا. بالتأكيد حكومة شارون لم يكن من صالحها أن تنشر الصحف مظاهر من الحياة اليومية للفلسطينيين وما يتحملونه عمليا من أجل الحصول على الغذاء، والعمل، والسكن والدراسة، والاذلالات الدائمة وحظر التجول، ومخاطرة، أن يكون المرء موضعاً لاطلاق النار عليه كما لو كان من الارانب، ودون أن يكون له، فى أفضل الحالات، سوى الأسف الصادق للجيش الإسرائيلى.

كم من النواب المنتخبين بفرنسا أو من الجمعيات المحلية عادوا من الأراضي المحتلة مذهبولين ومأخوذين تماماً مما شاهدوه في عين المكان، مدركين بشكل ملموس ماذا يعنى الاحتلال العسكرى؟

ومنذ عامين أخذ الاحتلال العسكرى مغزى مختلفاً، ولم يعد الامر يقتصر فقط على التحكم المادى فى الاراضى (وهو الامر الذى يمكن أن يدفع بجيش لمحاولة أن يكون مقبولاً) بل تيشيس السكان (الفلسطينيين) الذين يعيشون فى هذه الاراضى حتى يختار عدد منهم المنفى.

ومن حسن الحظ ارتفعت أصوات عديدة، وفى المقام الأول، داخل الطائفة اليهودية، ضد هذا النمط من الخطاب.

"هناك داخل الطوائف المنظمة، وهذا يظهر فى بعض برامج الإذاعات اليهودية، اتجاه إلى الإجابة على معاداة السامية، والانحرافات الإعلامية، التى تدّينها، بنوع من البارائويا على طريقة "وحيد ضد الجميع"، وهو ما يأسف له أوليفيه جولاند، مدير المنبر اليهودى نصف الشهرية، الذى يرى أن هذا الموقف "غير مفيد" (١)

وبدوره يؤكد هنرى هاجين برج، الرئيس السابق للمجلس التمثيلى للمنظمات اليهودية بفرنسا. "أنه من الخطأ إدانة أزمة اللاسامية فى كل المجتمع الفرنسى، لدى صحففيه وقادته، لأنهم لم يظهروا بصورة كافية تضامناً مع اليهود، أو لأنهم يميلون بصورة مقلقة تجاه الفلسطينيين، وجعل

١- لوموند ١٤ ديسمبر (٢٠٠١) "أجهزة الإعلام للجماعات الطائفية تريد تجنب الفجوات فيما يتعلق بالشرق الأوسط.

اللاسامية هكذا من الأمور المعتادة فإن هذا يعنى الانزلاق مع أهداف اللاساميين". (١)

وسيصبل الامر به جان كريستوف إيتاس واستيرينباسا إلى القول :

"تعيش الصحافة القومية العامة قلق أن ينظر إليها على أنها لاسامية. فتفتح صفحاتها لقلق المثليين الرسميين للطائفة، وتتردد أحيانا فى أن تنشر انتقادات أو تساؤلات نابعة من يهود أصلاء لكن مستقلين. ومن جهتها تحاول الصحافة اليهودية فى الغالب وضع العقبات أمام تمييز أى فكر يمكن أن يهز صور الإجماع التى تعيشها". (٢)

هل الصحافة الفرنسية معادية لإسرائيل؟ هناك عديد من الفلسطينيين يرون العكس تماما. والبعض منهم يحرك أسطورة العكس أى صحافة يسيطر عليها اليهود، معددين أسماء الصحفيين اليهود المشهورين، أعلى من الصحفيين العرب أو المسلمين المعروفين على الساحة. لكن هذا لا يعنى شيئا، لأن الصحفيين اليهود لا يجمعهم رأى مشترك حول إسرائيل وحول الوضع فى الشرق الأوسط.

الصعوبات والاضغوطات من كل صوب، لماذا لا نعتقد أن الصحافة تحاول فقط القيام بعملها؟ وأنه إذا كانت المعلومات أكثر نقداً تجاه إسرائيل

١- الفيجارو ٢٨ يناير (٢٠٠٢)، نحمد النعمة ذاتها لدى (اتحاد يهود فرنسا من أجل السلام). "نحن نرى، كما يؤكد ريشار فاجمان رئيس الاتحاد، أن الأساسى فى الاعتداءات اللاسامية الراهنة قد نشأ من الخلط الذى تمارسه بعض المنظمات بين الطائفة اليهودية بفرنسا ودولة إسرائيل. وأن أفضل طريقة للبرهنة على ما يحدث يكمن بالضغط فى التمييز بين الاثنين."

٢- جان كريستوف إيتاس واستيرينباسا «لسنا ضحايا»، لوموند ١٨ ديسمبر (٢٠٠١).

فذلك لأن ما تقوم به حكومتها منذ عامين يؤهلها للنقد بصورة متزايدة. يقر ويعترف إيلي بارنافي بالمناخ المتوتر ويحمل الصحفيين المسؤولية في الانحياز : "الذين لم يراعوا وضع إسرائيل وأصدقائنا الدائمين، الذين يتخيلون رؤية ظلال دكتور جوبلز تخيم على صحافة بلدهم". (١)

لا توجد هناك دراسات دقيقة تصف معالجة أجهزة الإعلام لأحداث الشرق الأوسط.

في كتابهما المخصص لهذا الموضوع تؤكد كل من جوس دراى ودونى سيفر أن أجهزة الإعلام الفرنسية، على سبيل المثال، استعادت لحسابها وبدون فحص الرواية الإسرائيلية لمباحثات كامب ديفيد بينما هذه الرواية تعرضت لانتقاد من مصادر مختلفة ومتطابقة.

لم يعد يخفى على أحد أن الفلسطينيين قد رفضوا عرضاً كريماً من قبل باراك فى كامب ديفيد. ومصطلح «كريما» أذاعه وزير الخارجية الإسرائيلى شلوموبن عامى، وهو وحده الذى يدرك مغزاه. وهو تعبير سيتدرد من قبل أغلب أجهزة الإعلام القومية وهكذا فإن إعطاء الفلسطينيين حق إنشاء دولة على القسم الأكبر من الأراضى المحتلة (ولم يكن باراك فى كامب ديفيد قد اقترح إعادة معظم الأراضى المحتلة) يعنى تقديم عرض كريم ! وإعادة ما أخذ بعد ثلاثة وثلاثين سنة هو من الأمور الكريمة ! وهذا يوضح جيداً أن الذين يستخدمون هذه اللغة لا يضعون الآخر فى الاعتبار. الآخر لا يوجد وليس له حق فى شئ. وما يمنح له ليس حقاً وإنما هبة. وبالتالي، (٢) وأبعد من التأكيد المتواصل على أن عرفات يرفض السلام، فإن الحقيقة

١- إيلي بارنافي، لوك رورين فايج : فرنسا وإسرائيل مرجع سبق ذكره ص ١٣٦.

٢- حرب الإعلام الإسرائيلية، لاديكوفرت (٢٠٠٢)، ص ١٢٥.

ظهرت بصورة مختلفة. وأن ما تم المفاوضة عليه فعلاً في كامب ديفيد كان من الصعب قبوله من الفلسطينيين^(١). وفي طابا كان هناك اقتراب من اتفاق لكن الانتخابات كانت على الأبواب.

وشهادات المفاوض الأمريكي روبرت مالى malley ، وكذلك كتاب شارل اندرلان، الذى لا يمكن تجاوزه. وهى شهادات تعتمد على مصادر مباشرة والتي لم تُكذَّب^(٢) من قبل أحد قد وضعت الأمور فى نصابها^(٣).

كيف نفهم إذن، رغم المعرفة الحقيقية بالوقائع، استمرار رواية أن عرفات وحده هو المسؤول عن إخفاق مفاوضات كامب ديفيد؟ اليس هذا نموذجاً على التضليل الإعلامى.

وعلى العكس، فإن الصحافة لا تشير باستمرار لرفض شارون لخطة الأمير عبد الله التى طرحت فى مارس (٢٠٠٢) لسلام عام بين البلاد العربية وإسرائيل.

وهم الأشخاص أنفسهم الذين أعادوا التركيز أكثر من مرة على أن عرفات هو الذى أطلق الانتفاضة عمداً حتى يهرب من عملية السلام. وأن

١- إيلى بارنافى بنفسه يعترف بذلك : " أفهم جيداً أن عرفات قد اعتبر أن إتفاقات كامب ديفيد لم تكن كافية. ولو كنت فى مكانه ما كنت وقعت عليها. وفى المقابل كان عليه الاستمرار فى المفاوضات محاولاً اجتذاب أغلب الإسرائيليين إلى جانبه" التوفيل اوبسرفاتور ٣ أكتوبر (٢٠٠٢).

٢- بإسثناء رابطة الدفاع اليهودية التى منحت شارل اندرلان "جائزة التضليل الإعلامى".

٢- شارل اندرلان، الحلم المحطم، فايار (٢٠٠٢)، أنظر أيضاً تحقيق سيلفان سبيل "كامب ديفيد"، المفاوضات المستحيلة، لوموند ٢٨، ٢٩ ديسمبر (٢٠٠٠)، وروبيرلى (الذى كان مكلفاً بملف الشرق الاوسط لدى كليتون، نشر أيضاً تراجيديا الأخطاء، نيويورك ريثيوبوك ١٩ أغسطس (٢٠٠١).

يكون عُرفات قد مارس لعبة اللغة المزدوجة فهذا مؤكد، وأن يكون عُرفات قد أراد استخدام سلاحين في وقت واحد (الانتفاضة و المفاوضات) فهذا ممكن. لكن من الذى أعطى الأمر بإطلاق النار على الجمهور الفلسطينى الذى كان يتظاهر بعد زيارة شارون لساحة المسجد الأقصى؟ وطالما نتحدث عن اللغة المزدوجة، كيف نفسر أن عدد المستوطنات اليهودية فى الأراضى المحتلة قد تضاعف أثناء عملية أوصلو للسلام؟ شارون من جهته، لا يمكن إتهامه بأنه يمارس اللغة المزدوجة. منذ البداية وهو يعلن رفضه لعملية أوصلو للسلام. وكل أولئك الذين انتقدوا بلا هوادة فساد السلطة الفلسطينية لم نسمع صوتهم عندما انتقدت الصحافة الإسرائيلية شارون حول نفس قضية الفساد أثناء انتخابات يناير (٢٠٠٣).

وقد اتهمت أيضا المناهج التعليمية الفلسطينية بأنها تنشر العداء للسامية. فى يونيه (٢٠٠١). لقد فندت صحيفة ها آرتس هذه الاتهامات الموجهة للمناهج التعليمية الفلسطينية بأنها معادية للسامية. وأشار عكيفا الدار Eldar إلى أن أنماط العداء للسامية الذائعة مستخلصة بالفعل من المقررات المصرية والأردنية المستخدمة منذ (١٩٦٧) فى المدارس الفلسطينية.

من المثير للدهشة إذن أن الإحتجاجات بصدد الكتب المدرسية لم تكن تتعلق إلا بالفلسطينيين، ولم توجه فى شئ إلى " الملك الساحر فى الشرق والرئيس الهام بالجنوب" (١).

والحال أنه للمرة الأولى، فى (٢٠٠٠)، يقوم الفلسطينيون بطبع مقرراتهم التعليمية بأنفسهم، وكانت وفقا لدراسة قام بها معهد هارى

١- ها آرتس، يونيه (٢٠٠١).

ترومان لتعزيز السلام، أنها كانت أكثر تحمراً من الاكليسيات السلبية حول إسرائيل واليهود من المقررات الأردنية أو المصرية. وأعدت هذه الدراسة بالاشتراك مع سامر أدوان من جامعة بيت لحم ومتخصصة إسرائيلية هي روث فوير. "المقررات الجديدة تعلم حقوق الإنسان، وتدعو إلى اتباع الوسائل السلمية لحل الصراع. على نقیض تأكيدات وزبرة التعليم الإسرائيلي، لا توجد كلمة واحدة فى هذه المقررات تدعو إلى تدمير إسرائيل" كما تؤكد الدراسة. ويصل عكيفا الدار إلى حد السخرية فى نهاية دراسته: "ربما الوزيرة لن تكون راضية إلا عندما يعلم الفلسطينيون أطفالهم حب المستوطنات".

ولم يتردد كوكيرمان، رئيس المجلس التمثيلی للمؤسسات اليهودية بفرنسا فى إدانة تمويل دافع الضرائب الأوروبی للمقررات المدرسية (الفلسطينية) التى تسيل منها شحنات العداء للسامية^(١)

هل نستنتج من هذا اللاحاح أنه لم يكن على علم بالملف المنشور فى ها آرتس حول هذا الموضوع، أو الاخطر من ذلك أنه يفضل تضليل الجمهور برغم معرفته الحقيقية بالأمر؟

وهذا لم يمنع بيير-اندريا تاجيف من العودة إلى هذا الموضوع فى كتابه (الشكل الجديد لكرامية اليهود). أنه يستخدم نموذج المقررات التعليمية الفلسطينية ليبرهن على لاسامية السلطة الفلسطينية. وهو يستشهد، ليس بصحيفة ها آرتس الإسرائيلية وإنما بالمنظمات غير الحكومية الامريكية التى أثارَت الموضوع لأول مرة فى (١٩٩٩)، وملف مجلة آرش حول الموضوع

١- اليهود هل هم منقسمون؟ الفيجارو ٨ أكتوبر (٢٠٠٢)، كوكيرمان يظهر أقل اهتماما بحماية أموال دافعى الضرائب الأوربيين عندما دمر الجيش الإسرائيلي البنية التحتية الفلسطينية الممولة من الاتحاد الأوروبی.

ذاته المنشور في يناير (٢٠٠١)، والجدير بالذكر أن مدير البحث بالمنظمة الأمريكية غير الحكومية، «مركز مراقبة تأثير السلام» يعيش في مستوطنة يهودية بالضفة الغربية في إفرات، بينما الذين ذهبوا إلى مصادر المقررات التعليمية أمكنهم الملاحظة ثم البرهنة على «النوايا الخبيثة» أنها تورية- لمؤلفي التقرير (ترجمات متحيزة من اللغة العربية إلى الإنجليزية، إشارة إلى نصوص غائبة من كتب مستشهد بها. الخ)^(١)

كذلك، وبينما اعترف الجنرال إيلاند بأن مصدر إطلاق النار كان إسرائيلياً على الطفل محمد الدره^(٢)، الذي مات في أحضان والده، والذي صورته كاميرا القناة الثانية بالتلفزيون الفرنسي، والذي أثر في العالم كله، فإن غلاة الموالين لإسرائيل من الفرنسيين، شككوا في هذه الرواية وتحذثوا عن تضليل^(٣)

إن عمليات التشويه الإعلامي نادراً ما كانت آمنة على المستوى الفكري، لكن على الأقل يظل المرء في نهاية المطاف داخل نطاق الطابع الكلاسيكي للمعركة السياسية والإعلامية. ما هو أكثر خطورة هو محاولة تدمير إنسانية أولئك الذين لا يقبلون آراء غلاة الموالين لإسرائيل، وقضية ميرميه هي النموذج الأوضح على ذلك. دانييل ميرميه، وهو منتج برنامج "إذا ما كنت هناك" على موجات إذاعة فوانس انتير، لوحق قضائياً أمام الغرفة ٣١ بمحكمة الجنح بباريس لـ "حشّه على الحقد العنصري" من قبل LICRA، "اتحاد الطلاب اليهود بفرنسا"، "والمحامون بدون حدود".

١- تاجييف، مشعل الحريق، فانتان ميسوبوليه، AMFP، ٢٤ فبراير (٢٠٠٢).

٢- ها آر تس ٢٥ يناير (٢٠٠٢)، مستشهداً به من قبل دومنيك فيدال "باسم المعركة ضد اللاسامية" لوموند ديلوماتيك ديسمبر (٢٠٠٢).

٣- انظر جان كاهن. "احتقار الأقوياء" الفيجارو ٧ يناير (٢٠٠٣).

كانت جريمته أنه اذاع تسجيلاً لم يستمع لم يتضمن أى اقوال عنصرية وإنما كان ينتقد بشدة السياسة الإسرائيلية^(١). وبرنامج ميرميه الإذاعي يبدأ فى كل حلقة بإذاعة رسائل مختارة من تلك التى تلقاها برنامجيه. على مدار وأثناء البرنامج نستمع إلى شهادات لأسرة إسرائيلية أطفالها قد قتلوا أثناء عملية فلسطينية، أو نستمع لفلسطينيين قتل أبائهم.

ومن بين تسع وعشرين رسالة صوتية لمستمعين أذاعتها الإذاعة نجد ثمانى عشرة كانت مؤيدة للفلسطينيين. وهذه الرسائل هى التى كانت موضع المحاكمة، وأقر ميرميه أنه كان يستلقى رسائل أكثر من الموالين لإسرائيل، "مكالمات مرسله فى تسلسل مع نفس الكلمات تقريباً."

وكان كل من الآن فينكلركوت وروجيه كوكيرمان والكسندر أدلر قد مثلوا أمام المحكمة كشهود عن الجانب المدنى. ووفقاً لـ آلان فينكلركوت فإن إذاعة مثل هذه الأقوال فى مناخ معاد للسامية كالسائد حالياً فى فرنسا لا يمكن إلا أن يشجع العنف ضد اليهود... "واعتبر أن "طابع الالتزام يغلب على طابع الصحفى" وأن البرنامج قدم إسرائيل على أنها دولة عنصرية وفاشية وبشكل ما نازية. وهنا مرة أخرى فإن انتقاد إسرائيل ينظر له على أنه تحريض لارتكاب الاعتداءات اللاسامية.

"يوضح الآن فينكلركوت أن خمسة وتسعين فى المائة من يهود فرنسا هم صهيانية بمعنى أن لديهم تضامناً مصرياً مع إسرائيل. وتقديمها كدولة لا

١ - "قوة مميّزة تجذب للذمتها فى اغتيال الأطفال وتقطيع أطرافهم" منافقون يستعملون بمهارة مدافع العداء للسامية" هذا ما كتبه قبل أن ينتهى إلى: "أنا معاد للصهيونية بشدة، لكننى لست معادياً للسامية فى شئ."

إنسانية بوصفها فاشية أو نازية، فإن هذا يعنى إقصاء، تحت قناع مكافحة العنصرية، كل الذين يدعمونها بوصفهم يهوداً. (١)

من أين جاء بهذه الأرقام؟ أليس من قبيل التناقض أن يكافح عن حق ضد كل أولئك الذين يتحدثون عن طائفة يهودية بوصفها كتلة واحدة متناغمة المواقف وأن يمارس هو ذاته مثل هذا النمط من الخلط؟ وأبعد من واقع أن يكون صهيونيا هل ينبغي أن يقبل كل جوانب سياسة حكومة شارون؟

من جانبه يصف الكسندر أدلر دانييل ميرميه بأنه صحفي مناضل مقارنا برنامجه بتلك البرامج التي تذكر المرء بأوروبا الشرقية فى الماضى. (٢)

كان على الكسندر أدلر، الذى جعل من الدفاع عن إسرائيل منهج سير دائم له مهما كانت سياسة هذا البلد، أن يتصف بقدر كبير من التبجح حتى يتهم ميرميه بأنه "مناضل". ولا يتزعج أدلر أوفينكلركوت، وهما "من القائمين على الإعلام الرسمى" فى تمرير قناعاتهم فى برامجهم (المسموعة أو المرئية) سواء فى اختيار القضايا، أو بين المدعويين الذين لا ينبغي عليهم أن يظهروا نقداً شديداً تجاه حكومة شارون. وسيشعرون بالانزعاج إذا قال لهم أحد أنهم يخلطون بين تليفزيون وراديو الدولة وبين أجهزة إعلام الطوائف، فضلاً عن أن آراءهم معروفة ولا يخفونها. ولديهم الحق تماماً فى الدفاع عنها، بل إن دورهم كمثقفين أن يفعلوا ذلك. لكن لماذا يعيبون على الآخرين ما يسمحون به لأنفسهم؟ لماذا يعيبون على ميرميه إدارة برنامج شهادات، علنية ومتعارضة، عندما يسمحون لأنفسهم بتحرير

١- لوموند، ٢-٣ يونيه (٢٠٠٢).

٢- ليبراسيون، ٣ يونيه (٢٠٠٢)، "إذا كنت فى المحكمة هناك".

الرأى فى اتجاه واحد؟ وماذا سيقولون إذا رفع أحد ضدهم قضية، حتى لو كان متأكداً أنه سيخسرهما، وإنما فقط من أجل أن يمارس ضغطاً عليهم؟ وإذا كان المتناصلون الموالون للفلسطينيين يحتجون ضد واقع أن أنصار إسرائيل، فى مقدرتهم الاستمرار فى الظهور بوسائل الإعلام العامة برغم التزامهم الجفرى الموالى لإسرائيل؟

أثناء المحاكمة، صرح المحامى جولد نادل : "إن محاكمة ميرميه هى محاكمة اللاسامية ذات الشكل الجديد أى محاكمة (يسار بعينه). وأضاف : "فى أوقات الأزمة هناك دائماً خيط رفيع بين كراهية الدولة اليهودية والعداء للسامية".

وطالب المحامى جولد نادل مستمعى راديو الطائفة اليهودية، فى ٣١ مايو، بالتوجه لحضور محاكمة ميرميه (لزيادة الضغط على ميرميه الذى ستوجه إليه الإهانات أثناء جلسات الاستماع) لمساندة "هذه المعركة الجوهرية ضد العداء للسامية الأكثر رعباً، أى العداء الذى لا يعلن عن نفسه، وإنما يستغل كل السلطات التى فى حوزته اليوم، بدءاً بسلطة إعلامية بدون رقابة. إن هذه السلطة هى التى ينبغى أولاً أن نحتج عليها إذا أردنا السعى لإلغاء برنامج الحقد الذى يعود من جديد" (١).

إن التسمية الودية لـ "محامون بدون حدود" تشير إلى أنها منظمة غير حكومية مكلفة بالدفاع عن حقوق الانسان وحيث يتطلب الأمر الدفاع عنها فى أى مكان فى العالم على غرار المنظمات النظرية الأخرى مثل (أطباء بلا حدود)، (محققون بلا حدود). لكن أقل ما يمكن أن يقال هنا هو أن هناك لعباً بالكلمات، لأن الجمعية التى يرأسها وليام جولدندادل هدفها الوحيد هو

١- ليبراسيون ٣ يونيه (٢٠٠٢).

الدفاع عن إسرائيل والاعتداء على من ينتقدونها. وهذا سيؤدي، فضلاً عن ذلك، إلى رفع دعوى قضائية من قبل جمعية أخرى تسمى "محامون بلا حدود فرنسا" ضد الجمعية التي يقودها جولدنادل، والتي ليس لها أي عمل من أعمال التضامن الدولي، ولا يتجلى نشاطها إلا في دعاوى قضائية من نمط تلك المرفوعة ضد دانييل ميرميه.

سيكون المحامي جولدنادل هو محامي أوريانا فلاتشي التي كتبت كتاباً عنصرياً بصورة واضحة ضد المسلمين، وبالتأكيد من أجل "نزع برنامج الحقد" (انظر الفصل السابع) ^(١).

وسيجل سبيل دانييل ميرميه في ١٢ يولية، ويؤكد القضاة أنه "بوصفه صحفياً وصف وضعاً سياسياً ذا طبيعة صراعية للغاية، وأنه إذا كان عمله لا يستقيم "بدون التعبير عن بعض الاعتبارات"، فإن هذه الاعتبارات كانت "تعبّر فقط عن قضية، يدافع عنها بعيداً عن أي اعتبارات عنصرية". لكن الذين رفعوا الدعوى ضده قاموا بإستثناف الحكم. الواقع أن القضية بالنسبة لهم ليست كسب الحكم إذ لا يمكن الرهان مقدماً على قرار العدالة وكان من غير المتوقع رؤية ميرميه مداناً من قبل المحكمة. لكن الهدف من رفع الدعوى كان خلق نموذج وامتلاك تأثير الردع على الآخرين. وكأن لسان حالهم يقول: هل لديك رغبة في أن تحاكم بالعداء للسامية عبر المحكمة وعبر الإعلام؟ هل أنت مستعد لتحمل هذا الضغط على نفسك وأقاربك ورؤسائك في العمل؟

١- وفقاً له : الصحفية الإيطالية ترفض وتشير إلى "صرخة عاصفة لامرأة معذبة، مجروحة، إيطالية وأرمنية". بالنسبة لها "الفاشية الجديدة ليست بنية وليست حمراء وإنما خضراء". الفيجارو ١٩ يونيو (٢٠٠٢).

ستبلور استراتيجية هجوم إزاء دانييل ميرميه . وستأخذ شكل قضية ثانية رفعتها "محامون بلا حدود" ، الفيجارو ، ليكرا ، واتحاد طلاب يهود فرنسا لانه أعاد إذاعة أقوال طبيب نازى فى برنامجيه ، من خلالها كان هانس مونسى ، الطبيب النازى ، يتحدث عن الغجر . وهنا يصل الأمر الى قمة سوء الطوية لأن النازى القديم قد اكتشفه ميرميه فى (١٩٩٨) وعلى أساس ما قاله إلى ميرميه الذى كان قد أدانه. ^(١) وأثناء المحاكمة صرح الفريد جروسيه : إذا كان ميرميه مذنباً فإنه ينبغى أيضاً أن يدان كلود لزمان وفيلمه "الشوا" الذى يستند الى السيناريو ذاته ، أى انطلاقاً من شهادات نازيين قدامى ^(٢).

أكدت المحكمة على أن البرنامج الإذاعى كان مستنداً إلى اهتمام مشروع فى إعلام الجمهور ^(٣) . وكذلك رفعت دعوى ضد إدجار موران ودانييل ساليثاف وسامى نير بعد نشرهم مقال حول الوضع فى الأراضى المحتلة ^(٤).

هذا النمط من الضغط يوجد أيضاً فى إسرائيل . فالصحافة القومية والدولية عندما تظهر نقدها تجاه السياسة الحكومية ، ينظر إليها كخصوم فى بلد حيث الصحفيون كانوا دائماً أحراراً ، وعادة ما كانوا ينتقدون بعنف السلطات القائمة .

١- لوموند ١٢ سبتمبر (٢٠٠٢).

٢- المرجع ذاته .

٣- لوموند ١٧ أكتوبر (٢٠٠١).

٤- الجريدة ذاتها فى ٤ يونيو (٢٠٠٢) . تنازل اتحاد طلاب يهود فرنسا عن رفع الدعوى لأن وليام جولدندال قد تحدث باسم الاتحاد رغم رفضهم الصريح فى المشاركة فى هذا الإجراء .

يمكن للمرء أن يدرك أن العلاقات بين الصحافة والسلطة ذات طبيعة أكثر توتراً في وضع الحرب وانتشار الهجمات منها في وقت السلم. وأبعد من الصعوبات المفهومة يمكن أيضاً الاعتقاد بوجود استراتيجية مدبرة من قبل الحكومة الإسرائيلية القائمة، وهى إسكات مصادر المعلومات لتجفيف منابع الانتقادات بالضغط على الصحافة، وجعل عملها يتم في ظل أكبر قدر ممكن من الصعوبات، باستهدافها معنويًا وأحياناً مادياً حتى لا يشار إلى القمع. ووفقاً لـ "محققون بلا حدود" فإن حصيلة الإحتلال الإسرائيلي للمدن الفلسطينية لا نظير لها: ينبغي إدانة سياسة السلطات الإسرائيلية إزاء الصحافة الأجنبية وخاصة الصحافة الفلسطينية، بوصفها سياسة انتهاك جماعية، ومتعمدة لحرية الصحافة^(١).

وقد أثار روبرمينار مسألة مصير الصحفيين المصابين بالرصاص في الأراضي المحتلة منذ ١٩ نوفمبر (٢٠٠١)، وفي أغلب هذه الحالات الخمس والأربعين، فإنه من المرجح جداً أن إطلاق الرصاص جاء من القوات المسلحة الإسرائيلية. وكثير من التقارير التى أعدتها منظمات حقوق الإنسان وحرريات الصحافة قد تحققت من هذه الوقائع. وقد ركزت بشكل خاص على أن أغلب المحققين الذين أصيبوا كانوا بعيداً عن ميدان القصف، بل وحتى أحياناً كانوا على مسافة بعيدة من أماكن الحوادث، كما لو كانوا قد استهدفوا عن عمد.^(٢)

" ومنذ مجئ شارون إلى السلطة فى فبراير (٢٠٠١)، جرح سبعة عشر صحفياً، وتعرض سبعون لإطلاق النار، واحتل الجيش الإسرائيلى خمسة عشر مكتباً إعلامياً إجنياً وفلسطينياً. ومنذ بدء عملية الجدار فى ٢٩

١- لوموند ٢٠ أبريل (٢٠٠٢).

٢- "إرهاب الصحفيين ينبغي أن يتوقف" الفيجارو ٤ مارس (٢٠٠٢).

مارس (٢٠٠٢) تم اعتقال ثلاثين صحفياً على الأقل، منهم ستة فلسطينيين مازالوا رهن الاعتقال. ويتصرف الجيش الإسرائيلي دون أى مساءلة^(١)

إن القضية بالفعل هى قضية عدم المساءلة. فلتخيل أن الجيش اليوغسلافى قام بالممارسة ذاتها التى قام بها الجيش الإسرائيلى تجاه الصحافة؟ هل كانت أجهزة الحكم الغربية، وعلى رأسها الأمريكية، ستدخل؟!

من جانبها لاحظت الفيدرالية الدولية للصحافة: "هناك الآف من الأشخاص اليوم يعيشون تجربة مؤلمة مع الإدارة العسكرية التى تهدد بوحشيتها المفهوم الجوهري للتعاشي الفلسطيني مع إسرائيل. فى هذه التراجيديا المؤلمة نجد فى المقدمة الصحفيين الفلسطينيين.. وتعكس البراهين الكثيرة على محاولات التحكم فى أجهزة الإعلام أزمة عميقة بالنسبة لحرية الصحافة." (٢)

فى يونيه ٢٠٠٢، نجد أنه سيجرى اتهام شبكتى (CNN) و(BBC) بإشاعة أقوال معادية لإسرائيل، وتشجيع الإرهاب. وكان تيد تيرنر المؤسس والمدير السابق لـ (CNN) قد انتقد إسرائيل لممارستها "إرهاب الدولة".

وقام إيسون جوردان مسئول قسم الإعلام العالمى بالقناة بزيارة إسرائيل لتقديم الاعتذار، وإيضاح أن أقوال تيرنر لا تلزم الـ (CNN). ووعد بإذاعة خمس حلقات عن الضحايا الإسرائيليين للإرهاب. وفى الوقت ذاته صرح تومى لبيد رئيس حزب شينوى (علمانى يمينى) بأن "صحف مثل

١- نشرة AMFP (جمعية مرسيليا الفلسطينية الفرنسية) يولييه (٢٠٠٢).

٢- إيدان دايت وأدلىفى دلاج "تنطية فلسطين، المستقبل غير المؤكد للصحافة فى منطقة خطرة" ١ نوفمبر (٢٠٠١) ص ٣.

الاندبندنت والجاردريان تعمل لحساب المتطرفين من حماس* . وكانت صحيفة ها آرتس قد استجوبت رئيس قسم الصحافة بالحكومة الإسرائيلية دانييل سيمان عن المآخذ الموجهة إلى هذه الصحف والإذاعات فقال: كل محاولتنا لإقناع الـ CNN بأن تتوقف عن وصف الضفة الغربية بأنها أرض محتلة قد فشلت. (١)

وقد طالبت الحكومة الإسرائيلية الصحافة الإسرائيلية بأن تبرهن على "وطنيتها". وأن لا ينفى الحديث بعد ذلك عن "مستوطنات"، وإنما "قرى صغيرة"، والفلسطينيون ليسوا "ضحايا" وإنما "موتى"، والناشطون ليسوا من "الذين تم اغتيالهم" وإنما "قتلى" (٢) وحتى إذا لم تكن هناك رقابة بشكلها الصريح، فإن الضغوط تفرض ثقلها أكثر فأكثر.

وتواجه فرق التليفون الأجنبية صعوبات في الحصول على تصاريح عمل، والصحافيون الفلسطينيون "تمنع عنهم بطاقة الصحافة" بصورة شبة كاملة. وقد صرح داني سيمان مسئول مكتب الصحافة بالحكومة قائلا: منذ عامين كنا مضيافين للصحافيين لكن إذا استخدم احدهم حسن ضيافتك لكي يغتصبك فهل تظل ودوداً معه؟ (٣)

هناك إذن تحدٍ حقيقى ديمقراطى فى إمكانية استمرار الإعلام حول ما يحدث فى الاراضى المحتلة. وعندما يحاول نظام وأنصاره فرض ستار من الصمت على عملهم، مهما كانت الأدلة المستخدمة، فإن هذه ليست علامة جيدة أبداً من أجل قضيتهم وسياستهم.

١- ليبراسيون ٢٤ يونيه (٢٠٠٢) "غضب ضد CNN و BBC فى إسرائيل.

٢- لوموند ٢٢ مايو (٢٠٠٢).

٣- ليبراسيون: إسرائيل تتهم الصحافة الأجنبية بعدم الموضوعية ٧ نوفمبر (٢٠٠٢)

الفصل الثالث

كراهية اليهود

من واقع الايام المظلمة للاضطهادات اللاسامية، يمكن للمرء أن يدرك بسهولة أن كل الجراح لم تلتئم بعد، وأن واجب الذاكرة ليس فقط مشروعاً بل أيضاً ضرورياً. وإذا كان ذلك يعنى فى المقام الاول الضحايا وأسرههم، فإنه يعنى أيضاً كل الديمقراطيين والجمهوريين، لأن القضية، أبعد من طابعها المؤثر، هى قضية سياسية بصورة أساسية. ينبغى التذكر لكن ينبغى الفهم أيضاً، حتى لا يصبح فى وسع هذه الأحداث أن تعود من جديد أبداً.

وعلى نفس المنوال ينبغى، بلا كلل، التصدى لكل محاولة للتوظيف السياسى لهذه الأحداث المؤلمة. ولأن هذه الأحداث خطيرة جداً وهامة جداً فإنه لا ينبغى أن تفقد معناها، من خلال إثارتها فى كل مناسبة وخارج السياق. فى فرنسا لم يعد الزمن هو زمن ظلام القرن. لم يعد اليهود فى فرنسا يعانون من التمييز، لم يعد اليهود ضحايا. ينبغى على الجميع تقديم الضمانات حتى لا يتم انتهاك هذا الوضع من جديد، وحتى لا تعاني طائفة من السكان مرة أخرى من التمييز أيا كانت مبرراته.

لا يمكن لأحد أن ينكر أن العداء للسامية لايزال قائما فى فرنسا. ومن المؤكد أن هناك شعوراً متزايداً لعدد من الشباب الذى يسكنون الضواحي، وأنه يأخذ لدى البعض منهم شكل معارضة لسياسة شارون تنتهى إلى

عداوة عامة وتمييزية تجاه اليهود.^(١) وواقع أن يكون هناك انبعاث لأعمال تستهدف اليهود كيهود باعتبارها أعمالاً لاسامية نتيجة لأحداث الشرق الأوسط، فهو من الأمور المؤكدة والمدانة. وعلى العكس ليس من قبيل الدقة القول أننا قرييون من "ليلة كريستال" جديدة كما يؤكد المجمع الديني المركزي في صياغة درامية مبالغ بها، أو أن هناك كراهية لليهود تتأسس من جديد. فالعداء للسامية ليس مع ذلك هو الشكل الأكبر للعنصرية في فرنسا. فأغلب هذه الأعمال تمت على أيدي الشباب ساكني الضواحي من أبناء المهاجرين. ومن غير الصحيح القول إن هذه الاعتداءات اللاسامية قد تم إخفاؤها عن عمد حتى لا يوضع المسلمون موضع تساؤل. فالتوائف العربية المسلمة أو السوداء - ناهيك عن الغجر - هم بالتأكيد أكثر معاناة على صعيد العنصرية من الطائفة اليهودية، فضلاً عن أنهم يتحملون رؤية أولئك الذين يتمتعون بوضع أفضل من وضعهم على صعيد التمييز العنصري يكررون بلا كلل فكرة أنهم يخضعون لظلم لا نظير له.

وتتشكل هنا حلقة مفرغة. فبعض الفرنسيين - من بينهم شباب المهاجرين لكن ليسوا وحدهم - يُحمَلون يهود فرنسا المسؤولية لما يحدث في الأراضي المحتلة من قبل إسرائيل، وينظرون لأحداث "الشوا" نظرة نسبية باسم تعاطف زائف مع الانتفاضة، ورافضين الاعتراف بأن العداء للسامية لا يزال موجوداً وأنه يمكن أن يتحول إلى أعمال عنف.

ويشير هذا النمط من السلوك ردود أفعال تتميز بخوف مشروع لدى يهود فرنسا، ويدفعهم فوراً للاستماع بقدر أكبر من اليقظة لأولئك الذين يتنبأون لهم بما هو أسوأ.

١- انظر تحقيق مجلة النوفيل أوبرفاتور في عدد ٦ فبراير (٢٠٠٣).

غير ان غلاة الموالين لإسرائيل، والذين يدعون كل يهود فرنسا للوقوف خلف حكومة إسرائيل (أى حكومة شارون) والذين يشيرون أحداث "الشوا" حتى ينزعوا المشروعية عن أى نقد موجه إلى هذه الحكومة ذاتها، والذين يماثلون بين "ليلة كريستال" والأعمال اللاسامية الراهنة، لا يفعلون سوى تدعيم هذا النمط من السلوك، وتدعيم خرافة أن فرنسا لاسامية بشكل عام، وحيث اليهود ضحايا بصفة خاصة، وبذلك يثير غلاة الموالين لإسرائيل حساسية العديد من الفرنسيين الذين يلاحظون، على العكس، أن اندماج اليهود فى فرنسا ناجح بشكل كبير. ويشيرون أحيانا غضب شباب أبناء المهاجرين الذين يعتبرون أنهم يتعرضون لتمييزات فعلية دون أن يكون هناك تركيز على مصيرهم بنفس القدر.

ويصبح من الصعب أكثر فأكثر الخروج من هذه الحلقة الجهنمية. فالنفى الذى يمارسه البعض، والمبالغات التى يمارسها البعض الآخر كانا يخدمان بعضهما البعض بالتبادل. وكان هؤلاء يعيرون تجاوزات أولئك الآخرين حتى يقدموا بنجاح خطابهم المتجاوز للحدود.

وظهرت فى الشهور الأخيرة وعلى نطاق واسع حوادث ومناقشات حول انبعاث اللاسامية فى فرنسا، وحيث اتهمت الصحافة، شأنها فى ذلك شأن عامة الناس، بأنها تحيط هذه الظاهرة بالصمت. وصدرت كتب، ذات نوعيات مختلفة، مكرسة لهذا الأمر^(١). وأقل ما يمكن أن يقال عن هذه

١- يمكن أن نشير إلى : بيراندريه تاجيف "كراهية اليهود الجديدة"، سبق ذكره، كروننسكى "الخطأ على اليهود" دار Balland (٢٠٠٢)، رافائيل دراي تحت صهيون دار

Michalon (٢٠٠٢)، وليام جولدندال: مختصر جديد للحقد، (٢٠٠٢)، جان بير اللالى: الأشكال الجديدة للاسامية، دار : Dasclie de Broueres (٢٠٠٢)، نيقولانيل:

تاريخ شخصى للاسامية، دار Rplert Laffon, (2003)

الكتب أنها لم تتعرض لأى شكل من أشكال التعتيم عليها. بل قدمت الصحافة الطائفية عروضاً لها، وكذلك أيضاً الصحافة العامة، التى أفردت لها مساحة كبيرة حتى لا تتهم بأنها معادية للسامية. وبالتوازي مع ذلك تم إعداد تفصيل دقيق للأعمال اللسامية حتى يمنع هذا الأمر بعداً ملموساً. وحتى يستند التفسير النظرى إذن إلى وقائع ملموسة.

كرست الصحف الطائفية والعامة، سواء فى صفحات الحوار والمناقشات أو فى صفحات المعلومات، مساحة كبيرة لمصير الطائفة اليهودية الفرنسية، ومخاوف وقلق بعض أفرادها. ومن كثرة إثارة صعود اللسامية، تصاعد بالطبع خوف البعض. بالنسبة لعدد كبير، لقد تم الحديث كثيراً إلى درجة أن الأمر صار واقعاً غير منكور. ومع ذلك فإن الأمور أكثر تعقيداً من ذلك.

من بين هذه الكتب الصادرة التى تناولت ظاهرة اللسامية الجديدة هناك كتاب متميز عن غيره من الكتب الأخرى بشكل ملحوظ، هو كتاب بيير-أندريا تاجييف. فالمؤلف مدير أبحاث فى المركز القومى للبحث العلمى (CNRS) ويشغل مكانة هامة فى الساحة الثقافية. وهو أحد الجامعيين الأكثر شهرة فى هذا البلد، وهو متمكن فى مجال البحث العلمى الدقيق كما هو متائق فى أجهزة الإعلام. ويعالج تاجييف منذ عدة سنوات قضايا العنصرية ومكافحة العنصرية. وكتابه، على عكس الكتب الأخرى فى هذا الموضوع والتى هى أقرب إلى صرخات غضب، يمتلك بنية فكرية فعلية، وعنوانه ذاته يعكس هذا الأمر.

ولا يتعلق الأمر بمجرد استبدال تصور أكثر جدة عن كراهية اليهود (judephobie) بالتصور الكلاسيكى للعداء للسامية (antisemitisme)

"إذا كنت قد استخدمت المصطلح الجديد "كراهية اليهود" أكثر من المصطلح الجارى "اللاسامية"، فذلك لكى أصف الحقد المعلن أو المؤدلج الذى يستهدف اليهود، وإذا لجأت إلى استخدام مسميات اللايهودى أو كراهية اليهود أكثر من اللاسامى، فإن ذلك لأن مصطلحات "لاسامى اللاسامية" التى تأسست عليها نظرية الأجناس، ولاسيما التمييز العنصرى بين أجناس على التوالى سامى/ سامية وآرية/ هندو أوربية، تبدو اليوم مؤسسة بشكل خاطئ، وغير قادرة على السماح بتصور دقيق للأحداث المعادية لليهود التى يمكن ملاحظتها اليوم فى العالم.^(١) فى الحقيقة ليس هذا المصطلح الجديد بجديد. فمنذ عام (١٩٨١) تحدث مكسيم رودنسون عن هذا المصطلح (كراهية اليهود)^(٢). لكنه يقدم هنا إذن كسبق تصورى.

يتضمن الكتاب جهاراً من الملاحظات والهوامش وصلت إلى عدد مذهل (٣٩٩ على وجه الدقة) مما يعطى له مصداقية عمل بحثى. والهدف إذن هو ربطه بتقاليد البرهان الأكاديمية وليس بتقاليد أخذ المواقف الشخصية أو المتحيزة.

ونظراً لأعمال المؤلف السابقة حول قضايا مكافحة العنصرية، وحساسيته تجاه هذا الأمر، فقد ترك كتابه أثراً كبيراً. وسيشكل مرجعا علميا لكل أولئك الذين يدينون اللاسامية فى فرنسا.

غير أن الكتاب، فى الواقع، هو كتاب من الكتب السريعة (كندا

١- كراهية اليهود الجديدة، ص ٢٥ و ٢٦.

٢- مكسيم رودنسون، شعب يهودى أم مشكلة يهودية. دار ماسبيرو، (١٩٨١) وأعيد طبعة لدى دار لاديكوفرت، (١٩٩٧).

دراى). كُتبه جامعى وله شكل الكتاب العلمى، وهو فى الواقع من الكتب الأيديولوجية، حيث الحقيقة يتم حذفها عندما لا تتطابق مع المسلمات الأولى لتأجيف.

ووفقا لهذا الأخير، بالفعل: "هذه الموجه الجديدة من كراهية اليهود لا يمكن فصلها عن خطاب إيديولوجى ذى طبيعة مُسرَّعة وتعبوية منتشرة على سطح المعمورة، وحيث نتعرف على تراث معين من الكلمات والقضايا النابعة من تقاليد متنوعة معادية لليهود، لكن أيضا نابعة من بواعث اتهام جديدة، مركزة على "إسرائيل" و "الصهيونية"، ومشبعة بأساطير اندفاعية. وكى نذهب مباشرة لما هو جوهرى، فلنقل إن شكلها البرهانى بصورة عامة هو التالى: "اليهود كلهم صهاينة تقريباً بصورة غير معلنة، والحال أن الصهيونية هى استعمار وامبريالية وعنصرية، إذن اليهود هم مستعمرون وامبرياليون وعنصريون بصورة علنية أو مقنعة." (١) غير أن هناك مشكلة صغيرة، فالمؤلف يوضح لنا بهذا الصدد فى هامش أسفل الصفحة: "أؤكد هنا على أن الأمر السابق ليس استشهاده بل إعادة صياغة وبناء قمت بها بنفسى، لمنطق دارج لا يظهر أبداً تحت هذا الشكل المطور والصريح" (٢).

إذن نحن نبتعد قليلاً عن منطق البرهان القاطع، طالما أن المؤلف ينسب لخصوم غير محددين منطقاً بناء بنفسه، وبالتالي يترك المرء كتاباً مرجعياً ليدخل إلى كتاب دعائى. ولم لا، غير أنه كان من الأكثر أمانة أن يكشف المؤلف أوراقه منذ البداية.

١- كراهية اليهود الجديدة. مرجع سبق ذكره. ص ١٢.

٢- المرجع ذاته هامش رقم ٢ ص ١٢.

لأن تاجييف لم يعد يدفع تفسيره بعيداً، كيف نفسر أن معارضة إسرائيل شهدت ارتفاعاً منذ عامين؟ ألا يعود ذلك - أكثر من اللاسامية الجديدة العفوية - إلى رفض سياسة حكومة إسرائيل إزاء الفلسطينيين؟

ونجد هذا الأسلوب ذا الطابع العلمى المحدود على مدار صفحات الكتاب. "هذا التخطيط لمنطق مؤسس على تسلسل أخطاء لا يتجسد كما هو فى الخطابات العادية حيث لا يظهر إلا بعض المصطلحات التى وضعت فى حالة تعادل." (١)

وكما أكد فانسان ميسو بوليه، مؤسس جمعية التربية فرنسا - إسرائيل - فلسطين: "تاجييف أمام عدم قدرته على إعطاء أمثلة تدعم منطقته عندما يتعلق الأمر بنقد اليسار الراديكالى، يخلق كيانا من كره اليهود لكى يدين كراهية اليهود الجديدة." (٢) بوضوح هذا يسمى تزويراً!

يعطى تاجييف فى الفصل الأول من كتابه عديداً من الأمثلة لاستشهادات تدل على كراهية لليهود. فاللاسامية أو كراهية اليهود موجودة، والتصريحات المؤسفة التى تستعاد من جديد تبرهن على ذلك. المشكلة ونحن هنا على مقربة من التزوير الفكرى، هى أنها ليست صادرة عن الأوساط التى يدينها تاجييف. فى كتابه يجعل أوساط اليسار الموالية للفلسطينيين مسئولة إلى حد كبير عن مناخ كراهية اليهود والاعتداءات التى تتعرض لها الطائفة اليهودية بفرنسا.

غير أنه يستشهد بأصوليين إسلاميين، أسامة بن لادن، قائمة متطرفين، وآخرين مثل فوريسون وجارودى والذين لا أحد منهم يمكن اعتباره ممثلاً لمنظمة التحرير الفلسطينية أو للقضية الفلسطينية. وإذا كان تاجييف يعتقد

١ - الشكل الجديد لكراهية اليهود، مرجع سبق ذكره، هامش رقم ١٤٦ ص ١٩٣.

٢ - تاجييف: مشعل الحريق، AMFP فبراير (٢٠٠٢).

أنه من المفيد أن يوضح أنه مناصر لحل تفاوضى فى الشرق الأوسط وإنشاء دولة فلسطينية إلى جانب إسرائيل فإن هذا لا يخرج عن كونه مجرد حجة معكوسة هدفها إخفاء مساندته غير المشروطة لحكومة شارون.^(١) لا يوجد فى كتابه نقد واحد ضد السياسة التى يتتهجها شارون، والتى أقل ما يمكن أن يقال بشأنها إنها لا تفضى مباشرة إلى هدف السلام.

ومع ذلك سيحصل الكتاب على أفضل استقبال. ولم تجرؤ الصحافة، بما فيها الصحافة العامة، على نقده بل ستفتح له صدر صفحاتها على نطاق واسع، دون أن تعارضه أبداً معارضة جادة، أو إبراز عدم الاتساق فى بعض الفقرات، لأن التشكيك فى الكتاب يعنى بالضرورة كراهية اليهود.

وبالتوازي مع هذا العمل الفكرى أجرى إحصاء للاعتداءات اللاسامية بهدف إظهار حجم هذه الظاهرة، وفى الوقت نفسه إدانة عدم تحرك السلطات العامة وصمت الإعلام. فلنقل بكل وضوح إننا لم نجد أبداً صمناً يمثل هذا الصخب. وأى شخص يتابع أجهزة الإعلام فى (٢٠٠١) و(٢٠٠٢) سيجد عدداً لا يصدق من المقالات والمنابر حول هذا الأمر. لقد وقعت اعتداءات حقاً، لكن من المجافة للحقيقة تماماً القول إنها مرت تحت ستار الصمت. بل بالعكس كان لها أثر أكبر من أحداث العنف الأخرى، كيف يتمكن المواليون لإسرائيل بصورة مطلقة من الموافقة بصورة جدية على فرضية مؤامرة الصمت على اللاسامية فى فرنسا؟ ربما من شدة التكرار صار البعض منهم مقتنعاً بذلك. إنه انتصار لمنهج كويه Méthode coué. غير أن فرضية مؤامرة الصمت لا تصمد ثانية واحدة أمام امتحان الوقائع.

١- ويرؤه حتى من مذابح صابرا وشاتيل ص ٩٣ * واقع لم يتم تحقيقه بصورة دقيقة ومحرر عن عمد.

فلتكن الأمور واضحة. إن كل عمل معاد للسامية، من حرق معبد إلى إرسال رسالة، مروراً بالاعتداء على أفراد في الشوارع لمجرد أنهم يهود فقط، ينبغي أن يدان.^(١) ليس فقط إدانة أخلاقية وإنما أيضاً جنائية. فرنسا الجمهورية ينبغي أن تحمي مواطنيها وكذلك كل الذين يعيشون على أرضها. ولا توجد قضية يمكن لها أن تعطل قوانين الجمهورية. ولا يمكن قبول أى عذر اجتماعى أو إثنى لأولئك الذين يتعدون عن هذه القوانين. ولا بد أن تتغلب أدنى درجة للتسامح مع الأعمال غير القانونية والمدانة أخلاقياً. ينبغي أن يكون فى إمكان الأبناء اليهود ترك أطفالهم يذهبون إلى المدرسة دون خشية على أمنهم. ينبغي أن يتمكن المرء من التتره فى شوارع فرنسا - وفى كل شوارع فرنسا - مع القلنسوة اليهودية على الرأس دون أن يشعر بالقلق أو الإهانة أو الإزعاج^(٢).

والحال أنه إذا كانت فرنسا قد عرفت بالفعل أعمالاً لاسامية فى الفترة الراهنة، فإن هذا لا يسمح بالقول إن الأمر يتعلق ببلد لاسامى أو كاره لليهود، ولا حتى القول إن اللاسامية تشهد انطلاقة فى هذا البلد. وفى الحقيقة، إن صورة فرنسا كبلد تحرق فيه المعابد اليهودية بصورة منتظمة، يستمع فيه إلى صرخات "الموت لليهود" بصورة منتظمة وبدون عقاب، هو

١- وهو ما قمت به بصورة منتظمة فى أعمالى المنشورة حول هذا الموضوع. انظر: "هل من الممنوع نقد إسرائيل؟" صحيفة لوموند ٣١ أغسطس (٢٠٠١)، "على الشيطان أن يعود إلى مخبئه". صحيفة الفيجارو ٦ إبريل (٢٠٠٢)، "حق الرد" فى مجلة آرشف عدد يناير (٢٠٠٢)، الحوار وليس المشاجرة مع بترتران بادي صحيفة ليبراسيون عدد ١٣ مارس (٢٠٠٢).

٢- لكن ينبغي أيضاً التمكن من التتره مع ارتداء الكوفية فى الأحياء التى تعيش فيها طائفة يهودية كبيرة بدون أن يتعرض المرء لمضايقات.

تشويه ضخم للواقع ويساهم فى تغذية الخوف. ويساهم كذلك فى نفى فكرة أن هذه الأعمال اللاسامية تأتى كرد فعل لدى قطاع من الجمهور.

وكان المجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية فى فرنسا قد أعد ملفا عن هذه الحوادث، وأذيع على نطاق واسع فى الصحف نهاية (٢٠٠١). وفقا لهذا الملف هناك " ٣٣٠ حالة إعتداء " ارتكبت ضد اليهود فى الفترة من ٩ سبتمبر (٢٠٠٠) حتى ٢٠ نوفمبر (٢٠٠١). غير أنه فى الفترة ذاتها أكدت مصادر الشرطة أن عدد أعمال العنف اللاسامية، على العكس، انخفضت فى (٢٠٠١). كانت قد ارتفعت إلى ١١٩ حالة فى سنة (٢٠٠٠) وانخفضت إلى ٢٦ حالة فقط فى عام (٢٠٠١).

ووصلت التهديدات الموجهة لليهود إلى ٦٢٤ حالة فى عام (٢٠٠٠)، وانخفضت إلى ١٥٥ فى عام (٢٠٠١). وعرف عام (٢٠٠٠) موجة من العنف مع استعادة أعمال الصراع الإسرائيلى الفلسطينى فى نهاية سبتمبر. فمكاتب البوليس كانت قد سجلت اتجاها نحو انخفاض الأعمال اللاسامية حتى استعادة الانتفاضة فى خريف (٢٠٠٠). ويؤكد جيرار فيلوس، السكرتير العام للجنة القومية الاستشارية لحقوق الإنسان، أن هذه الأرقام انخفضت لأنها انطلقت من سبتمبر (٢٠٠٠) وتشمل بداية الانتفاضة. (١)

وتم إنشاء "مرصد العالم اليهودى"، من قبل بعض المشقفين الملتزمين بشكل كبير فى الدفاع عن حكومة إسرائيل "لمعادلة التعتيم الذى يغيب بصورة منتظمة حالة اللا أمن التى تحيط باليهودية النوعية" كما يقول صموئيل تريجانو مدير المرصد. (٢)

١- صحيفة لوموند عدد ٦ ديسمبر (٢٠٠١).

٢- "مرصد العالم اليهودى" عدد ١ نوفمبر (٢٠٠١) ص ١.

هل يمكن حقا أن نتحدث عن "تعتيم"؟ هل يمكن القول بسجدية إن الحوار والنقاش حول اللاسامية والأعمال اللاسامية قد غيبت؟ على العكس أفرزت كل أجهزة الإعلام مساحات وفيرة لهذا الأمر. من المؤكد أن التحذير لم يستخلص مباشرة عندما بدأت هذه الأحداث. لكن هل كان ذلك حقا، كما يؤكد الأكثر موالاة لإسرائيل، لأنه لم تكن هناك رغبة في تجريم الشباب العربى الذين قاموا بهذه الأعمال؟ بدون شك كان العامل الهام وراء ذلك هو الخشية من إعطاء أهمية أكبر لظاهرة من خلال منحها مزيداً من الدعاية.

من الصائب أيضا أن الإدانة المبكرة من قبل الحاخام الأكبر فى فرنسا قد خفضت من حمية الذين يدينون هذه الأحداث فى داخل الطائفة اليهودية. لقد أعلن جوزيف سيتروك - الحاخام الأكبر - فى أكتوبر (٢٠٠٠)، من القدس، حيث كان يزورها، لإذاعة فرانس انتير وإذاعة الطائفة اليهودية معا: "لقد طعن طفل صغير فى مدوسة حر يوسف فى المنطقة التاسعة عشرة من باريس" وأضاف: "لأنه يهودى فقط لأنه يهودى" وقدم جوزيف سيتروك حتى تعازيه للأسرة. وقد انتشرت هذه الإشاعة فى باريس فى اليوم السابق ووصلت حتى إلى مكاتب تحرير الصحف والإذاعات مثل لوموند والقناة الأولى بالتليفزيون الفرنسى. غير أن البوليس قام بتكذيب هذه الإشاعة فى الحال. ولم يتم استعادتها بعد ذلك حتى من قبل الإذاعات اليهودية^(١).

كان على الحاخام أن يعترف بخطئه بعد قليل، وأن يطلب من الطائفة أن تتحلى بالهدوء.

١- صحيفة لوموند عدد ١٣ أكتوبر (٢٠٠٠).

وعلى موجات الإذاعة اليهودية FM أعلى موسى كوهين، رئيس المجمع الدينى المركزى بباريس، عن أسفه للتسرع الذى وقع فيه الحاخام الأكبر ليهود فرنسا، وطلب من الطائفة اليهودية "تجنب نشر معلومات لم يتحقق منها البوليس". ويقال فى الإذاعات اليهودية "مثل هذه الشائعات نتلقى منها ما يتجاوز الخمسين فى الساعة الواحدة!": نساء ألقى بهن على قضبان المترو، أطفال تم الاعتداء عليهم أثناء خروجهم من ليسيه (فى المنطقة الثالثة عشرة بباريس) الخ. (١)

وإذا لم تكن إدانة العمليات اللاسامية سريعة وحازمة بعد خريف (٢٠٠٠) فإن ذلك ربما يعود إذن إلى قطع الطريق على هذا النوع من الانزلاق نحو مثل هذه الأقوال. لكن من غير الصائب القول إن ذلك تم برغبة من أجهزة الإعلام لتغيب هذا الأمر (إنها على العكس جعلت منها قضية كبرى) أو بصمت من السلطات العامة.

ومع ذلك فالأمر تبدو واضحة أمام المجمع الدينى المركزى، فهم يرون أمام العنف اللاسامى: أنهم مضطرون لاعتبار أن اليهود يعيشون حاليا مقدمات "ليلة كريستال" جديدة، مع غياب ردود الأفعال المناسبة من قبل السلطات الفرنسية. (٢)

إنها مقارنة لا منطق يحكمها. إنها هنا نوع من الهذيان. فإقامة تماثل

١- من جانبه صرح هاجين برج مدير راديو الطائفة اليهودية: "هناك أولئك الذين يريدون روع الشقاق: أولئك الذين يريدون تأليب الطائفة اليهودية ضد الطائفة المسلمة، وأولئك الذين من مصلحتهم، فى اليمين المتطرف، إثارة المشاعر بين الطائفتين" صحيفة لوموند ١٣ أكتوبر (٢٠٠٠).

٢- صحيفة ليراسيون، عدد ٢ إبريل (٢٠٠٢)، "بعد الانشقاق الاجتماعى، انشقاق الحقد".

بين الأعمال اللاسامية التي وقعت فى فرنسا بعد خريف (٢٠٠٠) 'وليلة الكريستال' فى ألمانيا النازية، هو ببساطة نوع من التخريف. من غير الصحيح - والشائن - القول إن هذه الأعمال تمت دون أن تتحرك السلطات العامة.

من المؤكد أن السلطات العامة غير قادرة على الإيقاف الشامل والفورى لهذه الأعمال. لكن كيف يعتقد البعض أن هذا الأمر تم عن عمد؟

فلنذكر بأن 'ليلة كريستال' وقعت ليل ٩ و ١٠ نوفمبر (١٩٣٨)، فى ألمانيا النازية. حيث قامت فصائل هجومية باعتداءات كبيرة على اليهود، واغتالت ٩١ يهودياً لأنهم كانوا يهوداً، وحطمت مئات المعابد اليهودية، ونهبت ٧٥٠٠ محل، وخربت شققاً ومكاتب ومقابر، واعتقلت ثلاثين ألفاً من اليهود بأوامر، وتم كل ذلك بموافقة السلطات الألمانية وتشجيعها.

من المتعذر وضع هذا الحدث المنذر بالحل النهائي على قدم المساواة مع ما حدث فى فرنسا بين سنة (٢٠٠٠) و (٢٠٠٢).

أضف إلى ذلك أن شخصيات يهودية عديدة رفضت هذا الشعور بالكارثية المفرطة "الخلط التاريخى لا يساعد فى شئ. هناك علامات قوية للجميع، وهذه العلامات ينبغى أن تظل كما هى" كما يقول باتريك كلوجمان رئيس اتحاد طلاب يهود فرنسا. وكما يقول أيضاً سيرج هاجين برج مدير راديو الطائفة اليهودية "لابد من مراعاة الاعتدال والتروى، وبتعبير آخر إذا كان هذا سيزيد الأمور سوءاً فأى كلمات علينا أن نستخدمها؟" غير أن هذه الكلمات المعتدلة ستغضى بسيل من المزايدات. فأجهزة الإعلام الطائفية ستكرر بلا كلل أو ملل هذه النعمة مساهمة بذلك فى خلق مناخ فعلى من الخوف والقلق داخل الطائفة اليهودية.

فى هذا الشأن هناك تقريران يستحقان الفحص والتحليل. الأول: نشرة مرصد العالم اليهودى والتى ستعلن "قائمة بالحوادث التى كانت الطائفة اليهودية ضحية لها منذ الانتفاضة الثانية" وأعدّها كل من المجمع المركزى، والصندوق الإجتماعى اليهودى الموحد، والمجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية فى فرنسا. والثانى: كتاب "المعادون لليهود" الذى أشار إلى ٤٥٠ حالة معادية لليهود ...

فى هذه النشرة يقر المرصد ذاته: "نجد فى هذه القائمة أعمالاً خطيرة كما نجد حوادث صغيرة، ويستخلص من عددها وتراكمها مناخاً عاماً يتميز بانعدام الأمن للأشخاص والممتلكات، على مدار فترة دائمة لم تنته بعد، ومولدة شعوراً بأن أفراد الطائفة قد تم التخلّى عنهم وأنهم بلا عون" (١) ومن بين الأعمال التى تم حصرها فى القائمة نجد أن الثلثين عبارة عن "رسائل وشتائم لاسامية" وهى أمور غير مقبولة لكنها ليست فى الوقت نفسه مقدمات لـ "ليلة كريستال" جديدة.

فلندقق فى حقيقة الأشياء. سنجد بين "الأعمال العنيفة والحوادث" ما يلى:

فى الفترة من ١٧ إلى ١٨ سبتمبر (٢٠٠٠) تعرض المعبّد اليهودى فى ضاحية من ضواحي باريس Ris-Orangis إلى عملية تحطيم بغرض السرقة وتخريب عمدى للممتلكات الخاصة. وفى ليل الجمعة إلى السبت ٧ أكتوبر (٢٠٠٠) تعرض المعبّد اليهودى فى ضاحية أخرى من ضواحي باريس هى Bagnolet إلى سطو وتخريب، ولم يعثر على أى علامة لاسامية فى المكان. وفى ١٠ أكتوبر (٢٠٠٠) تم إحراق شقتين، واحدة منهما احترقت

١- نشرة رقم ١، نوفمبر (٢٠٠١).

بشكل كامل، فى choisy-le-roi. وفى أكتوبر (٢٠٠١) تعرض شاب من مدرسة موسى بن ميمون إلى نهب وشم أثناء خروجه من المدرسة. وفى ليل ١٩ يناير (٢٠٠١) تعرض المعبد اليهودى فى المنطقة الثانية عشر من باريس إلى سطو وسرقة صندوق التبرعات وكسر قفل الباب. وفى ١٢ سبتمبر (٢٠٠١) تعرض المعبد اليهودى فى pantin إلى كسر فى قفل الباب. وفى ٢٧ سبتمبر (٢٠٠١) ألقى زجاجة بلاستيكية على المعبد اليهودى فى المنطقة التاسعة بباريس. كما تم إلقاء البيض على المعبد اليهودى فى Issy-les-moulineaux أثناء إحتفال يوم كيبور (*).

هناك أيضا، فى القائمة، "أعمال أيديولوجية، تهديدات" وتم حصر لأعمال من قبيل "إلقاء علب كوكاكولا وحبات أبوفروة على المعابد اليهودية أثناء ممارسة الطقوس الدينية، تهديدات عبر البريد (أغلب الوقائع التى تم حصرها وصفت بأنها "رسائل لاسامية") أو رسائل بالبريد الإلكتروني أو الكتابة على الجدران ("الموت لليهود"، "يهود أقدار").

هناك أيضا أعمال تبدو خطورتها أقل أهمية.

"فى ٢٨ سبتمبر (٢٠٠١): مر مغاربة أمام المعبد اليهودى فى Blanc-Mesnil، وهم يشيرون بأياديهم بطريقة سلبية." وفى ١٨ سبتمبر (٢٠٠١) سأل شاب مغربى فى الخامسة عشرة من عمره أحد رجال الشرطة أثناء حراسته للمعبد اليهودى بالمنطقة التاسعة عشر بباريس: كم من الأشخاص مكلفين بالأمن فى هذا المكان؟

فى ٢٤ أبريل تعرض أوتويس خاص بمدرسة يهودية إلى تخريب من

(*) يوم كيبور: (يوم الغفران) أى يوم الكفارة، ويعد هذا اليوم واحداً من أهم الأعياء اليهودية، وهو يوم العاشر من شهر أكتوبر. ويبدأ هذا العيد قبل غروب الشمس من اليوم التاسع من أكتوبر، ديسمبر حتى غروب شمس اليوم التالى، فمدته حوالى ٢٧ ساعة، يجب فيها الصيام ليلاً ونهاراً وعدم الاشتغال بأى شئ ماعدا العبادة - المترجم.

قبل اثني عشر شاباً في حي أورلي. وأصيب هيكل الأتوبيس واخترق حجر الزجاج. وأدان مسئولو المدرسة هذا الاعتداء اللاسامي وقدمت شكوى إلى قسم الشرطة، التي نظرت إلى الأمر بصورة واقعية: "من المحتمل أن يكون العدوان قد استهدف الطائفة اليهودية، لكن ينبغي أن يكون معلوماً أيضاً أن هذا المكان قد شهد سلسلة من التجاوزات كما أكد مصدر مسئول بالشرطة. فإذا لم يكن المستهدف هو أوتوبيسات النقل العام فإنها سيارات الشرطة التي تتعرض للتخريب في هذا المكان. وقد أُلقيت قطعة أسمتية من حافة الرصيف على سيارة رينو. واخترقت زجاج السيارة ولم يصب أحد، وكان ذلك معجزة." (١)

١- ليراسيون، ٢٦ إبريل (٢٠٠٢) "تخريب أوتوبيس مدرسة يهودية" اعتداء آخر قد يثار: "لقد جاءوا لقتل اليهود لكنهم فضلوا سرقة حقائبهم أكثر من مطاردتهم". وفقاً لهذا المحقق فإن مسار الاعتداء المتعمد ضد لاعبي نادي كرة قدم مكابي للطائفة اليهودية تم يوم ١٠ إبريل (٢٠٠٢) في بوندي، من خلال كوماندوز ملثمين ومسلحين بقضبان حديدية، الأمر الذي يكشف غموض البواعث العميقة للعصابات التي ترتكب اليوم أعمالاً لاسامية في فرنسا. تحليل يوافق عليه باتريك مؤسس نادي الكرة مكابي "العدوان على لاعبينا له طابع لاسامي. لكنه يحيل أكثر تهديم بنية الشباب البلطجي أكثر من أيولوجية لاسامية منظمة. اليهود اليوم صاروا مستهدفين مثلهم مثل رجال الشرطة والنواب المنتخبين، وباعتدائهم علينا فإنهم يعرفون أنه سيتم الحديث عنهم في أجهزة الإعلام". وهذا الرجل يعيش في بوندي منذ ثلاثين عاماً وله علاقات طيبة مع الطائفة المسلمة بالمدينة، التي فضلاً عن ذلك أدانت بشدة ويشكل قاطع هذا العنف "وقد سئل باتريك عن مدى فعالية التوجه للإعلام بصدد هذا الحدث، فأرجز بالفاظ قوية هذا المازق "بإخفاء الاعتداء وعدم الحديث عنه فإن ذلك يؤدي إلى جعل هذه الأعمال من الأمور العادية مع مخاطرة إجراء تحقيق بوليسي مرتب، وإذا تحدّثنا عنها في أجهزة الإعلام فلنأخذنا ننزل إلى لعبة المعتدين بعمل دعاية لهم وإعطاء فكرة للآخرين ليقلدوهم". مجلة لوبوان عدد ١٩ إبريل (٢٠٠٢): "اليهود هل هم مستهدفون مثل رجال الشرطة والنواب المنتخبين؟".

وفى ٣٠ مارس أكد زوجان يهوديان شابان أنهما كانا ضحية اعتداء لاسامى من قبل عدة مغاربة. لكن المصادر القضائية قالت إن الأمر كان أكثر تعقيداً. فاليهودى الشاب معروف لدى أقسام البوليس بالعنف، وكان قد اعتدى على أحد المغاربة قبل خمسة عشر يوماً. وأن صديق هذا الأخير قد اشتبك معه بعد أن تقاطعا فى الطريق^(١).

تتضمن الأرقام الكبيرة إذن الاعتداءات الأكثر خطورة وتلك التى ينبغى أن تدان لكن لا يمكن أن ينظر إليها على أنها تشكل انبعاثاً للاسامية لا يجرى التحكم فيه فى فرنسا.

ويصف المرء أحياناً بعض الأعمال بأنها لاسامية فى حين لم تخرج عن كونها مجرد أحداث عارضة. فى الليلة الواقعة بين يومى ١٠ و١١ أكتوبر (٢٠٠٠) احترق المعبد اليهودى بـ Trappes. وأدانت الصحافة فى مجملها هذا الحدث غير المحتمل. وبعيداً عن فرضية الصمت الذى يحيط بهذه الأعمال اللاسامية أدانت صحيفة لوموند فى ١٣ أكتوبر هذه الأعمال وقالت "هذا الأمر للأسف ليس معزولاً... والتحريض ضد السامية يتزايد منذ عدة أيام... وبعد التجليات اللاسامية التى لا يمكن قبولها فإن كل اعتداء ينبغى أن يدان بدون تحفظ وأن يعاقب بدون هوادة"^(٢).

تم توقيف ستة من الشباب تتراوح أعمارهم بين الثمانية عشرة والعشرين، فى ١٨ أكتوبر، وقد أنكروا أى مشاركة لهم فى الوقائع "ولم يسمح أى دليل ماضى حتى اللحظة لتحميلهم المسؤولية عن الحريق

١- صحيفة الفيجارو عدد ٦ و٧ إبريل (٢٠٠٢).

٢- "احترق معبد يهودى" لوموند ١٣ أكتوبر (٢٠٠٠).

الإجرامى^(١). "وكان هؤلاء الشباب من الذين اعتادوا ممارسة العنف بالمدن". "وسيطلق سراحهم بعد ذلك على التوالى فى ١٥ و ١١ و ١٥ ديسمبر مع وضعهم تحت رقابة قضائية^(٢)"

وفى ١٨ مارس (٢٠٠٢) أعلن المدعى العام فى بلاغ رسمى أن حرق المعبد اليهودى لم يكن عملاً لاساميا "يبدو أن سبب الحريق يعود إلى عامل كان تحت تأثير شرب الخمر بصورة مفرطة، وألقى عقب سيجارته" "والتحقيق مستمر لتحديد ما إذا كان الحريق قد تم بصورة إرادية" كما يقول بلاغ المدعى العام^(٣).

فى ١٢ مارس (٢٠٠١) نشر اتحاد طلاب يهود فرنسا بالتعاون مع SOS ضد العنصرية كتاباً بعنوان "المعادون لليهود" Les Antifcujs^(٤). وأحصى هذا الكتاب ٤٥٠ عملاً ضد اليهود بدءاً من الكتابة على الجدران إلى التهديد بالموت، ومن إلقاء الأحجار إلى حرق المعابد أو المدارس اليهودية فى الفترة من ١ سبتمبر (٢٠٠٠) حتى ٣١ نوفمبر (٢٠٠٢). وهى وقائع قابلة للنقاش من حيث تفسيرها وخطورتها.

هكذا يمكن أن نقرأ :

فى الفترة من ٢٢ إلى ٢٨ يناير (٢٠٠١): "قام شخص يقيم فى سكن مجاور لمدرسة يهودية فى Epinay، وهو مستاء من الصخب المنبعث من

١- لوموند ٢٠ أكتوبر (٢٠٠٠).

٢- المصدر ذاته ١٧ ديسمبر (٢٠٠٠).

٣- لوموند ٢٠ مارس (٢٠٠٢).

٤- المعادون لليهود، الكتاب الأبيض للعنف اللاسامى فى فرنسا سبتمبر (٢٠٠٠)،

دار calman-levy

المدرسة، بتهديد الطلاب ومعه بندقية صيد، واقتحم آخر المعبد اليهودى فى شارع cadet رقم ١٠ بالمنطقة التاسعة من باريس، وهو مزود بقطعة من الحديد هدد بها الممارسين للطقوس الدينية والحاخام، الذين تمكنوا من قيادته حتى باب الخروج واقتاد البوليس هذا الشخص وأودعه فى مصحة عقلية " .

وتكثر تهديدات الجيران المترعجين فى المدن. ربما كانت هذه الحادثة عملاً لاساميا حقاً، لكن ربما كان سيسلك بالطريقة ذاتها، غير المقبولة، فى مواجهة أطفال مدرسة غير يهودية، أما بالنسبة لحادثة شارع Cadet فهل كان الأمر يتعلق برجل متخلف عقلياً أم لاسامى أم ربما الاثنين فى وقت واحد؟ فى ٨ مايو (٢٠٠١) تحطم زجاج فى مدرسة يهودية فى سارسيل. وفى ٢٧ سبتمبر (٢٠٠١) وأثناء خروج المتعبدين من معبد فيترى وجد شخص فى شقة مقابلة وكان له مظهر من يصوب على الآخرين.

وكما فى القائمة المنشورة فى مرصد العالم اليهودى فإن أغلب الأعمال المشار إليها فى هذا الكتاب هى رسائل عامة ورسائل الكترونية واتصالات تليفونية لاسامية.

فلتكن الأمور واضحة. لا أريد القول إن الشتائم والإهانات يمكن أن تكون مقبولة. ولا أعرف كيف يمكن للمرء الذى يجمع بين الحسة والنذالة أن يجد سروراً فى إرسال خطاب لاسامى، ناهيك عن عدم التوقيع عليه؟ إن هذا عمل طائش ومثير للغضب مثله تماماً مثل أولئك الذين يصفون من ينتقدون شارون بأنهم جوبلز جديد أو درومون جديد. وإذا كان علينا أن

نحكم على مناخ الحقد تجاه طائفة وفقا لهذه المعايير فلمانه يمكن القول إن "كراهية السود" أو "كراهية العرب" هي أكثر انتشاراً. ليس مقبولاً أن يقال لأحد "يهودى قذر" لكن إذا كان علينا أن نحصى عدد المرات التى يسمع فيها المرء فى فرنسا شتائم "عربى قذر" "زنجى قذر" سنكون بعيداً تماماً عن رقم ثلاثمائة أو أربعمائة فى السنة.

فلنقتصر فقط على الأعمال العنيفة، وسنجد القائمة من الناحية العددية أقل أهمية. وهذا لا يقلل شيئاً من خطورة الوقائع. وحتى إذا لم يكن هناك سوى عمل لاسامى واحد فإنه ما كان ينبغى له أن يوجد. لماذا إذن جرت العادة منذ هذا الوقت على الاستشهاد برقم ثلاثمائة أو أربعمائة والدمج بين الأعمال الأكثر خطورة، كحرق المعابد والاعتداءات الجسدية والأعمال اللاسامية الأخرى الأقل خطورة؟ وسرعان ما سينمحي هذا التمييز بين أعمال صغرى وأعمال خطيرة لصالح اتجاه يسعى لتصوير الوضع بصورة درامية. (١)

وعندما استعادت مجلة الإكسبريس (٢) ومجلة القيم الراهنة، (٣) فى ديسمبر (٢٠٠١)، بأمانة شديدة ملفى المجلس التمثيلي للمؤسسات اليهودية فى فرنسا، وذكرنا الأرقام لم تشر أى منها إلى هذا التمييز،

١- فى كتابه "فرنسا وإسرائيل" كتب إيلى بارنافى (ص ٩٠): "ما يشير دهشتى فى أغلب المدن التى زرتها الفارق بين شعور عام بأزمة خطيرة على المستوى القومى، والتأكيد شبه الطقوسى لقادة الطائفة اليهودية والذي كان يرى "عندنا لا توجد مشاكل، الأمر يسير على مايرام".

٢- مجلة الإكسبريس نوفمبر (٢٠٠١)، "الأرقام السوداء للعداء للسامية".

٣- القيم الراهنة valeurs actuelles عدد ٧ ديسمبر (٢٠٠١) "تحقيق: لماذا يشعر يهود فرنسا بالخوف؟".

واكتفت بالإشارة إلى المعابد المحترقة، دافعة بذلك إلى الاعتقاد بأن هذه الأرقام تتعلق بأعمال عنيفة جداً. وهذه الطريقة ملتوية بشكل كبير ولا تسمح بإعطاء القراء معلومات موثوق بها.

لا يمكن أن نضع على قدم المساواة حرق معبد وإرسال رسالة شتائم. وعلى صعيد شخصي، وبعد نشر مقالة إيلي بارنافي في لوموند ٨ أغسطس (٢٠٠١)، التي يتهمني فيها بأنني أقف على حدود اللاسامية، تلقيت في شهر واحد مئات الرسائل الإلكترونية والعادية مملوءة بالشتائم والإهانات والتهديدات. وهناك شخصيات يهودية عديدة انتقدت بشدة سياسة آريل شارون وتعرضت لتجريم وإهانات وتهديد بالموت للبعض منهم. وليس في هذا مدعاة للشك، فلأن هذه الانتقادات جاءت من أعضاء في الطائفة اليهودية فقد تم النظر إليها بصورة أسوأ من قبل غلاة الموالين لإسرائيل. وتلقوا تهديدات بالموت إذن لأنهم يهود. هل ينبغي أن نعد هذه التهديدات ضمن الأعمال اللاسامية؟ لا أحد من الذين أعدوا الملفين قام بذلك. كيف نفسر هذا الأمر؟

في الحقيقة إن ثلاثمائة أو أربعمائة عمل من هذه النوعية هو بالتأكيد رقم هام، ولا يوجد عمل منها يمكن أن يبرر بأعذار، لكن في مناخ عام من اللا أمن يبدو الرقم أقل أهمية حتى إذا ظلت هذه الأعمال غير مقبولة.

هكذا، أنشأت شركة النقل العام هيكلًا للدعم النفسي لموظفيها الذين تم الاعتداء عليهم: وصل عددهم إلى ألفين في عام (١٩٩٨)، تم الاعتداء عليهم لفظياً وجسدياً، وفي المقدمة رجال التفيتش والأمن والسائقين^(١).

١ - ليبراسيون ١٨ أكتوبر (١٩٩٩).

وأثناء محاكمة أحد سائقي الأتوبيسات فى مارسيليا الذى ادعى وقوع اعتداء عليه حتى يتم نقله على خط سير أقل خطراً، تمت الإشارة إلى وقوع أكثر من ٥٠٠ حادثة (إلقاء حجارة، الخ) ودائماً فى مارسيليا أحصى البوليس، فى شهر يونية فقط من عام (٢٠٠٢)، ١٦٠ حالة سرقة بالإكراه من السيارات^(١).

نحن نعيش، مع الأسف، فى مجتمع لا أمن بدرجة ما، الذى فى طريقة إلى أن يصبح، فضلاً عن ذلك، من الأمور المألوفة. بالنسبة للعام (٢٠٠١) هناك إجمالاً أربعة ملايين جريمة ومخالفة، منها ٩٠٠,٠٠٠ ارتكبها أحداث^(٢). هذا الامر إذن لا يعنى فقط يهود فرنسا حتى إذا كانت: الاعتداءات ذات الطبيعة العنصرية أكثر خطورة من المخالفات الأخرى. وبالتالي فإن أرقام كل الجرائم والجنح، وليس فقط الموجهة ضد اليهود، تشهد ارتفاعاً، ولا يعنى هذا إنكاراً لوجود الأعمال اللاسامية وإنما إلى تخفيف واقع أنها قد تشير إلى انتشار كبير للاسامية^(٣).

أعلن وزير الداخلية، فى أغسطس (٢٠٠٢)، تناقص الأعمال اللاسامية. ولم يصدر أى احتجاج من قبل المنظمات اليهودية إزاء الأرقام المعلنة، والتي انخفضت فيها الأعمال المعادية لليهود من ١١٩ فى إبريل (٢٠٠١) إلى ١٠ فى مايو، و٧ فى يونيه و٢ فى يوليو. وبالنسبة للتهديدات كانت الأرقام هى ٤٤٨ فى إبريل وصلت إلى ٨ فى يوليه^(٤).

١- الفيجارو ٢٠ يوليه (٢٠٠٢).

٢- المرجع ذاته ٢٦ يوليه (٢٠٠٢).

٣- بحكمته المعهودة اعترف تيوكلاين: "نحن نعيش فترة تثير فيها قضايا الأمن معظم السكان والطبقة السياسية. مشكلة انعدام الأمن ليست مشكلة خاصة باليهود."

٤- لوموند ١١-١٢ أغسطس (٢٠٠٢).

وكان هذا الانخفاض مصدر سرور الجميع دون أن يتمكن أحد من تفسيره، برغم أن الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني لم يعرف بعد طريق التسوية. وكانت أجهزة الإعلام الفرنسية تتهم دائما بأنها معادية للإسرائيليين. فهل يعود هذا الانخفاض إلى تغيير الحكومة الفرنسية؟ هل هو عائد للهزة التي حدثت في ٢١ إبريل؟ الإجابة بالنسبة لروجييه كوكيرمان بسيطة: "لدينا الآن وزير للداخلية يأخذ اهتمامات الطائفة اليهودية بصورة أكثر جدية." (١)

إضافة إلى ذلك، من هم أولئك الذين يرتكبون هذه الاعتداءات اللاسامية؟ هل هم من عملاء الشبكات الإسلامية أو من أفراد اليمين المتطرف؟ لا، في أغلب الأوقات يظهر المحققون أن الأمر يتعلق بـ بيلطجية، يتذرعون بأحداث الشرق الأوسط ليمارسوا مواهبهم في التكسير، أو من الشباب الجانحين بالمدن، والذين يعتقدون أنهم قد وجدوا في العداة للسامية دافعا وتوحداً مع الشعب الفلسطيني كطريقة للوجود أمام الآخرين؟ (٢) يظهر المحققون أن الذين تم توقيفهم ليسوا معروفين بأنهم قريبا من الشبكات الإسلامية، وهم كذلك أقل تعاطفا مع الفلسطينيين: هم، في الأغلب، من الجانحين ذوي السوابق المتعددة. وهم بشكل عام من الشباب العاطل عن العمل والمعروف من قبل لدى أقسام البوليس. وهذا لا يجعل أعمالهم أقل خطورة أو قابلة للعفو. ولا يقلل في شيء

١ - Actualité juive عدد ١٦ أكتوبر (٢٠٠٢).

٢ - هاتان الفرضيتان الأخيرتان تبدوان، في اللحظة الراهنة، الأكثر مصداقية وفقا للتحقيقات الجارية في باريس ومونبلييه ومارسيليا واستراسبورغ. مجلة الاكبريس عدد ٢٥ إبريل (٢٠٠٢) "من الذي يهاجم اليهود؟".

المسئولية الجنائية لهؤلاء البلطجية. لكن هذا الأمر ينبغي أن يمنع الخلط الذى يحدث فى العادة بطريقة حمقاء وغير دقيقة بين أولئك الذين يعلنون احترامهم لحقوق الفلسطينيين وبين مرتكبى هذه الأعمال المخالفة. (١)

أضف إلى ذلك أن السيدة لىلى شهيد المقوض العام لمنظمة التحرير الفلسطينية فى باريس قد أدانت هذه الأعمال على موجات إذاعة فرانس أنفو معلنة "نداء إلى كل الذين يريدون تحويل معركة الشعب الفلسطينى إلى معركة ضد الشعب اليهودى أو الدين اليهودى" وهذه الاعتداءات "غير مقبولة" وتمثل "أكبر جريمة يمكن أن يرتكبها المرء ضد الفلسطينيين". (٢)

وفضلا عن ذلك ليس من الدقيق القول إن السلطات العامة لم تقم بشئ. وبين ٣١ مارس (٢٠٠٢) وبداية إبريل تم توقيف ٣٩ شخصا لنيلهم من الأشخاص والممتلكات الخاصة بالطائفة اليهودية. وتم إيداع عشرة منهم السجن. (٣) كما قام النائب العام للجمهورية بفتح تحقيق فورى عندما تقدمت منظمة ليكرا بشكوى لسماعها هتاف "الموت لليهود" أثناء مظاهرة موالية للفلسطينيين فى ٧ أكتوبر (٢٠٠٠). كما عوقب كذلك الذين حاولوا إشعال النار فى معبد يهودى بمدينة مونبلييه بستانين وثلاث سنوات سجن.

١- كما أكد برنارد هنرى ليفى على أن : "المعابد اليهودية تمثل رمزا لشئ ما يتجاوز العداء للسامية. لأن هؤلاء المخربين أنفسهم سيهجمون غدا على بلدية، جامعة، ليسيه، مكتبة، إستاد رياضى، من يعرف" الفيجارو ١١ إبريل (٢٠٠٢).

٢- لوموند ٣ إبريل (٢٠٠٢).

٣- المرجع ذاته ١٠ إبريل (٢٠٠٢).

وابتداء من رئيس الجمهورية إلى رئيس الوزراء وأعضاء الحكومة، إلى البرلمانين والصحفيين ومسؤولي الجمعيات، أدانوا عن حق الأعمال اللاسامية^(١).

يقول وليام جولدنادل، ولا أعرف كيف تجرأ على ذلك، : "تنطوى الطائفة اليهودية على نفسها لأن الجمهورية ونخبها قد تركوها تسقط".^(٢) وهو أمر يحيل إلى عملية منظمة تستهدف تصوير الذات على أنها ضحية.

فى ٣ يناير (٢٠٠٣) جرح الحاخام جابريل فارحى بعد تلقيه طعنات بسكين فى بطنه وهو داخل المعبد اليهودى. والذى اعتدى عليه، كان مقنعا بخوذة وقد فر هارباً وهو يصيح بالعربية "الله أكبر". وكان الحاخام يتنمى إلى الحركة اليهودية الليبرالية بفرنسا ويدعو للحوار الإسرائيلى-الفلسطينى. وإذا كان من المناصرين لشارون فإن هذا لم يكن ليبر فى شئى العدوان عليه، وكانت تهديدات تشير إلى الجهاد قد وجهت إليه، وتلقى صباح اليوم ذاته رسالة تشير إلى : "سنذبح الحاخام جابريل فارحى وسنثار لدم إخوتنا الفلسطينيين".^(٣) وأعربت كل الشخصيات السياسية وفى مقدمتها رئيس الدولة عن تأثرها.

١- لاحظ جان دانييل عن حق : "كيف نفسر سلسلة الاعتداءات، العنف، تدنيس المقابر بغرض لاسامى التى وقعت فى فرنسا؟ بكل بساطة لأن هناك عدد ١ من الشبان المهاجرين المسلمين العاطلين عن العمل، والانحراف كامن فيهم والذين لا يتخلون عن المخدرات والجريمة إلا لكى يتوجهوا لعمليات تخريب تستند إلى ذريعة سياسية يستمدونها من القضية الفلسطينية. وما ينهى أن نؤكد عليه أن رئيس الدولة ورئيس الوزراء وكل أعضاء الحكومة والمعارضة وكل السلطات الدينية (بما فيها الإسلامية) والجامعيين قد أدانوا بشدة أعمال العنف العنصرية هذه ورفضوها. وفى فرنسا التى تمجولت فى كل أقاليمها لإعطاء محاضرات لا يوجد أدنى مظاهرة، ولو حتى سرية تحمل أدنى مساندة لهؤلاء الشباب المخربين" التوفيل أوبسرافاتور ٤ يولية (٢٠٠٢)، الفرنسيون هل هم لاساميون؟

٢- مجلة لوبوان ٣ يناير (٢٠٠٣).

٣- لوموند ٥-٦ يناير (٢٠٠٣).

وكان الاتحاد اليهودى الفرنسى من أجل السلام يميل أكثر، أمام الطريقة المستخدمة فى الاعتداء، إلى رؤية ظل ما لرابطة الدفاع اليهودية أو جماعة البيتار Betar التى تهدد دائما قادتها، وهو ما أدانه جان كاهن رئيس المجمع الدينى المركزى مشيراً إلى هذا التفسير بوصفه "احتقاراً للوقائع".^(١) وسيقيم الحاخام بعد ذلك صلاة يوم ٨ يناير حضرها أربعة وزراء وأربعة رؤساء وزراء سابقين^(٢). ولم نر مثل هذه التعبئة فيما يتعلق بالاعتداءات العنصرية المعادية للمغاربة والتى أفضت إلى حالات موت، أو فيما يتعلق بمفوض الشرطة الذى أصيب إصابة أكثر خطورة أثناء المظاهرة الموالية لإسرائيل فى ٧ إبريل (٢٠٠٢)، وكذلك عندما حدث فى الإِسبوع ذاته حيث طعنت معلمة يسكن فى مؤسسة مدرسية. وبعد ذلك أشارت الصحافة إلى أن "مصادر قريبة من الملف"، الخاص بالحاخام فارحى، تركت شكوكاً حول حقيقة الاعتداء. فالجرح وتمزيق الشيايب تبدو غير متوافقة مع هذا السيناريو^(٣).

فى يناير (٢٠٠٣) طعن طالب معلمة بشكل خطير فى ليسيه مهنى، ونقلت إلى المستشفى، ولم تكن فى حالة تسمح بالتعليق على الحادث فى اليوم ذاته كما فعل الحاخام فارحى. ولم يكن هناك عرض من الوزراء ورؤساء الوزراء السابقين للاطمئنان عليها.

يمكن للمرء مع ذلك الاعتقاد بأن المدرسة مقدسة، وأن أمن المعلمين والأطفال قضية تستحق الانتباه، وأن هذا الحادث هو أيضاً، على الأقل، خطير مثلما حدث طعن حاخام فى معبده. ولم يكن هذا هو رد فعل

١- الفيجارو ٧ يناير (٢٠٠٣).

٢- لوموند ١٠ يناير (٢٠٠٣).

٣- مجلة ماريان ١٠ يناير (٢٠٠٣)، والفيجارو ٢٢ يناير (٢٠٠٣).

مختلف المسئولين السياسيين الفرنسيين. وهذا في حد ذاته يمكن أن يبدو مذهباً. غير أن هذا الاختلاف في رد الفعل لم يحل دون اتهام بعض الدعائين السلطات بالسلية أمام اللاسامية.

لقد أبدت شخصيات يهودية عديدة في فرنسا قلقها من هذه الصياغة الدرامية المفرطة في إدانة صعود اللاسامية في فرنسا. ويذكر جان فريدمان بأن "وجود أقليات عنصرية ولاسامية لم يعن أبداً أن البلد الذي نعيش فيه هو عنصري أو لاسامي". "ونموذج فرنسا يسرهن على ذلك. فمن هو هذا البلد في العالم الذي كان على حافة حرب أهلية من أجل الدفاع عن شرف ضابط يهودي بري". (١)

ويسير تيوكلاين في الاتجاه ذاته: تستحق الأعمال الإجرامية وتصرفات البلطجية المتهورين أن تعامل كلها من قبل العدالة التي ستمارس دورها، وهو ما نأمله جميعاً وما أتمناه. إن هذا أمر مشروع مثلما هو ضروري. هل

١- "في شرف فرنسا" لوموند ١٠ إبريل (٢٠٠١). يستشهد جان فريدمان بأسماء مطربين وفلاسفة يهود من بين الأكثر شعبية في فرنسا، وأضاف: "هل يمكن أن نتحدث عن بلد لاسامي عندما تكون المرأة الأكثر احتراماً هي سيمون فيل، وإذا كانت المرأة الأكثر شعبية هي آن سنكلير؟ نحن جميعاً أبناء الجمهورية، وعلى الجمهورية أن تساعد ونحمي أبناءها أيا كانوا وسيكون من الكارثي أن يطلب اليهود حماية خاصة تحت ادعاء أنهم أقلية خاصة" وانتفض الحاخام ذاته في ٧ إبريل (٢٠٠١) على موجات راديو شالوم ضد من يقولون إن فرنسا لاسامية "هذا أمر غير صحيح وأنا أرفضه"

وسيلذهب جان ليدرمان إلى حد القول "أحد أكثر العوامل خطورة في انبعاث لاسامية فعلية في فرنسا، في الغد، هو تزييف القيم الكبرى لليهودية الدياسبورية التي لوئتها سياسة شارون بدعم المثقفين الذين يؤيدونها" "شارون يزيّف اليهودية" ليبراسيون ١٤٠١٣ ١ إبريل (٢٠٠٢).

ينبغي لهذا أن نطالب بعقوبات أكثر لأنها أعمال تنال من أفراد وممتلكات طائفتنا؟ لا أعتقد ذلك، نحن مواطنون مثل الآخرين^(١).

بال تأكيد يدرك المرء أن هناك حساسية خاصة إزاء الأعمال اللاسامية. لكن لا ينبغي لبعض ممثلي الطائفة اليهودية أن يعطوا الانطباع، بتركيزهم المفرط، بأن انعدام الأمن والعنصرية يكونان غير محتملين فقط عندما يتعلق الأمر بهم. فأعمال الإجرام ينبغي أن تدان أيا كان مرتكبوها وأيا كان ضحاياها. وفي الواقع، لا يصمد هذا السياق الذي تقع فيه هذه الأعمال وهو سياق فرنسا لاسامية أمام امتحان الواقع. وقد يكرر غلاة الموالين لإسرائيل هذه المزاعم مرات عديدة لكنها لا تتطابق مع الواقع.

تستند الباحثة في الميدان السياسى نونامير Nonna Mayer إلى طريقة علمية تعتمد على الوقائع وليس المسلمات. وقادها هذا إلى نظرة نسبية لمفاهيم "كراهية اليهود" أو "فرنسا لاسامية" ومع ذلك فإن أعمالها لم تحظ باهتمام مثلما حظى كتاب تاجيف الدعائى. وإذا كانت قد أكدت أن أرقام الأعمال اللاسامية "مقلقة" فإنها كذبت فرضية وجود عنصرية نوعية معادية لليهود.

"فى عام (١٩٤٦) كان أكثر قليلا من ثلث المستجوبين فى الاستطلاع يعتبرون أن الفرنسى من أصل يهودى هو أيضا فرنسى مثل أى فرنسى

= ومن جانبها كتبت اشثيربناسا: "وهناك مخاطرة أيضا تكمن فى إعطاء الانطباع بأن هؤلاء ليسوا فرنسيين حقيقيين وأنه عند مواجهتهم أدنى مشكلة يتوجهون إلى مايمونه "بلدهم". والفرنسيون الذين أحرقت سياراتهم بالمشات فى ٣١ ديسمبر (٢٠٠١) هل سيفادرون أيضا فرنسا؟ وأكدت أن المؤسسات الطائفية وبعض مشقفيها المضويين هم الذين سيسوا اللاسامية "ويدفعون، بحذرهم المتطرف، السلطات الإسرائيلية لإطلاق مثل هذه التصريحات" غير المرحب بها كثيرا فى السياق الراهن. اشثير بناسا، "قانون الجمهورية هو القانون" ليبراسيون ١١ يناير (٢٠٠٢).

١- بيان يهودى حر.

آخر". وفي خريف (٢٠٠٠) تجاوزت النسبة رقم الثلاثين. في عام (١٩٦٦) كان نصف الفرنسيين معادين لفكرة أن رئيس الدولة يمكن أن يكون يهودياً. اليوم النسبة أقل من واحد من ضمن كل عشرة. باختصار اللاسامية في حالة تراجع باستثناء تحفظين. استمرار الاكليشيات التي تربط بين اليهود والمال، وازدياد عدد الذين ينسبون إليهم نفوذاً مفرطاً. وبين عام (١٩٨٨) و(١٩٩١) كان هناك فرنسي من كل خمسة تقريباً يرى أن اليهود "لديهم سلطة أكبر في فرنسا"، وهي النسخة الناعمة من أسطورة بروتوكولات حكماء صهيون، هذا المنتج الشهير المزور من قبل بوليس القيصر الروسي. في (١٩٩٩) وصلت النسبة إلى ٣١ وفي عام (٢٠٠٠) إلى ٣٤. وبالنظر إلى هذه الأرقام عن قرب، نجد مع ذلك أن التواء الصلبة للمقتنعين بالعداء للسامية ظلت ثابتة في عام (٢٠٠٠) كما في عام (١٩٨٨)، فقط مع ١٠ بالمائة من الأشخاص المستجوبين في الاستطلاع يقولون إنهم على اتفاق تماماً مع فكرة أن اليهود يملكون كثيراً من السلطة في العادة. (١)

وتشير نتائج استطلاع رأى أعدته مؤسسة Sofres عن "الشباب وصورة اليهود في فرنسا" في الفترة من ٢٨ يناير إلى ١ فبراير (٢٠٠٢) بطلب من اتحاد طلاب يهود فرنسا ومنظمة SOS ضد العنصرية، إلى أن "صدى العداء للسامية ضعيف" لدى الشباب. (٢) وتعتبر الأغلبية العظمى من الشباب المستجوبين أن اليهود "ليس لديهم كثيراً من النفوذ في فرنسا"،

١- نوآ ماير، "فرنسا ليست معادية للسامية" لوموند ١٤ إبريل (٢٠٠٢).

٢- لوموند، ١٣ مارس (٢٠٠٢)، "الشباب بين ١٥-٢٤ سنة يرفضون بشكل كبير الأعمال اللاسامية"، انظر الاستطلاع كاملاً في كتاب "المعادون لليهود" مرجع سبق ذكره.

سواء في المجال الاقتصادي والمالي (٧٧) بالمائة من المستجوبين) وفي الإعلام (٧٩) بالمائة وفي الوسط السياسي (٨٠) بالمائة، وأكد ٨٠ بالمائة من الشباب المستجوبين أنهم لا يرون مشاكل في الحياة مع يهودي أو يهودية.

وكان الرفض كبيراً للأعمال اللاسامية: ٨٧ بالمائة من المستجوبين يرون أن هذه الأعمال "مشينة". ويقولون إن على الدولة أن تعاقب بشدة المذنبين. "ويرى ٧٨ بالمائة أن كتابة شعارات معادية للسامية على الجدران أمر "خطير جداً"، وكذلك بالنسبة لـ ٧٥ بالمائة فيما يتعلق بإتلاف مكان خاص باليهود مثل المعابد، وذلك في مقابل ٥٦ بالمائة عندما يكون الأمر متعلقاً بالاماكن العامة غير اليهودية". ويعكس هذا الاختلاف تزايد الوعي بأن عملاً لاسامياً لا يشكل مجرد عمل من أعمال الانحراف التقليدي "كما يرى م. ميشيه مدير مؤسسة Sofres. بالنسبة للشباب فإن " لليهود الحق في ممارسة عاداتهم دون أن يعرضهم ذلك لمشاحنات " (٨٨) بالمائة. ولم يتجاوز نسبة الذين يرون أن التفرد بلبس القلنسوة اليهودية يعرض اليهود لردود فعل عنيفة^(١)، حدود ١٧ بالمائة.

ويروي الفيلسوف إيمانويل ليفنياس، أنه عندما كان طفلاً صغيراً في قريته ترانسيلفانيا، أن والده عندما سمع بقضية دريفوس قال له: "يا ابني إن البلد الذي لا يتردد في الانقسام، وشجب جيشه لكى يعيد لضابط يهودي صغير شرفه الجريح، هو بلد علينا أن نذهب إليه بسرعة. فحيث نحن الآن لا يمكننا أبداً أن نظفر بشخص مثل إميل زولا أو أناطول فرانس ولا كولونيل خصوصاً مثل بيكار".^(٢)

١- المرجع ذاته

٢- جان دانييل، "الفرنسيون، هل هم لاساميون" النوفيل أو برفاتور، ٤ يولييه (٢٠٠٢).

يحظى اليهود بالاحترام بصفة عامة، فالكثير منهم قد نجح مهنيًا، وفي كل الأحوال لم يتعرض أحد منهم لمصاعب مهنية بسبب يهوديته، وكانوا مندمجين اجتماعيا ولهم تمثيل جيد في الوسط السياسى.

وقد قدمت الطائفة اليهودية جماعة كبيرة من البرلمانيين والوزراء ودون أن يطرح ذلك مشكلة. ولم يكن هذا هو حال الطوائف الأخرى.

وهكذا فإن من بين مجموع ٨٤٢٤ مرشحاً للانتخابات التشريعية فى ١٦ و٩ يونيه (٢٠٠٢) لم يكن هناك سوى ١٢٣ مرشحاً من أصل مغربى أو إفريقى. وأكثر من ذلك فإن هذا الرقم الضعيف يشكل وضعاً إيجابياً من منظور أن هذا الرقم لم يتم الوصول إليه من قبل (١). وقدم الحزب الاشتراكى، على سبيل المثال، ثلاثة مرشحين من أبناء المهاجرين فى المنطقة السابعة بـ Haute-de-seine، وفى المنطقة الخامسة عشر بباريس، وفى مونترى. ولم يكن لأحد منهم فرصة النجاح، غير أن ذلك يعتبر أفضل مما جرى فى (١٩٩٧)، وأفضل مما يجرى فى الأحزاب الأخرى التقليدية.

فى الحقيقة، وبدرجة أكثر تحديداً بعد ١١ سبتمبر (٢٠٠١) فإن المسلمين والعرب هم الذين يتم استهدافهم ويتعرضون لعنف لفظى أو جسدى.

ونشأ مناخ أصبح على المسلمين أن يبرروا فى ظله أنهم لا يساندون الإرهاب. وبالتأكيد، ومع استثناءات محدودة، تم رفض خطاب حرب الحضارات. لكن عددا من المؤلفين، فى أغلب الأحيان، من الموالين جداً لإسرائيل - يتحدثون عن الفاشية الخضراء، ويتساءلون حول غياب الديمقراطية والحدثة فى البلاد الإسلامية، ويخلصون إلى أن التمييز بين

١- لوموند ٩-١٠ يونيه (٢٠٠٢) "هل صعدت الأحزاب بعض المرشحين من المهاجرين والسود"

معتدلين وراديكاليين قلما كان له معنى. هناك إرادة فى تحقيق، بل وأبلسة، المجتمعات العربية والمسلمة. ومع عدم إعفاء هذه الدول من أى عيوب تقع فيها، لماذا هذا الخلط؟ ولماذا الحديث كما لو كانت تشكل دولا متجانسة؟

وفيما يتعلق بالاندماج فلا يزال الطريق طويلاً. ويؤكد تقرير (٢٠٠١) للجنة القومية الاستشارية لحقوق الإنسان أن الطائفة المغربية هي الضحية الأولى من الناحية العددية للعنف والتهديد العنصرى فى فرنسا. وهو ما يؤكد عليه جان كريستوف أيتاس واستير بنباسا:

"لا يعاني اليهود فى فرنسا، على غرار العرب، من أى إبعاد، والحال أنه منذ شهور، بل سنوات، وأجهزة الإعلام اليهودية تجعل من السدء للسامية وأحداث "الشوا" قضايا تجنيدية لنشاطهم، وجاءت التآزمات الأخيرة إذن فى مناخ من التوتر غير العادى، عندما صار كل شئ مؤهلاً فى اتجاه تبلور هوس فعلى. فلتتوقف عن اللعب بالنار، واستخلاص عداء للسامية فى كل شئ. فلنر من أين يأتى الخطر الحقيقى عندما يكون هناك مثل هذا الخطر؟" (١)

يتعلق التمييز العنصرى بالسود أو بالشباب الفرنسى من أصول عربية مسلمة، أكثر من الشباب اليهودى فيما يخص فرص العمل والسكن. فكم من السود يتقدمون للحصول على عمل أو سكن فيتم رفضهم فى حين أن الاتصال التليفونى من أجل العمل تم بصورة جيدة؟ وهناك عدد من الشباب أدركوا أن مجرد اسمهم يمثل عائقا ليس من السهل تجاوزه من أجل الحصول على عمل أو شقة.

١- جان كريستوف أيتاس واستير بنباسا "نحن لسنا ضحايا" لوموند ١٨ ديسمبر (٢٠٠١).

فلنأخذ عدة أمثلة، بالمصادفة، مما تنشره الصحف.

فى ٧ مايو (٢٠٠٢) أكد إمام بمدينة نيس، عمره ٤٣ سنة وله سبعة أطفال، أنه ضرب من قبل الشرطة لأنه أوقف سيارته فى مكان خطأ.^(١)

وفى ٥ إبريل قام أفراد ملثمون بالاعتداء على شابين من أبناء المهاجرين، ٢٤ سنة و ٣٠ سنة، أثناء خروجهما من منزلهما. أحدهما أصيب فى قدمه والآخر فى ظهره. وساد ذعر حقيقى فى كورسيكا بعد أن أعتدى على فتاة من قبل مغربى فيما يبدو، وتوفيت أثر أزمة قلبية بعد أن قدمت شكوى.^(٢) فهل رأينا فى هذا الشأن حملة ضد الخلط غير المقبول ضد العرب فى فرنسا؟ فى يناير (٢٠٠٣) جرت سلسلة من الاعتداءات العنصرية المعادية للمغاربة فى كورسيكا فى حالة من اللامبالاة العامة، ومع تفهم ضمنى من "الأوساط القومية"^(٣)

وفى ٥ أكتوبر قام سائق، ٤٥ سنة، بإطلاق النار على زبائن مقهىين يرتادهما المغاربة وقتل شخصا وأصاب آخرين^(٤). لقد تجاوزنا هنا مرحلة الرسائل الالكترونية والرسائل التى تمتلئ بالشتائم.

فى ١٦ مارس احترق مسجد فى l'ain. فقد اقتحمت عربة مسروقة باب المسجد وأشعلت النيران فى مدخله. وفى ٢٦ إبريل ألقى قنبلة مولوتوف على منزل عبد الرحيم برقواى عميد مسجد فى Valdegour بمدينة نيم. كما أكد المستولون المسلمون أنهم تلقوا العديد من التهديدات

١- لوموند ٧ أغسطس (٢٠٠٢).

٢- JDD ٧ أغسطس (٢٠٠٢).

٣- لوموند ١٩-٢٠ يناير (٢٠٠٣).

٤- هذا العمل سيدان على الفور ويكلمات حاسمة من قبل رئيس الوزراء ووزير

بالموت، وفي Perpignan أرسل صندوق مفخخ إلى موقع إسلامي للعبادة. ورسمت صلبان معقوفة على جدران مسجد بالقرب من مدينة ليل. وكذلك أقيمت قبلة مولوتوف على صالة للصلاة في Escaudain بالقرب من Valenciennes. وعلى نقیض الطائفة اليهودية، وبدون جهاز تمثیلی للطائفة المسلمة يمكنه تجميع هذه الاعتداءات، فإن القائمة غير مؤكدة. ومن المحتمل أنها لم تقدر بشكل دقيق، كما لاحظ عن حق اكزافييه ترنسيان "لقد أظهرت الصحف الإقليمية صدى لهذه الأحداث بينما الصحف القومية لم تشر إليها إلا نادراً" (١)

في ليل ١١ و١٢ يناير (٢٠٠٣) تعرض مسجدان لعمليات تخريب في مدينة نيم. وخصص لهذا الحدث ستة أسطر في صحيفة لوموند (٢). ترى ما هي المساحة التي كان سيحتلها هذا الحدث لو كان الأمر يتعلق بمعبد يهودي؟ (٣)

في ٢٦ يناير (٢٠٠٣) نشر الموقع المتطرف على الإنترنت "Resistance 5 eme-colonne.org" بياناً يعرب فيه عن سعادته للأعمال التي تمت ضد مساجد ومؤسسات دينية في ليل وأفينيون ومولوز ونانت وبوردو وليون وتولوز ونانسي واستراسبورغ وباريس، ويأسف لأن أجهزة الإعلام رأت أنه من الصائب التكتّم على هذه "الأعمال الوطنية"، ويدعو الفرنسيين إلى تنويع هذه "الأعمال الفظة" ضد مصالح المسلمين في فرنسا. ولم يثر هذا البيان رد فعل خاص، ولم تشر إليه الصحافة.

١- اكزافييه ترنسيان "خطر الخوف من الاسلام" لوموند ١٢ و١٣ مايو (٢٠٠٢).

٢- لوموند ١٤ يناير (٢٠٠٣).

٣- لوبوان ٥ إبريل (٢٠٠٢).

من جهة أخرى، إذا كانت الأعمال اللاسامية قد تم إدانتها، فهناك أيضا العنف الذى يرتكبه بعض المتطرفين اليهود المشحونين بخطاب عن انبعاث اللاسامية من جديد وعن "ليلة كريستال" جديدة. ويستخدمون العنف بصورة منتظمة، لأن هذا فى نظرهم نوع من الدفاع عن النفس.

لقد صرح بيير أندريا-تاجيف عشية مظاهرة المجلس التمثيلى للمنظمات اليهودية بفرنسا فى ٧ ابريل (٢٠٠٢): "حتى الآن فإن الاعتداءات تأتى من طرف واحد، وقامت المنظمات اليهودية بتهدة أفرادها، لكن هذا الأمر لن يدوم طويلاً"^(١) وأثبتت الأحداث بعد ذلك صحة كلامه.

فى أعقاب المظاهرة التى نظمها المجلس التمثيلى ضد العداء للسامية ولساندة شعب إسرائيل فى ٧ ابريل قام متطرفون يهود بملاحقة العرب والسود الذين تواجدوا لسوء حظهم بالقرب من ساحة الباستيل أثناء المظاهرة.

نشر ما يقرب من مائتى متظاهر من الشباب الذين يرفعون شعارات رابطة الدفاع اليهودية، وجماعة البيطار (*) (الرعب فى المكان. كانوا معبأين وعلى درجة كبيرة من العنف، ومسلحين بهراوات البيسبول، واستهدفوا بشكل خاص المغاربة الذين كانوا يمرون فى هذا الوقت.

١- لوبوان ٥ ابريل (٢٠٠٢).

* بيطار: اختصار للعبارة العبرية "بريت ترومبلدور" أى حلف ترومبلدور، وهو تنظيم شبابى صهيونى تأسس فى بولندا عام ١٩٢٣، وكان هدفه اعداد أعضائه للحياة فى فلسطين بتدريبهم على العمل الزراعى وتعليمهم مع التركيز على العبرية والتدريب العسكرى، وعلى تلقينهم أيدولوجية شديدة التأثير بالأيديولوجيات الفاشية التى كانت سائدة فى أوروبا آنذاك، وفى هذا التنظيم تشكلت الكوادر الأساسية لمنظمة الأرجون الارهابية، وقد أنضمت اليها العناصر الأكثر حماسة من الصهيونيين فى كل المراكز اليهودية فى أوروبا الوسطى حتى بلغ أعضاؤها عشية الحرب العالمية الثانية ألف شاب. ويوصفهم يمثلون نواة جيش يهودى للمستقبل، كان اعضاء التنظيم يقسمون اليمين أن يكسروا حياتهم لاعادة احياء الدولة العبرية، ويسيطرون بخطوات عسكرية فى شوارع الاحياء اليهودية - المترجم.

"ضربات بالخنوذة، ركلات، كلمات، ضربات بأدوات حديدية، غاز مسيل للدموع"، "جنس قذر" "سنقضى عليك يا عرفات". وكان صفار الكوماندور العنصريين على درجة كبيرة من العنف ومن كان يقف أمامهم يتعرض للإيذاء. (١)

وعندما أراد أحد مفوضي الشرطة إسعاف رجل ملقى على الأرض بعد أن تعرض لاعتداء من قبل عدة معتدين، تلقى طعنة فى البطن، ولم يتم العثور على الجانى حتى هذه اللحظة، ولم يتقل رؤساء الوزراء السابقين للاطمئنان على صحة موظف فى جهاز الشرطة تعرض لاعتداء خطير أثناء تأدية وظائفه. (٢)

وكان الصحفيون من بين المستهدفين أيضا، لاسيما أولئك الذين يحملون كاميرا تصوير أو كاميرا عادية. وقد تعرض مصور بالتليفزيون الاسبانى، القناة الثالثة، إلى ضرب مبرح وتعرض مصور من جوادولوب guadeloupeen إلى إهانات عنصرية* وفقا لـ(محققون بدون حدود) الذين قرروا رفع دعوى إلى المدعى العام بباريس، كما تم دفع صحفى بجريدة ليبراسيون أيضا. (٣) ترى ماذا كان مسار الأمور لو أن وقائع مماثلة لتلك التى جرت قد حدثت أثناء مظاهرة موالية للفلسطينيين؟!

قام مواطن برفع شكوى بعد أن تم تفتيشه من قبل حرس المظاهرة الخاص بينما كان يريد عبور ساحة الباستيل ليعود إلى منزله. واتهم باللاسامية لأنه رفض أن يقوموا بتفتيشه، وعندما توجه للبوليس لإدانة هذه الممارسة غير الشرعية أجيب عليه بالقول: "لست الوحيد الذى يشتكى لكننا لا نريد المزيد من الإثارة" (٤).

١- أدان المجلس التمثيلى للمنظمات اليهودية بفرنسا (كريف) فى بيان "باكبر قدر من الحزم العدوان الذى لا يمكن وصفه على مفوض الشرطة فى باريس ويتمنى القاء القبض على المذنب ومعاقبته أشد العقاب.

٢- ليبراسيون ٨ أبريل (٢٠٠٢).

٣- المرجع ذاته ٩ أبريل (٢٠٠٢) "فى نهاية السير الاعتقالات"

٤- ليبراسيون ٩ أبريل (٢٠٠٢).

هل من الطبيعي أن تحتل مليشيات محل سلطات البوليس، وأن يعترف البوليس بعجزه أمام هذه الظاهرة؟ لقد ارتكبت سلسلة من الاعتداءات والتهديدات إزاء أولئك الذين لا يشتركون فى الفكر مع جماعات الصدمة الموالية للإسرائيليين. وهنا أيضا لا نجد أحداً قام بإجراء إحصاء منظم، على غرار ما تم بشأن الأعمال اللاسامية.

لقد رأينا أن الموالين للإسرائيليين قد اتهموا، عن خطأ، المناضلين الموالين للفلسطينيين بأنهم مصدر الاعتداءات اللاسامية، مع أن الذين قاموا بهذه الأعمال لا توجد أى رابطة لهم مع المنظمات الموالية للفلسطينيين. على العكس فإن المتطرفين الذين هاجموا المنظمات أو المظاهرات التى يرون أنها موالية بشكل علنى جداً للفلسطينيين، هم أنفسهم الذين يلتزمون بالدفاع غير المشروط عن الحكومة الإسرائيلية. إنهم حقا غلابة الموالين لإسرائيل الذين يجلبون صراع الشرق الأوسط إلى فرنسا. لقد تلقى ريشار فاجمان، رئيس الاتحاد اليهودى الفرنسى من أجل السلام، تهديدات بالموت لأنه انتقد شارون وساند فكرة إنشاء دولة فلسطينية. وكانت شخصيات يهودية من الدرجة الأولى تعرضت للمعاملة نفسها ومن أجل الأسباب ذاتها.

فى ١٥ إبريل (٢٠٠٢) تعرض بعض المتظاهرين الموالين للفلسطينيين لضربات مطرقة وقذف أحجار وقنبلة مسيلة للدموع والضرب حتى باللوحات المعدنية لإشارات المرور.

وفى اليوم ذاته تم إيقاف اجتماع ينظمه أصدقاء لوموند ديبلوماتيك حول الشرق الأوسط فى ظل صرخات "إسرائيل ستنتصر" (١)

فى ١٩ إبريل قام شخص مسلح بتخريب معرض صور كان موضوعه

١- ليبراسيون ١٩ فبراير (٢٠٠٢)، متطرفون يهود، الاعتداءات مستمرة

"سلام عادل بين الإسرائيليين والفلسطينيين". وقبل ذلك تم الاعتداء على أفراد تجمع للتبرع بالدم لصالح الفلسطينيين في محطة مترو استراسبورغ سان دنى. (١)

وفي ٢١ مارس قامت جماعة كوموندلر مكونة من اثني عشر شخصا باقتحام مكتبة "الرغبة في القراءة" بإفري، وتخریب الكتب والأثاث والاعتداء على الأشخاص الحاضرين تاركين قبل رحيلهم كلمة هدف بالعربية على واجهة المكتبة. وكانت المكتبة تبیع كتباً عامة وهى أيضا مكتبة مناضلة وكانت تضم مقراً فرعياً لجمعية "فلسطينيو فرنسا" (٢) بإقليم باريس. وفى إبريل (٢٠٠٢) تعرض أربعة طلاب كانوا يحاولون نزع ملصق على الحائط مناصر لإسرائيل إلى الضرب بالهراوات والقطع الحديدية من قبل جماعة تاجار (٣) Tagar

وفى فترة لا تتجاوز العام والنصف تعرضت مقار جمعية المراب MRAP، أربع مرات للتخريب، ورسمت على حوائطها شعارات "المراب نازية" (٤). واعتدى أيضا على جوزيه بوفيه وهو عائد من رام الله حيث ذهب لمساندة عرفات. وكان بعض المتعاطفين فى استقباله. وتصف صحيفة ليبراسيون ما حدث "صرخ شخص كان مندسا وسط الجمهور" الآن كفى" ثم اندفع ثلاثون شخصا، أكثرهم من الشباب ومن ذوى البنية القوية، ليهجموا بعنف على الأشخاص الحاضرين وكانوا يهتفون "عرفات قاتل" و "إسرائيل ستتصر". شعارات ضد شعارات. وتعرض بعض المناضلين

١- ليبراسيون ٢٤ إبريل (٢٠٠٢).

٢- ٢٦ Livres Hebdo إبريل (٢٠٠٢). 'إخرى: 'الرغبة في القراءة' خربت'

٣- ليبراسيون ٢٧-٢٨ إبريل (٢٠٠٢). تاجار: فرع الطلاب بمنظمة البتار - المترجم

٤- نظرة Regard إبريل (٢٠٠٢)، 'العداء للسامية، حقيقة أم كذب'

الناصرين للفلسطينيين للضرب المبرح بقطع من الخشب وبخوذات رأس سافقي الموتوسيكل وباللكمات وبالأرجل. وروت امرأة "كانوا يضربونا ويشتموننا ويشيرون إلينا بأنهم سيذبحونا. كنا نشعر بالرعب". (١)

كذلك خُربَت مقر راديو المتوسط وهو إذاعة خاصة بالجالية العربية والمسلمة وكتبت على الحوائط كلمات "عاشت إسرائيل" (٢). وروى مسئولون في أحد فروع الاتحاد اليهودي الفرنسي للسلام، والذي يناضل من أجل السلام في الشرق الأوسط والاعتراف بدولة فلسطينية، أنهم تلقوا "مكالمات تليفونية، بعضها مجهول الهوية، تنذرهم بالموت، والشتائم المنحطة التي تناسب بيت دعارة ريفي، واللعنات في العالم الآخر..." (٣)

وتروى آن سيندجيه، ابنة يهودي مبعد، : "على مدار نصف قرن، هل شعرت يوماً بالعداء للسامية في فرنسا؟ لم يحدث هذا عندما كنت صغيرة أثناء خروجي من المعبد اليهودي الذي كنت أتردد عليه لتلقى تربية دينية، ولم يحدث ذلك في Berk-Plage حيث كان L'OSE يجمعون الأطفال الذين يحتاجون للتنزه، ولم يحدث ذلك في Ariege حيث كنا نغنى Hanoua R' Palmach، ولم يحدث ذلك في المقاهي في فرنسا وإسبانيا، حيث لم يكن من النادر أن نستمع إلى النكات المألوفة والسيئة عن اليهود وأهالي منطقة Auvergne، ولم يحدث ذلك في الضواحي السيئة المملوءة بإرهابيين جدد والذين كنت أعرب لهم عن هويتي دون أن أعرف أبداً طريق الخوف أو العار. هل شعرت بتهديد لشخصي أو لهويتي

١- ليبراسيون، ٤ إبريل (٢٠٠٢)، ضد اللاسامية، كفاح مضطرب"

٢- صحيفة الباريسي ٧ ديسمبر (٢٠٠٢).

٣- Point d'information Palestine رقم ١٩٥، ٢٨ مارس (٢٠٠٢).

الثقافية أو جسدى طوال هذه السنوات؟ والنتيجة على هذا التساؤل بالطبع نعم، لكن من قبل يهود!

وحدث فى فترة مؤخرة أيضا، لأننى التحقت بمنظمات تدعم القضية الفلسطينية، ووقعت على بيانات من أجل الاعتراف بالحقوق المشروعة لهم، وطالبت الجمهورية الفرنسية مثل يهود آخرين بالتدخل بصورة جدية فى صراع الشرق الأوسط، أننى اتهمت باللاسامية والجحود وتلقيت تهديدات بالانتقام... (١)

وأثناء مظاهرة ٧ إبريل قام المتطرفون اليهود، عدا الشائم المعتادة لهم، بالهجوم على مركب "حركة السلام الآن" اليهودية، وعلى جماعة برنار لازار (جمعية يهودية تنتمى لليسار الملتزم بمعسكر السلام). فهل ينبغي أن نعد أعمال العنف هذه ضمن الأعمال اللاسامية؟ إنه سيكون أمراً منطقياً لأن يهوداً كانوا ضحايا.

وتلقى شارل إندرلان، مراسل القناة الثانية بالتلفزيون الفرنسى، تهديداً بالموت بعد الريبورتاج الذى أعده عن وفاة الطفل الفلسطينى محمد الدرة فى أحضان والده مع بداية الانتفاضة الشانية. كما تعرضت أسرة المراسل أيضا إلى تهديد مما اضطره إلى تغيير مكان إقامته. (٢)

وتلقى جوزيه بوفيه على تليفونه المحمول رسائل عديدة تهدده بالموت. (٣) وفى مارس (٢٠٠٣)، تلقى إيال سيفان رسالة تحتوى على رصاصة

١- المرجع السابق، رقم ١٨٣، ١٠ نوفمبر (٢٠٠١).

Amfp Marseille, amfpmarseille@Wandoo. FR

٢- لوموند ٢٦ يونيو (٢٠٠٢).

٣- جورنال الآحد، ٩ فبراير (٢٠٠٣).

عيار ٢٢ ملم مصحوبة بورقة مكتوب عليها: الرصاص القادرة لن تأتي عن طريق البريد. (١)

وإذا كانت صحيفة ليبراسيون قد كرست مقالة لهذا الحادث الذى كان له وقع الصدمة، فإنه لم يتم تناوله، فى كل الأحوال، فى أى مكان آخر، أو فقط فى عدة سطور. وفى ١٩ فبراير، تم تنظيم صدام، الهدف منه منع حدوث نقاش فى جامعة باريس الرابعة حول موضوع: الفلسطينيون، الإسرائيليون أى سلام؟ وكان طالب يضع على رأسه كوفية، قد ضرب فى هذه الأثناء بقطعة من الحديد. (٢)

وتحت عنوان "مسلمو فرنسا يسببون المشاكل" لمهرجانات المساندة للجيش الإسرائيلى (٣) طالب موقع يهودى متطرف على الأنترنت "السلطات العامة بحل جمعية المراهب MRAP التى لا تعمل إلا على إشعال الحقد المعادى لليهود فى فرنسا، والتى، فيما نرى، تلعب دوراً سلبياً تماماً ومنافياً لمبادئ الجمهورية، وكذلك بالنسبة لLDH (لما يطلق عليها رابطة حقوق الإنسان). هذه الجمعيات "تسبب أضراراً".

"ونحن ندعو اليهود الذين ضلوا الطريق فى اتحاد طلاب يهود فرنسا، أو فى جمعيات أخرى من هذا القبيل أن تتوب بسرعة Techouvah، وتستعيد طريق التوراة، أرض إسرائيل والحقيقة. ولاسيما أولئك الذين يعرفون ميشيل توبيانا، هل يمكنهم أن يدعوه إلى إيقاف إضراره بالطائفة اليهودية عبر رئاسته لرابطة حقوق الإنسان؟

١- ليبراسيون، ٧ مارس (٢٠٠٣).

٢- لوموند، ٧ و٨ أبريل (٢٠٠٣).

٣- تظاهرات نظمت فى مارسييا وباريس من قبل جمعية "من أجل رفاهية الجندي الإسرائيلى" (ABSI).

"إن الأضرار الإسلامية في طريقها حقا إلى إفساد الديمقراطية الفرنسية. " وهاجم الموقع ذاته^(١) أوبيرفيدرير وزير الخارجية الفرنسية السابق بكلمات بالغة القسوة، لأنه متهم بأنه لم يكن على وفاق دائم مع شارون وتحدث عن القمع الإسرائيلي.

غير أن الأسوأ لم يتم ذكره بعد. فهذه المواقع تنتشر بدون أن تشير الأحكام أو الإدانات الرسمية، حتى اليوم الذى كشفت فيه صحيفة لوموند بقلم اكزافيه ترنسيان عن موقع (amisraelhai) (شعب إسرائيل حى بالعبري) الذى نشر قائمة بأسماء شخصيات مساندة لاتتلاف النداءات من أجل السلام العادل فى الشرق الأوسط^(٢). ووضعت نجمة داود باللون الأزرق أمام أسماء هذه الشخصيات اليهودية. وكان تعليق الموقع على ذلك: هذه القائمة تشكل زاوية جديدة للموقع وموجهة لمقاطعة كل هؤلاء الأوباش المعادين لليهود (...). ونحن نشجعكم على مقاطعة كتبهم وأفلامهم وأعمالهم الخ. والذين تعرفنا إليهم كيهود يرون نجمة داود ملصقة على أسمائهم، وهذا لا يعنى فقط أنهم يستحقون المقاطعة وإنما نشجعكم، إذا وجدتموهم أن تعبروا لهم، ولو بالإشارة عن الغضب الذى تشعررون به تجاههم بل وحتى أن توجهوا إليهم بصفة أو لكمة فى وجوههم، أو ضربة بعضا اليبسول، فرما يساهم هذا فى إصلاح روحهم الفاسدة. "

ونشرت اللجنة من أجل إعلام يهودى أصيل القائمة ذاتها مع بعض التعليقات المفتقرة إلى التهذيب: قدمت القائمة إيال سيفان "خائن معلن". وجان دانييل "جاحد متخصص" وايفاتيشور "ناجية، مع الأسف، من

١- Rectification@AFP. General Wel.co.uk

٢- أعلنت برقية لوكالة الأنباء الفرنسية، قبلها بعدة أسابيع، أن المواب MRAP سترفع شكوى. ولم تسرع الصحافة إلى سرد الخبر.

عاصفة فيلديف Veld Hiv، واستتسلاس تومكفايس "ناج، مع الأسف، من جيتو وارسو"^(١) وكلها أوصاف أسوأ من بعضها البعض.

كان ينبغي الانتظار، مع الأسف، حتى تأتي مقالة لوموند حتى تدان هذه التجاوزات المعروفة من قبل.^(٢) ألا تخلق شدة التكرار لموضوعات ليلة الكريستال وكراهية اليهود، منأخاً لم يعد يستطيع البعض فيه أن يضبط أعصابه؟

"عملها هو نتيجة منطقية للأفكار الخطرة التي يزرعها قائد هذه الحركات في عقول صماليك بؤساء... لا بد من ممارسة الضغوط على هذه المجموعات، وأن نتوقف عن اعتبارها جماعات فلكلورية. إنهم حركات خطيرة جداً ومكونة من أفراد على درجة كبيرة من العنف، وقادرون على القيام بالأسوأ، مثل القضاء على من يعتبرونهم أعداءهم. ولا ينبغي على الدولة أن تكفى بمراقبتهم، ينبغي أن تضعهم خارج دائرة الإزعاج"^(٣)

عن من يتكلم الآن جوبير رئيس منظمة ليكرا ؟ عن ماكس برونير، متطرف اليمين الذي أراد إطلاق النار على شيراك في ١٤ يوليو، والمجموعات الصغيرة التي يرتادها. يمكن أن تنطبق ملاحظته على بعض الحركات اليهودية المتطرفة.

١- لوموند ٢٣ أغسطس (٢٠٠٢). الجيتو: مصطلح يعنى الحى الخاص باليهود، وكان هذا الحى يحاط بزسوار فى العصور الوسطى، ولم يكن من المسوح لليهود مغادرة هذا الحى إلا بإذن من الكنيسة، وقد أستخدم هذا المصطلح للمرة الأولى لوصف الحى اليهودى فى فينسيا فى عام ١٥١٦م. ويرى البعض أن هذا المصطلح مشتق من الفعل العبرى "حيط" الذى يعنى الطلاق، كما يرى البعض الآخر أنه مشتق من الكلمة الألمانية Geheckter التى تعنى السور - المترجم

٢- لقد أشرت إلى هذه المواقع المتطرفة فى مقالة نشرت بالفيجارو بعنوان "فليعد الشيطان إلى جحره" ٦ إبريل (٢٠٠٢).

٣- ليبراسيون، ٧ يوليو (٢٠٠٢).

عندما سنل روجيه كوكيرمان عن المخاطر التي تمثلها مجموعات الدفاع الذاتي (اليهودية) أثر التنهوين من الأمر: "إنها جماعات ليست ذات أهمية... أنا مهتم أكثر ببعض المثقفين، مثل الان منك الذى يصف رئيس الوزراء الإسرائيلى، والمتخب ديمقراطياً، بأنه مرتزق ويصفه فى الفقرة ذاتها باليهودى السيئ".^(١) وينظر رئيس (كريف) إلى الان منك على أنه أكثر خطورة من جماعة البيتار Betar، وهذا ما يدعو إلى الحيرة !

هل هذا يعنى أن فرنسا بلد معاد للسامية؟

يعترف حايم موزيكان، مدير (كريف) بأن الطائفة اليهودية تتمتع بوضعية متميزة فى علاقاتها مع السياسيين: "يمكن أن أتحدث مع شيراك وأحصل على موعد معه بدون أى مشكلة" كما قال^(٢). وعندما نكون أمام طائفة يمكن لأحد قادتها أن يفخر بأنه يمكنه الاتصال مباشرة برئيس الجمهورية فلا يمكنها فى الواقع أن تشكو من الإبعاد.

اعترف جاك شيراك، فى يولييه (١٩٩٥)، بمسئولية الدولة الفرنسية عن أعمال الاضطهاد ضد اليهود بين عام (١٩٤٠) و(١٩٤٤). وكان فرنسوا ميتران وشارل ديغول قد رفضا من جانبهما القيام بمثل هذا الاعتراف، مؤكدين على أن الجمهورية لا صلة لها بفترة حكم فيشى. حتى هذا الوقت كان المبدأ هو أن فترة حكم فيشى لم تكن تمثل الجمهورية الفرنسية، وأنها كانت فترة عارضة فى النظام الدستورى الفرنسى.

وُسِّكت بعد ذلك لجنة رأسها جان ماتولى لدراسة النهب الذى تعرض

١- الفيجارو ٢٥-٢٦ يناير (٢٠٠٣).

٢- تصريح لـ Joshua Schuster فى Jewish Telegraphic agency، ١ أغسطس (٢٠٠٢).

له اليهود المقيمون في فرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية. ولم يشمل هذا التمريض من ليسوا يهودا. هل فرنسا التي مولت النصب التذكاري للشهيد اليهودي المجهول هي بلد لاسامي؟ ومن الذي طور تعليم "الشوا" في المدارس من خلال توزيع توثيق نوعي حول هذا الشأن؟ من الذي فتح الحق بمرسوم في ١٤ يولييه (٢٠٠٠) في الإصلاح المالي للذين تيمموا بعد فقد آبائهم اليهود الذين ماتوا في عمليات الإبعاد، وفقط لليتامي اليهود، وهو تمييز أدانه الاتحاد القومي ليتامي المبعدين والذين أطلق عليهم النار (Unodef)؟(١).

إذن فرضية فرنسا التي أغلب سكانها لاسامية لا تصمد أمام الواقع. إنها تتطابق مع الرؤية المحتاجة لدى البعض، وأداة للتوظيف السياسي من قبل البعض الآخر.

١- في رسالة إلى ليونيل جوسبان: "السيد رئيس الوزراء لقد أصدرت مرسوما يتعلق بحالات الاطفال اليهود، ضحايا النظام النازي وحكومة فيشي. نحن نؤيد هذا الإجراء. لكن لماذا لا يشمل الاطفال غير اليهود ضحايا النازي وحكومة فيشي. أليست لهم الحقوق ذاتها؟ هذا الاختلاف في المعاملة ذو طبيعة تمييزية وخطر اجتماعيا. وبإنشاء طائفة من المواطنين مستثناة فإن قراركم يتميز بالإثارة ومولد للعداء للسامية. أنت تقدم الطائفة اليهودية بفرنسا كضحية وحيدة للنازية، يبدو أنك قد نسيت أن المبعدين غير اليهود الذين كانوا يدفعون عن الحقوق، ومن بينها حقوق اليهود، قد ماتوا تحت أساليب التعذيب ذاتها وبالإذلال الذي تعرض له المبعدون اليهود. إن الجمهورية الفرنسية ستكتسب الشرف بإمدادها المرسوم ليشمل كل أبناء الفئات الذين تيمموا والذين عاشوا غياب الأب والام والاخ والأخت وكل أرجه المعاناة والجراح التي نتجت عنه. وأن تكون عملتنا الجميلة - حرية إخاء مساواة - قد تمجدت بآبائنا وألا تكون قد فقدت المصادقية من خلال التمييز الذي أقمتموه."

الفصل الرابع

صراع مستورد؟

هل الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني فى طريقه إلى الوصول لفرنسا؟ وهل يعتبر تطور الاعتداءات اللاسامية رد فعل على نهاية عملية السلام واشتداد قمع القوات المسلحة الإسرائيلية للفلسطينيين؟

لقد وجه قادة الجاليات اليهودية والمسلمة نداءات لتجنب هذا الانزلاق الخطر، الذى يؤخذ فيه يهود فرنسا على أنهم مسئولون عن أعمال الجيش الإسرائيلى.

لقد أعلن مسئولو الجالية المسلمة وممثلو فلسطينى فرنسا وجمعيات التضامن مع فلسطين، أو الجمعيات الخاصة بالدفاع عن حقوق الإنسان، عن إدانتهم بحزم للأعمال اللاسامية التى وقعت فى فرنسا منذ (٢٠٠٠). وكل الذين عبروا عن تضامنهم مع الفلسطينيين، والذين انتقدوا عمل الحكومة الإسرائيلية، لم يجعلوا يهود فرنسا مسئولين عن سياسة شارون. لأنهم يعرفون أن رأى الجالية اليهودية ليس واحداً، ولأنهم يُحرمون العنف بشكل عام، ويؤكدون أنه إذا كان هناك اختلاف سياسى، فإنه ينبغى أن يعبر عن نفسه بالحوار، وليس بالمواجهات الجسدية، أو من خلال أعمال ناتجة عن سوء النية. ففى إطار الجمهورية يسمح بكل الاختلافات طالما أن هذه الاختلافات تحترم الشكل الديمقراطى. ولا ينبغى أن يكون هناك أى

تسامح مع العنف. هكذا، على سبيل المثال، أعربت السلطات المسلمة عن استيائها بعد الهجوم بالسيارات على المعبد اليهودي في دوشير. وفي ١٠ أبريل قام المفتي الأكبر بمرسيليا، صهيب بن شيخ، ومعظم الإداريين باللجنة الإقليمية للشئون الإسلامية، "بإدانة الأعمال البربرية بشدة التي تستهدف المعابد والمؤسسات اليهودية في فرنسا" مؤكداً أن التضامن مع الفلسطينيين لا يمكن أن يرتبط بهذه الاعتداءات.^(١)

من جهتها أدانت ليلي شهيد، المفوضة العامة لفلسطين بباريس، الاعتداء على المعبد اليهودي بمرسيليا. وفي ٣٠ مارس (٢٠٠١) أعلنت على موجات إذاعة فرانس أنفو نداءً إلى كل الذين يربطون بين الكفاح الفلسطيني والصراع ضد الشعب اليهودي أو الدين اليهودي. هذه الانتقادات، كما تقول غير مقبولة، وتمثل "أكبر جريمة يمكن أن يقوم بها إنسان ضد الفلسطينيين".

وبعد الاعتداء على فريق يهودي لكرة القدم في بوندي^(٢) أكد مولود أونيت، السكرتير العام لحركة المراهب MRAP، أن "الوضع خطير جداً، وأنه ينبغي تهدئة الأمور، وأن تطبق العدالة بحزم على مرتكبي هذه الجرائم، فليس لأحد الحق في أن يحمل الجالية اليهودية بفرنسا اغتصابات شارون!".

١- لوموند، ٣ أبريل (٢٠٠١)

٢- بعد أن قرأ صحيفة فرانس فوتبول عبر جيرار لوكانيك عن استيائه بوصفه معلماً ومربياً وتساءل بعد هذا الاعتداء: هل من الأمور الحميدة أن تؤسس فرق رياضية "عرقية" أليس في هذا مخاطرة بالذهاب إلى المشاكل العنصرية؟ أليس من العنصرية ألا تريد الذهاب للعب كرة القدم إلا مع أناس من لون بشرة الجلد ذاتها، أو من العقيدة ذاتها، أو من الجنسية ذاتها أيا كانت؟ "فرانس فوتبول"، ٣٠ أبريل (٢٠٠٢)

ومع ذلك نجد بعض ممثلى مسئولى (كريف) وبعض المثقفين من غلاة الموالين لإسرائيل يحاولون القيام بربط بين الموالين للفلسطينيين والمعادين للسامية. وينظرون إلى أولئك الذين يتظاهرون من أجل السلام فى الشرق الأوسط، والذين يحملون المسئولية بصورة رئيسية فى تدهور الوضع على شارون، على أنهم بالضرورة من المعادين للسامية.

وهكذا تم اتهام المجلس القومى لحركة المrab MRAP (حركة مكافحة العنصرية ومن أجل السلام بين الشعوب). وأعلنت حركة المrab عن أسفها علانية ضد استراتيجية ممارسة الضغط، والتى تتمثل فى إلصاق تهمة العداء للسامية بكل تنظيم يدافع عن عملية السلام فى الشرق الأوسط. "مثل هذا التوظيف للعداء للسامية و"الشوا" لأهداف سياسية ودينية يفضى بشكل أكيد إلى جعل مفهوم اللاسامية من الأمور الشائعة" كما صرحت المنظمة المعادية للعنصرية والتى تدعو فى الوقت ذاته إلى "الحق فى وجود الدولة الإسرائيلية وفى أمن شعبها، وحق الشعب الفلسطينى فى أرض ودولة". (١) وقد انتقدت جمعيات موالية للإسرائيليين المrab MRAP لأنها نظمت مظاهرات لساندة الشعب الفلسطينى. وقد لوحظ أثناء إحدى هذه المظاهرات، فى ٧ أكتوبر (٢٠٠٠)، شعارات لاسامية مثل "الموت لليهود" من قبل بعض المتطرفين المسلمين الذين اندسوا فى المظاهرة، وهو أمر رفضه مولود أونيت فى المساء ذاته.

غير أن غلاة الموالين لإسرائيل سيحاولون إيهام الناس بأن صرخات الحقد هذه لها صلة مباشرة مع منظمى المظاهرة. وهؤلاء أنفسهم سيكونون

١- نظرة "اللاسامية، حقيقة أم كذب" إبريل (٢٠٠٢)

متزعين، عن حق، إذا قام أحد بتحميل مسئول (كريف) مسئولية الاعتداءات العنصرية التي ارتكبتها جماعة البيتار، أو رابطة الدفاع اليهودية بعد ٧ إبريل (٢٠٠٢)، وهم أنفسهم الذين ينسبون، بلا حياء، إلى المراهب MRAP الانزلاقات اللفظية غير المقبولة والتي قام بها بعض الأفراد غير المسئولين والخطرين. لقد أراد البعض الإيهام بأن صرخات "الموت لليهود" تنتشر في الطرقات الباريسية بصورة روتينية، وكما لو كانت صرخات تهيم على المظاهرات الجماهيرية، وكما لو كانت صرخة طبيعية لتجمع الموالين للفلسطينيين. (١)

لقد عرض أرنو كلارسيفلد هذا الاتهام بصورة صارخة، فائثناء حديثه إلى برنامج كارل زيرو، في ٢١ يناير (٢٠٠٢)، تساءل: " (...) أليست تلك الجمعية هي التي صرخ من خلالها البعض "الموت لليهود"، منذ وقت ليس ببعيد؟ ". وقامت المراهب MRAP برفع قضية قذف ضده، وسيصدر حكم بإدانته.

وفقا لحثيات حكم المحكمة "يستخلص من المصطلحات التي استخدمها المتهم بالقذف، ومن السياق التي استخدمت فيه، أنها توحى أن المدعى بالحق المدني رغم إنكاره (...) قد سمح بالتعبير العام عن آراء معادية للسامية بشكل عنيف". (٢) وقد ثبتت تهمة القذف.

١- يمكن للمرء أن يقرأ في رسائل القراء لمجلة الاكسبريس في ٣٠ أكتوبر (٢٠٠٢):

"مظاهرات شبه يومية كانت تهتف "الموت لليهود" و "الموت لإسرائيل"، هنا، في فرنسا، في (٢٠٠٢)!" .

٢- الفيجارو ٢١ يونيو (٢٠٠٢).

وقد تمت مجلة مرصد العالم اليهودى نموذجاً آخر عن سياسة الخلط هذه، والتمثل فى إقامة توازى بين المظاهرات المساندة للفلسطينيين من جهة والمساندة للشعب الإسرائيلى من جهة أخرى "هناك مئات من الأعمال اللاسامية المتعمدة من قبل أغلبية ساحقة من العرب المسلمين، الذين يطلق عليهم "شباب" أو "شباب مندمج اجتماعياً"، أو "بلطجية"، ولا توجد أعمال ضد العرب أو ضد المسلمين ارتكبها يهود. وهناك مظاهرات للموالين للفلسطينيين، وفقاً لمصطلحات منظميها، حيث كانت تظهر أحياناً أعلام حزب الله أو حماس، وحيث كانت تردد هتافات "الموت لليهود"، وحيث كانت تقارن نجمة دواود بالصليب المعقوف... ومظاهرة أخرى موالية لإسرائيل، وفقاً لمصطلحات أجهزة الإعلام، حيث كانت تظهر الأعلام الفرنسية وحيث كان المتظاهرون ينشدون المارسييز وحيث لم ترتفع أى شعارات تمتلئ بالحقد." (١) (!!!). نحن هنا أمام منطق الأخيار والأشرار بشكل ما. فمن جهة تتم المماثلة بين المسلمين الراديكاليين وبين غالبية المتظاهرين. ومن جهة أخرى يتم إسدال ستار من الصمت التام على الاعتداءات التى ارتكبتها رابطة الدفاع اليهودى. لكن ماذا يمكن أن يقال، لو أن أنصار حماس، على غرار رابطة الدفاع اليهودى، لم يكتفوا بترديد شعارهم الخاقد، وإنما انطلقوا فى مطاردة خصومهم، أو لو أنهم طعنوا مفوضاً من رجال الشرطة؟

بالنسبة لتيوكلاين فإن أحداث الشرق الأوسط قد أثارت شعوراً بالقلق والرغبة فى الإعلان عن تضامن مع إسرائيل لا يشوبه تردد: "أخشى من

١- كاترين لوفيشير، "ماذا تعلمنا من الإعلام؟ أجهزة الاعلام الفرنسية، هل هى موضوعية؟" مرصد العالم اليهودى، (٢٠٠٢) ص ٤٩.

"عقدة الجيتو"،^(١) تلك الفكرة التي ترى أن العالم الخارجى معاد لنا. ومن اللحظة التي يرى فيها المرء عداوات فى كل مكان تنشأ هذه العداوة"^(٢).

أثار تيوكلاين مشكلتين أساسيتين. وعقدة الجيتو التي يخشى منها هي قائمة بالفعل لدى بعض أفراد الطائفة اليهودية.

وأحيانا تخلق هذه العقدة، التي ينمىها بذكاء بعض قادة الطائفة اليهودية، بعض ردود الأفعال المتزعجة. ويقارن العرب أو المسلمون الفرنسيون أوضاعهم بأوضاع يهود فرنسا، ويجدون أنه قد يكون لديهم من الأسباب ما يدفعهم للشكوى أكثر من اليهود. وكثير من الذين لا يتمنون لاحدى الطائفتين يلاحظون بكل بساطة أن اليهود لا يعانون من أى تمييز. ويشعر المرء أكثر فأكثر بالضجر تجاه هذا الادعاء بوضعية الضحية الذي لم يعد مقبولاً، لاسيما عندما يصاحبه إدانة لـ "انزلاق يستند على الشفقة" يهدف إلى جعل الفرنسيين يميلون إلى كفة الفلسطينيين.

١- فى مقابلة له مع المجلة الدولية والاستراتيجية سيعود تيوكلاين إلى هذه المسألة: "مشكلة أخرى أعطيها أهمية كبيرة هي ظاهرة إضفاء طابع الجيتو على الحياة-ghet-toisation. فالتاريخ اليهودى يذكرنا، منذ أكثر من ألفى عام، أن أفراد الطائفة اليهودية قد خضعوا لكل المخاطر التي يتعرض لها المنبوذون. وأصبح لديهم ردود فعل تتسم بالنزعة الدفاعية والحذر. وعلى اليهود أن يخرجوا من هذا الجيتو. فاليوم الظروف اختلفت تماماً لكن اليهود أبقوا على ردود فعل تلائم أوقاتا سابقة. لابد من الاعتراف بأن "الشوا" فى أوروبا ونظام فيشى فى فرنسا يمكن أن يفسرا عودة هذا التفكير الذى يتم بالشك والتشنيج". المجلة الدولية والاستراتيجية رقم ٤٧ خريف (٢٠٠٢)

ص ٢٤

مركز الأبحاث
الدراسات الاستراتيجية

٢- لوموند ٤ ديسمبر ٢٠٠١، متحدثاً عن "الأعمال المعادية لليهود" صرح تيوكلاين "لسنا أمام لاسامية وإنما أمام أعمال يقوم بها بلطجية يعكسون على طريقتهم ما يشعرون به إزاء الشرق الأوسط" ليبراسيون ٣ إبريل (٢٠٠٢).

وقد وجد روجيه كوكيرمان، رئيس ال (كريف)، تفسيراً لـ "الأعمال اللاسامية"، والسلبية المفترضة للسلطات إزاء هذه الأعمال "لأن هذا العنف الأحادي الجانب مرتبط مباشرة بصراع الشرق الأوسط، ولأنه جرى كثيراً، في الغالب، الخلط بين اليهودي والإسرائيلي"^(١). ولا يمكن للمرء إلا أن يصفق بكلتا يديه لهذا التصريح. والمشكلة أنه يأتي ليتناقض تماماً مع أقوال أو أعمال أخرى لروجيه كوكيرمان ذاته، والذي لم يتوقف عن اتهام يهود فرنسا بأن ما يحركهم هو الحقد على الذات إذا كانوا معادين لشارون"^(٢).

كما يختلف مع تصريح آخر له: "أنا أعيش في فرنسا، وأساند إسرائيل ولا أريد أن يطلب مني أن أختار بين أبي وأمي." "^(٣) وهو أخيراً في تناقض مع بعض الأعمال لروجيه كوكيرمان ذاته الذي أرسل مذكرة سرية لوزير العدل دومنيك بيرين، طالبا منه ملاحقة أولئك الذين يدعون إلى مقاطعة المنتجات الإسرائيلية.^(٤) وهو في تناقض دائم عندما يصرح كوكيرمان لـ "الاكتيوا ليتة اليهودية" بشأن ال (كريف): "تظل مهمتنا الرئيسية هي مكافحة العداء للسامية ومساندة إسرائيل في بحثها عن السلام والأمن."^(٥)

١- " مع مخاطرة إغضاب الآخرين " لوموند.

٢- وفي تناقض أيضا مع تصريح جان كاهن، رئيس المجمع المركزي، الذي يدعو يهود فرنسا إلى التوحد مع دولة إسرائيل.

٣- ليبراسيون ٨ ابريل (٢٠٠٢).

٤- "مقاطعة العلماء والمنتجات الإسرائيلية" لوموند، ٢ أكتوبر (٢٠٠٢).

٥- الاكتيوا ليتة اليهودية ١٦ أكتوبر (٢٠٠٢).

وكوكيرمان ذاته هو الذى سيتهجم - مع الاحترام الواجب لمرتبه - على سابقه تيوكلاين الذى تحدث فى خطاب مفتوح إلى شارون عن "الواجب الاخلاقى فى الاعتراف للفلسطينيين بالحق فى المطالبة بدولتهم" (١) وسينذهب الرئيس الحالى لـ (كريف) إلى الرد على سابقه: "أشعر بالأسف لأنه كتب فى لوموند. وإذا كان قد أراد توجيه رسالة إلى شارون فكان الأجدر أن يرسلها إلى صحيفة معاريف أو هآآرتس أو يديعوت أحرنوت، وعندما يعيش المرء فى باريس حتى ولو كانت له المواطنة الإسرائيلية فليس من الأمور الملائمة التعبير بالصورة التى عبر بها. فهناك خطر إضعاف صورة إسرائيل لدى المجتمع الفرنسى، وهو أمر غير ضرورى هذه الأيام. وأرى أنه أرسل رسالة إلى العنوان الخطأ، فلا ينبغى أن نكتب لـ ٤٠٠ ألف من قراء لوموند لنقول أن السياسة الإسرائيلية "عشية وحماة ووحشية". هذه الكلمات لها ثقل كبير وليس من السهل قبولها خاصة إذا كانت موجهة إلى الرأى العام الفرنسى، أى وزارة الخارجية والنقابات وأحزاب اليسار واليمين" (٢)

هل هناك إذن موضوعات لا ينبغى أن تناقش إلا بين يهود ولا تتعلق بالفرنسيين الآخرين؟ يمكن أن يدرك المرء ذلك فيما يتعلق بالشئون الدينية والثقافية والاجتماعية الخاصة بالطائفة، لكن أليس الصراع فى الشرق الأوسط صراعاً سياسياً؟ ألا يمس بدرجات مختلفة كل الفرنسيين؟ ألا يضع

١- "آريل شارون وشرف إسرائيل" لوموند ٥ سبتمبر (٢٠٠١) "ينبغى حتى الذهاب بعيداً والمطالبة بأن يكون لإسرائيل الامتياز فى أن تكون الدولة الأولى التى تعترف بشرعية هذه الدولة الفلسطينية التى ينبغى أن تشترك معها إسرائيل فى اقتسام الأرض المشتركة. سيقولون لى وماذا عن الإرهاب؟ أنتم تعرفون أنه لا يمكن مكافحة الإرهاب إلا داخل كل شعب - عندما لم يعد هذا الشعب يعتبر هذا الإرهاب شكلاً من أشكال الكفاح. أما إذا كان الشعب يساند الإرهابى فإنه يصير مكافحاً".

كوكيرمان في حساباته نتائج ما يقوله عندما يترك الانطباع بأن هذا الأمر لا ينبغي أن يثار إلا بين يهود؟

وعندما يحرض خمسة عشر برلانيا على المتابعة القضائية للأشخاص والجمعيات التي تتادى بمقاطعة المنتجات الإسرائيلية، نجدهم يدينون "الخلط الذي يمارسه البعض بين شارون وإسرائيل واليهود والرأسمالية العالمية" (١) غير أنهم هم الذين يقيمون هذا الخلط لأن نداء المقاطعة لا يخص سوى المنتجات الإسرائيلية ولا يتحدث بأى شكل عن يهود فرنسا.

ومن جانبه يؤكد الكسندر أدلر، وهو معلق في مجال الشؤون الدولية ربما الأكثر شهرة في فرنسا، والذي لا يعرف خياله ومساندته لإسرائيل أى تردد، "اعتقد بالفعل أن إسرائيل التي هي في الوقت ذاته شئ عظيم جداً ودولة صغيرة في حاجة لأن تزود بعمق وبعد جديد بالتعاون إلى حد ما مع الدياسبورا (...). شخصياً سأكون مجتهداً لوجود شكل ما من مجلس للشيوخ، كمجلس ثان إلى جوار الكنيست يتكون من إسرائيليين وأفراد من الدياسبورا ويكون له دور استشاري. وينبغي أن تختار له شخصيات رفيعة وأرى أنه يمكن لإنسان مثل إيلي فيسل أن يرأس مثل هذا التنظيم، سأكون مع وجود جهاز دائم يجسد تضامن كل شعب إسرائيل". (٢) إنه يقترح ببساطة شديدة أن يتمكن يهود العالم، على الرغم من جنسياتهم، من تشكيل هيئة تشريعية لإسرائيل؟

ونشرت صحيفة لوموند، في ١٢ ابريل (٢٠٠٢)، بياناً يطالب الموقعون عليه بحق إسرائيل في الدفاع المشروع عن نفسها، وبعد عشرة أيام

١- الفيجارو ١ نوفمبر (٢٠٠٢) "مقاطعة شائنة".

٢- إذاعة راديو جوداكا ٢٠ سبتمبر (٢٠٠١).

على ذلك احتلت إسرائيل جنين. وكان من بين هذه الأسماء الموقعة بير-أندريا تاجيف وسيرج كلارسيفلد والكسندرل فال وميشيل ترييلا، وقد أدانوا السلطة الفلسطينية التي "أطلقت حرباً من نوع جديد يتحول فيها أجساد البشر وأوراخهم. إلى قنابل موت مبرمجة كي تزرع اليأس في السكان المدنيين الإسرائيليين".

"إن النظام التعليمي الفلسطيني، الممول برغم أخطائه من الاتحاد الأوربي، من غاياته، على سبيل المثال، تجنيد الشباب الفلسطيني في ألوية الموت هذه، مع احتمال تقديم اللجنة لهم كأفق وحيد... ونحن ننادي كل الديمقراطيين اليوم وغداً للوقوف أمام حملة التزوير الضخمة التي يقوم بها اللوبي المؤلف من الجمعيات الموالية للفلسطينيين!".

وهكذا يلتزمون التزاماً شاملاً بالدفاع عن إسرائيل، ولا تجد نقداً واحداً بينما هناك الكثير من الإسرائيليين لا يترددون من جانبهم في إظهار اختلافاتهم. بالطبع لم تكن هناك "مذابح" في جنين كما ادعى الفلسطينيون. ولو كانت إسرائيل قد قبلت أن تزور لجنة الأمم المتحدة جنين لكان هناك تكذيب أكثر سرعة، لكنها رفضت ولم يحتج أحد. فهل سيحدث رد فعل غير مبال مثل هذا لو أن ميلوسييفتش هو الذي رفض لجنة التحقيق الدولية في كوسوفو؟ هل كان سيترك بدون عقاب؟

ستضع الأمم المتحدة بعد ذلك تقريراً يقر بأنه لم تكن هناك مذابح بل انتهاكات خطيرة لحقوق السكان المدنيين.

ماذا يمكن أن يقال عن عريضة تجمع توقيعات وتدافع باسم التضامن الطائفي غير المعلن، عن دولة ترتكب جرائم حرب؟ ووفقاً للجنة تحقيق مشتركة قادتها الفيدرالية الدولية لحقوق الإنسان وجمعية أطباء العالم، في

مدينة نابلس فى الفترة من ٢٨ إبريل إلى ٥ مايو (٢٠٠٢) فإن إسرائيل مذنبه أثناء عملية "جدار الحماية" بـ "انتهاكات خطيرة للقانون الدولى الإنسانى وحقوق الإنسان" كما أشار التقرير الذى أذيع فى ٣ يوليه. "ووفقا لللائحة محكمة الجزاء الدولية فإن هذه الانتهاكات يمكن وصفها بجرائم حرب". (١)

وسيعترف عدد من المثقفين اليهود الفرنسيين بفرضية تصدير صراع الشرق الأوسط إلى فرنسا، غير أنهم سيذهبون إلى تحميل المسؤولية الأولى على قادة المؤسسات المدنية والدينية التى يعييون عليها أنها تريد جعل التضامن مع إسرائيل فى كل الظروف، العمل الأساسى فى نشاطهم. ووفقا لهم، فلأن هؤلاء المسؤولين لم يجرؤا أبداً على الابتعاد عن السياسة الإسرائيلية، فإنهم قادوا إلى خلط بين يهود فرنسا وإسرائيل فى الفترة التى صارت فيها شعبية سياسة هذه الدولة تتجه إلى مزيد من التلبنى. (٢)

ومن جانبه أكد إيال سيفان، وهو سينمائى إسرائيلى ويتقد بانتظام سياسة شارون، أنه "داخل المعابد ومراكز الطائفة اليهودية هناك اتجاه إلى أن يحل العلم الإسرائيلى وجمع المال لصالح إسرائيل محل الرموز الدينية التقليدية.

١- لوموند، ٥ يوليه (٢٠٠٢).

٢- يرى دانييل بن سعيد، أحد قادة الرابطة الشيوعية الثورية "فيما يتعلق بكرهية اليهود، فإنه منذ اللحظة التى يدعى فيها المتحدثون الرسميون للمؤسسات الطائفية الحديث باسم اليهود بشكل عام، ويسلكون كحراس حدود لدولة إسرائيل ويحولون المعابد اليهودية إلى ملحقات لسفارة إسرائيل، فإنه يمكن للمرء أن تساوره مخاوف بالفعل فى أنهم لا يساهمون إلا إلى تحويل الصراع السياسى ضد الاحتلال الإسرائيلى للأراضى الفلسطينية إلى كراهية عنصرية لليهود. ومن شدة تكرار التماثل بين اليهودية والصهيونية ينتهى هؤلاء الذين يشبهون "رجال مطافئ" يشعلون النار" إلى أن تؤخذ كلماتهم حرفياً. مجلة ماريان ٢٨ يناير (٢٠٠٢).

"وهكذا يفتح الطريق أمام انتقال المجال السياسي نحو الدينى . وعندما يتم النظر إلى المعابد ومراكز الطائفة اليهودية على أنها مماثلة لمؤسسات تدعم إسرائيل فإنها تصير أهدافاً لاعتداءات إجرامية، ينبغى أن تعاقب بوصفها كذلك". (١)

أيضا تم انتقاد موقف بعض أعضاء الحكومة الإسرائيلية الذين يتخاطبون مباشرة مع يهود فرنسا. (٢)

١- "الالتباس الخطير ليهود فرنسا" لوموند ٨ ديسمبر (٢٠٠١). وتابع إيال سيفان قائلاً: "لقد حان الوقت لكى ينهض يهود فرنسا ليعلموا بصوت عال وقوى إنهم فرنسيون، وإن بلدنا هى فرنسا، وإن ثقافتنا فرنسية وإن مستقبلنا أوروبى . وإن العزف على وتر البارانونيا الجماعية لإقناع البعض بأنهم معرضون لكل أشكال الأخطار، هو عمل سيئ. وعندما تمارس شخصيات من الطائفة اليهودية الخلط والإرهاب الفكرى لكى تفرض تأييداً بدون تردد لأرييل شارون وأوزى لاندو، فإنهم يشجعون، أكثر من أى شخص آخر، على الاعتقاد بأنه يوجد داخل الجالية اليهودية شعور بالولاء المزدوج والانتماء المزدوج، وهو أمر ليس فى مصلحة يهود فرنسا ولا الجماعة القومية. وهذه المؤسسات اليهودية الطائفية الفرنسية تلعب بالنار، وتصير هى ذاتها من عوامل العنف، عندما تصف باللامسامية المواقف اللاصهيونية والنقد الموجه إلى السياسة الإسرائيلية وبنزع المصادقية عن وجهة نظر سياسية بخطها مع أقوال عنصرية."

٢- وقد سار فى الاتجاه ذاته هنرى إسرائيل، وهو نائب أول لعمدة فرسنيس Fresnes ومنتخب عن الحزب الاشتراكي "كمواطن فرنسى لا أقبل أن يتجراً وزير دولة أجنبية ويقول لى ما ينبغى أن أكون عليه، وما ينبغى أن أفعله، وأين ينبغى لى أن أعيش . واعتقد أيضاً أن المساعدات من الوكالة اليهودية من أجل استقبال هؤلاء المفترض أنهم ناجون جدد من اللامسامية تسمح لهم بالعشور على مكان فى مستوطنات غزة أو القدس الشرقية . . . لا، حقا لقد حان الوقت لنقول لحكومة إسرائيل كفى لقد طفح الكيل" لوموند ١٦ يناير (٢٠٠٢). ويعترف جوليان دراى بذلك أيضاً: "ينبغى إدانة الاعتداءات اللامسامية إذ لا ينبغى أيضاً أن نخلط كل شيئ . ولا ينبغى أن نوضع الطائفة كرهينة لمساندة شارون. منذ عدة أشهر ونحن نتشاجر مع (كريف) حول هذا الأمر." لوموند ٩ إبريل (٢٠٠٢). وثبتت هذه الإجابة أن تنوع الجالية اليهودية يمتد أيضاً إلى داخل الحزب الاشتراكي.

فى مجلته ماريان، فى ٢٩ أكتوبر (١ - ٢٠)، كان جان-فرانسوا كاهن أكثر وضوحاً أيضاً: "تماماً لأننا نعتبر أنفسنا أصدقاء إسرائيل" نشعر بالضرورة الواجبة علينا فى إدانة سياسة شارون ومتعصبيه (الأكثر راديكالية منه أيضاً) والتي فى طريقها لإيقاع الأذى بالدولة العبرية أكثر من عشرات السنين من الدعاية العربية. وهذه السياسة يصعب علينا تأمينها بوصفنا جمهوريين ديمقراطيين أو ليبراليين، وبوصفنا إنسانيين ومعادين للعنصرية والفاشية والاستالينية، ومدافعين عن حقوق الشعوب فى تقرير مصيرها واحترام القانون الدولى، ولاسيما أن هذه السياسة تبدو لنا مناقضة بصورة جذرية للمصلحة العامة، بما فيها مصلحة إسرائيل من حيث أنها تقوض أمنها، وتهدد عافيتها الاقتصادية والأخلاقية، وتضع موضع شك استمرارياتها وتدمر صورتها بصورة لا يمكن إصلاحها.^(١)

وفى أعقاب نشر هذه المقالة تلقت مجلة ماريان رسائل كثيرة وعنيفة دفعت جان-فرانسوا كاهن أن يكتب: "أقول نكتشف لدى بعض المناضلين اليهود الفرنسيين الموالين لشارون، إضافة إلى سوء الطوية الذى لم يعد له حدود، وإضافة إلى عدم القدرة على الإنصات والفهم الذى يصل أحيانا إلى حد البارانونيا، اللجوء أكثر فأكثر إلى لغة من غمط لويينى^(٢) (نسبة إلى جان مارى لوبن - زعيم اليمين الفرنسى المتطرف).

١- "والحال أن ما هو خطير فى هذا الانحراف هو أن" أصدقاء إسرائيل" هؤلاء، دون أن يدركوا، والمفتقرين إلى الوعى بالمصالح الحقيقية لإسرائيل، ينتهون، ابتداء من هوس مركزية يهودية، إلى إعطاء مشروعية بل وحتى ادماج كل الأساطير اللاسامية القديمة. ألا يؤدى ذلك إلى تشجيع عقدة الجيتو بإعطاء مصداقية للقول الشائن "شعب واثق من نفسه ومهمين"، وتقليص تنوع العالم إلى مانوية ثنائية حيث تشكل "المسألة اليهودية" بالضرورة ودائما أحد مصطلحاتها" التى لا يمكن التحكم فيها " تماما كما فعل فرانسوا إدوارد درومونت، المؤلف الحزين لـ"فرنسا اليهودية".

٢- افتتاحية مجلة ماريان ٣ ديسمبر (٢٠٠١).

وكان ميشيل روكار، من جانبه، قد أكد فى رسالة مفتوحة إلى شارون أن الحوادث اللاسامية التى تتكاثر "تجد مصدرها فى الحقد الذى تزرعه".

"أنت فى طريقك، أيها السيد رئيس الوزراء، إلى إنتاج نزعة معادية لإسرائيل فى العالم كله، والناس مثلى الذين قاوموا اللاسامية منذ فترة شبابهم الأولى هم اليوم عاجزون عن إيقاف تيار الغضب والحقد الذى فتحت مساراته... فلتخش اللحظة التى يختفى فيها المنع بعد "الشوا" أمام الأخطار التى يدفع بها صراعى الحيوى والمحلى إلى كل أنحاء العالم. لا يمكنك أن تقوم بكل شئ دائما. وستصل العقوبات فى النهاية." (١)

وإذا كانوا مصممين على إدانة المماثلة بين يهود فرنسا والإسرائيليين، فإن بعض المسؤولين الشكافيين لم يترددوا فى القيام بنمط آخر من التحليل نجد فيه العرب = المعادون لليهود. ويقول أرنوكلارسيفليد: "لم أسمع أبداً فى مظاهراتنا هتافات تقول الموت للعرب...". (٢) فى باريس فقط، بالتأكيد، ومع ذلك فإن الحقد على العرب لم يعد يعرف كيف يخفى شكله أكثر فأكثر فى بعض الخطابات وفى بعض مواقع الإنترنت.

١- ميشيل روكار: "رسالة مفتوحة إلى السيد شارون" الفيجارو ٥ إبريل (٢٠٠٢).

ومن المنطلق ذاته كتبت إشتير بنباسا "العودة باستمرار إلى موضوع اللاسامية والادانة الدائمة لكل خطاب يخرج عن المطلوب، والملاحقة بلا كلل لأدنى مؤشرات الحقد والرفض أى اللامبالاة فقط، قد أدى كل ذلك بلاريب إلى طائفة ذات معاناة قائمة على الاستيهاام لهذا المرء فى الأغلب القرابة مع إسرائيل والتضامن مع إسرائيل. وهى قرابة سيشتعر بها بحرق هى ليست غير شرعية فى حد ذاتها لكنها فى مأزق، مهما يقال، بسبب صراع يتأبد ويرسل عن هذا البلد صورة دائمة ليس من السهل التعامل معها" لوبوان ١٩ أكتوبر (٢٠٠٢).

٢- لوبوان ١٨ يناير (٢٠٠٢).

ووفقا دائما لآرنوكلاسيفلد فإن القادة العرب لا يمكنهم القول أن لا مسؤولية لهم عن "الشوا" حتى بصورة غير مباشرة، إذ لو تمكن اليهود في أوروبا من الهجرة بحرية إلى فلسطين "وقد كان المكان اللازم لاستقبالهم متوفراً، لربما كان عدد اليهود، الذين أبيدوا أقل بكثير مما تم بدون شك" (١)

ومع هذه الرؤية للماضي التي تمزج التحريف التاريخي مع الاستيهامات الأيدولوجية ينظر هذا المحامي إلى المستقبل أيضاً: "الطريق إلى السلام يمر عبر إسقاط ياسر عرفات، وحتى لو أدى هذا إلى حرب أهلية" (٢). ولو أن أحداً كتب أن طريق السلام يمر عبر الإطاحة بأرييل شارون، حتى لو أدى هذا إلى حرب أهلية في إسرائيل لكان قد تعرض بدون شك إلى محاكمة كبيرة.

ولا يتردد غلاة الموالين لإسرائيل في أبلسة المسلمين على الصعيد الدولي والقومي بغرض منح شارون الشرعية على الصعيد الدولي. من المهم إيضاح أن التمييز بين المسلمين المعتدلين والراديكاليين غير قائم، وأن الاسلام يمثل مشكلة في حد ذاته، وانه يفرخ الإرهاب بصورة تلقائية. وهذه الفرضيات على سبيل المثال هي فرضيات الكسندر ديل فال (٣)، أو فريدريك انسيل (٤) الذي يقدم كبروفيسور في ENA مع نسيان الإشارة إلى

١- "إسرائيل - فلسطين : الأسباب الحقيقية للصراع" لوموند ٥ ديسمبر (٢٠٠١).

٢- "إسرائيل في مواجهة البربرية" لوموند ٤ أغسطس (٢٠٠٢).

٣- مؤلف "الشمولية الإسلامية" دار les Syrtes (٢٠٠٢). وفقاً له "نحن أمام شمولية ثالثة: حركة ذات بعد عالمي ودائم وطموحها إخضاع المعمورة للإسلام" الفيجارو ١٦ أكتوبر (٢٠٠٢).

٤- جيوبولتيك نهاية العالم. دار فلاماريون (٢٠٠٢).

علاقاته مع جماعة البيطار Betar وعلى المستوى القومى يتعلق الأمر بترك الانطباع بأن الشباب من أبناء المهاجرين هم جميعاً منحرفون بالقطرة ومستعدون، فضلاً عن ذلك، لارتكاب أعمال لاسامية.

ويمكن للمرء أن يكون فيلسوفاً وعضواً فى هيئة تحرير "الآزمنة الحديثة"، ولا يتردد فى ممارسة الخلط الذى نادراً ما كان له صلة مع الديالكتيك. وهكذا بالنسبة لروبرت ردكير: "إنهم ضحايا العنصرية أبناء المهاجرين المغاربة الذين يمارسون اللاسامية. ويعبرون بذلك عن رفضهم للجمهورية، وهو ما أمكننا التحقق منه فى استاد فرنسا أثناء مباراة الجزائر وفرنسا عندما سخروا من النشيد القومى الفرنسى." (١)

هل نجعل كل العرب الفرنسيين مسؤولين عما حدث فى استاد فرنسا؟ لقد كنت هناك مع أطفالى، ويمكننى أن أشهد، أننا لم نشعر فى لحظة واحدة فى الاستاد أو فى المترو بأننا مهددون (٢). بل شاهدت على العكس عدداً كبيراً من مشجعى الفريق الجزائرى وهم فى حالة صدمة ويعتذرون عن سلوك المتهورين الذين أفسدوا الاحتفال. إن موقف الذين صفروا أثناء النشيد القومى غير مقبول. غير أن الخزى ينبغى أن يوجه إليهم، وإليهم وحدهم وليس إلى كل الجالية.

١ - مجلة ماريان ٢٨ نوفمبر (٢٠٠٢).

٢ - يمارس جاك تارنيرو خلطاً، دون أن يهتز له جفن: "لقد شاهدنا جيداً صور مظاهرات الفرح الفلسطينى مع إعلان عمليات ١١ سبتمبر فى نيو يورك، ويمكن أن تشهد على ذلك وكالات الصحافة والصحفيين. ليس من قبيل الفاشية أو كره الأجانب أن يستاء المرء من التصفير عند سماع المارسييز أثناء مباراة كرة القدم بين فرنسا والجزائر" وراء أسامة بن لادن هناك اللاسامية الجديدة" ٢٤ أكتوبر (٢٠٠١)، وهنا يحرف تارنيرو، عن قصد، الواقع. بالطبع قدم التلفزيون صورة لخمسة عشر شاباً فلسطينياً يعربون عن فرحهم بعد انهيار البرجين ولم يكن هذا الرقم، مع ذلك، كبيراً. وكان عرفات قد أذاع أحداث ١١ سبتمبر لكن تارنيور مرر ذلك تحت ستار من الصمت.

وفى ساحة الباستيل، فى ٧ إبريل (٢٠٠٢)، نجد أحد الشعارات المرفوعة أثناء مظاهرة "نحن نغنى المارسييز، نحن لا نصفر عند سماع المارسييز" (١) آه، يعنون مباراه فرنسا-الجزائر ! لقد كانت هدية للمدافعين بشدة عن شارون. لكنهم نسوا أنه فى أكتوبر (١٩٩٣) وأثناء مباراة فرنسا-إسرائيل فى إطار التصفيات المؤهلة لكأس العام (١٩٩٤)، كانت هناك أعلام إسرائيلية أكثر من الأعلام الفرنسية فى الاستاد، بدون أن يكون هناك مع ذلك انتقال مشجعين كثيرين من إسرائيل إلى فرنسا لمشاهدة المباراة. (٢)

هناك هذا الخوف المنقول: خوف من الجمهور العربى الذى يراه البعض متنفذاً ومعاديا لما حدث، والخوف من أن تتم التغطية عليهم من قبل هذه الكثافة السكانية. وهنا أيضا يمكن أن يتفهم المرء ذلك، فاليهود الذين لم يتجاوز عددهم خمسة عشر مليوناً فى العالم ولا يمارسون التبشير هم إذن بالضرورة أقلية. لكن أليس من الأفضل تأسيس علاقة قوة تسمح بتوازن مع هذا الخلل الديموغرافى، أو تأسيس علاقات متناغمة مع الطوائف الأخرى؟

وتحدث الحاخام سيتروك عن واقع جديد، وحساب لاواعٍ لكنه حقيقى للسلطات العامة: «وعندما يوجد فى فرنسا خمسة أو ستة ملايين مسلم

١- ليبراسيون ٨ إبريل (٢٠٠٢).

٢- وسيصل الأمر إلى درجة شبه كوميدية، للذين يعرفون قليلاً كرة القدم، عندما نجد صحفياً فى راديو الطائفة اليهودية يذهب إلى حد اعتبار مباراة فرنسا والجزائر هى سبب هزيمة الفريق الفرنسى بعد ذلك فى كأس العالم (٢٠٠٢) «الذى هزم الفريق الفرنسى» الفيجارو ١٦ نوفمبر (٢٠٠٢).

(٠٠٠) وستمائة ألف يهودى فقط فإنه من الواضح أن الجالية المسلمة توضع فى الاعتبار بصورة أفضل» (١)

ويسير فى الاتجاه ذاته روجيه كوكيرمان : «نحن نواجه خطراً فعلياً، فثلاثة ملايين من الفرنسيين قد صوتوا لصالح لوبن، وخمسة ملايين من العرب (على الأقل قطاع من بينهم) يعلنون تضامنهم مع الفلسطينيين. نحن فى القارب ذاته مع الإسرائيليين وتضامنا شامل» (٢)

وإضافة إلى أن كوكيرمان ذاته أعلن، بعد عدة أشهر، عن سعادته بالنسبة التى حققها لوبن فى انتخابات الجولة الأولى لرئاسة الجمهورية، التى نظر إليها على أنها تحذير موجه للعرب.

يمكن للمرء أن يندهش من منطق خطاب قريب جداً ، فى نهاية المطاف، من خطاب حرب الحضارات الذى يزعم الجميع رفضه. فإذا تابعنا جيداً منطق كوكيرمان فإن يهود فرنسا والإسرائيليين يقتسمون المشاكل ذاتها لأنهم يواجهون العرب المهاجرين والفلسطينيين الذين يعلنون تضامنهم. من الفرخة ومن البيضة؟

فى ٧ إبريل ترك ثلاثة من لاعبى كرة القدم المسلمين نادى As Menora فى ضواحي استراسبورج وكان النادى الذى يحمل اسم «الشمعدان ذو الفروع السبعة للشعائر اليهودية» ، قد أسسه عام (١٩٦٣) جان كاهن، وهو الرئيس الحالى للمجمع الدينى المركزى. ولا يمارس هذا النادى اللعب يوم السبت وهو يوم الشبات، غير أنه مكون فى الوقت ذاته من لاعبين يهود ومسيحيين ومسلمين. فلماذا صار هذا التناغم

١- مقابلة بالفيجارو ٣٠ نوفمبر (٢٠٠١).

٢- المنبر اليهودى ٢٩ نوفمبر (٢٠٠١).

السعيد مستحيلاً؟ وعندما نشرت الصحف هذا الخبر بدون مزيد من التعليقات، فإن الاستنتاج الذى يستخلصه القارئ كان سريعاً. فالمسلمون، بتشدهم يرفضون التعايش الذى كان متناغماً من قبل مع مواطنيهم من اليهود. غير أن الأمر لم يكن بهذه البساطة التى تبدو للوهلة الأولى. ويقول نور الدين بن ناصر، وهو فرنسى من أصل جزائرى، وأحد هؤلاء اللاعبين الثلاثة الذين تركوا النادى «عندما رأينا أن المجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية فى فرنسا يدعو إلى التظاهر فى آن واحد ضد اللاسامية فى فرنسا، وهو أمر طبيعى، ومساندة سياسة شارون، وهو أمر غير طبيعى، أدركنا أنه علينا أن نأخذ موقفاً. وأردنا بخروجنا من النادى أن نسجل عملاً سياسياً ورمزياً ضد هذا الخلط الذين كانوا هم المبادرين فى القيام به . !»^(١)

وبعد الحريق الذى شب فى أحد فصول مدرسة يهودية فى ٣١ ديسمبر (٢٠٠١)، تم تنظيم تجمع فى كريتاى لإدانة صعود اللاسامية. وحضر لوران كاتلا وهو عمدة المدينة (ينتمى للحزب الاشتراكى) وقدم نفسه أولاً بوصفه «صديق الجالية اليهودية بل وحتى صديق إسرائيل» وقد صُفِّقَ له كثيراً، لكنه أضاف «وذلك حتى لو لم أوافق على سياسة شارون».

وهنا هاج المجتمعون وانطلقت هتافات «إسرائيل ستنتصر» «عاش شارون» «شارون بطل» . . . وأراد اثنا عشر شخصاً فى قلب المعبد

١- لوموند ١٣ إبريل (٢٠٠٢) «فى استراسبورج، نادى رياضى متعدد الثقافات يتعرض للتفكك بسبب أزمة الشرق الاوسط».

اليهودى رفع علم إسرائيل ونجحوا فى منع العمدة من إكمال كلمته. (١)
هل يمكن أن نطلب التضامن مع الجالية اليهودية التى اعتدى عليها - وهو
تضامن ليس موضع شك، وفى اللحظة التى نعبّر فيها عن هذا التضامن
يتم تحويله إلى تضامن مع بلد أجنبى يرى كثير من الفرنسيين أن سياسته
قابلة للنقد؟ وهل يمكن أن نعتبر أن الذى لايسير فى هذا الاتجاه ليس فقط
معاديا للحكومة المعنية وإنما معاد للجالية فى فرنسا؟

فى إبريل (٢٠٠٢) كتب ميشيل توبيانا إلى روجيه كوكيرمان رئيس
المجلس التمثيلى للمنظمات اليهودية فى فرنسا يقترح عليه القيام برد مشترك
على الاعتداءات اللاسامية التى وقعت مؤخراً، لكن كوكيرمان فضل
الإعلان عن نداء للتظاهر يوم ٧ إبريل «ضد اللاسامية، ضد الإرهاب،
ولدعم الشعب الإسرائيلى ومن أجل السلام». بالتأكيد الدعم هنا لن
يذهب مباشرة إلى حكومة شارون لكن إلى الشعب الإسرائيلى. لكن هل
يكفى هذا التمييز؟ وإذا كان السلام هو الهدف الرئيسى ألا ينبغى أن ندعم
الشعنين الإسرائيلى والفلسطينى؟

وفى رسالة لاحقة يذكر ميشيل توبيانا أن رابطة حقوق الانسان قد
تأسست منذ مائة وأربعة أعوام نظراً لوقوع «ضحية لأنها يهودية من قبل
تعسف الدولة» «وهذا يسمح بأن أقول لك بصراحة إنك ضللت الطريق
بإنكارك عالمية الكفاح ضد العنصرية وبمزجك المعركة ضد اللاسامية بمساندة
أحادية الجانب لدولة. وبرفضك مشاركة منظمات أخرى غير المكونة
لمنظمتك فى المظاهرة فإنك جعلت من معركة هي بالضرورة عالمية مسيرة

١- ليبراسيون، ١٤ يناير (٢٠٠٢) «قلق أمام كراهية اليهود».

طائفية، ونافيا بذلك مبادئ الجمهورية. وأنت بذلك تدعم الانطواء على الذات بتصريحاتك، ومبادراتك لم تتوقف عن تشجيع ذلك، بينما لابد من أجل تخفيف منابع الأعمال اللاسامية، أن يشارك كل المواطنين في هذا البلد في التعبير عن رفضهم، ولا أن يتجمعوا في أعمال طائفية محضة. ١

وكانت إجابة كوكيرمان، وهذا أقل ما يمكن أن يقال فيها، إنها كانت بدون التباس:

«أود أن أعرف أى قسم فى نداء المظاهرة بدا لك غير متفق مع مبادئك: هل هو النداء إلى إنهاء الأعمال اللاسامية والإرهاب؟ أو رسالة الدعم للشعب الإسرائيلى من أجل السلام والأمن؟ على أية حال أنا أشكرك على دروسك فى التسامح والسلام التى أقدرها، لأنها كذلك جاءت من يهودى نجح فى التسامح مع الرسائل المتفجرة من قبل حماس والجهاد الإسلامى والجناح المسلح لحركة فتح إلى يهود آخرين».

«وأعتقد أنه من الصعب الجمع بين المتظاهرين الموالين لـلفلسطينيين والكفاح ضد اللاسامية ومساندة الشعب الإسرائيلى. وأتمنى أن يأتى اليوم الذى يتوقف فيه الإرهابيون عن ممارسة عملهم المؤذى وأن يكون مقبولا منك آنذاك أن تفكر فى مصير اليهود. (١)

وينسى كوكيرمان أنه من أجل تحقيق السلام لابد أن يكون هناك طرفان، وأنه إذا كان الإرهاب مداناً فإن القمع الإسرائيلى، الذى يعتدى على المدنيين، ينبغى أن يدان أيضاً. لا يمكن أن ندين طرفاً فى الصراع وندعم طرفاً آخر دون أن نبتعد عن احترام المبادئ العالمية.

١- رسالة من روجيه كوكيرمان موجهة إلى ميشيل تويانا بتاريخ ١٨ إبريل (٢٠٠٢)

وبدلاً من أن تُكرّس جهودك لإدانة اللاسامية والاعتداءات التي تعرضت لها الجالية اليهودية نظمت مظاهرة ٧ إبريل لصالح الشعب الإسرائيلي. باختصار انزلق الكفاح ضد اللاسامية إلى مساندة لشارون.

وكثير من اليهود، من قلب الجالية ذاتها، لم يقبلوا هذا المنهج السياسي: «نحن لم نرغب في أن تتحول هذه المظاهرة إلى استعراض موال لإسرائيل أو لأمن إسرائيل، وكان قسم كبير منا لا يود أن يحدث هذا تحت لواء العلم الإسرائيلي.^(١)»

«على الصعيد السياسي فإن مظاهرة ضد اللاسامية كان من الممكن أن تكون أكثر تأثيراً إذا كان كل رؤساء الأحزاب والجمعيات معنا، كما يقول كوكيرمان، لكن على الصعيد الأخلاقي أراد اليهود إظهار تضامنهم مع الشعب الإسرائيلي والمائة وخمسة وعشرين الذين ماتوا في شهر مارس»^(٢) «وقد يكون هناك جمع غفير، كما يقول كوكيرمان، كثير من اليهود وقليل من غير اليهود، وهذا يخيفني، وسيقتصر الحديث على اللاسامية، وسيكون هناك إجماع لكن قضية الدفاع عن إسرائيل لن تحقق هدفها...»^(٣).

ويتأسف أحد مسؤولي المجلس التمثيلي للمنظمات اليهودية بفرنسا، والذي رفض مع ذلك الإفصاح عن نفسه، فيما يتعلق بمظاهرة ٧ إبريل:

١- ليبراسيون ٣ إبريل (٢٠٠٢) «تحرك حرج للجالية» يشير إلى أحد المنظمين الذي لم يوفق في دعوته.

٢- الفيجارو ٤ إبريل (٢٠٠٢) «التظاهر من أجل إسرائيل أم ضد اللاسامية؟»

٣- نوفيل أوبسرفاتور ٤-١٠ إبريل (٢٠٠٢).

« لقد أمضينا وقتاً كبيراً فى » ضرورة عدم نقل صراع الشرق الأوسط إلى هنا أى ينبغى الفصل بين الاعتداءات اللاسامية فى فرنسا والسياسة الإسرائيلية بيد أننا مع أول مناسبة نخلط كل شئ» (١)

وسيكتب إيلي بارنافى، بعد أن انتهى عمله كسفير، بخصوص هذه المظاهرة، أنها تظهر جيداً أن الأمر «بالنسبة لمعظم يهود هذا البلد فإن الوقت الآن هو وقت الانسحاب إلى داخل القوقعة الطائفية» (٢)

١- الفيجارو ٤ إبريل (٢٠٠٢) «التظاهر من أجل إسرائيل أم ضد اللاسامية»

٢- نوفيل أوبسرفاتور ١٧ أكتوبر (٢٠٠٢) «خطاب مفتوح إلى يهود فرنسا»

الفصل الخامس

اليمن المتطرف والعداء للسامية

يصرح غلاة الموالين لإسرائيل بأن العداء للسامية قد تغير. ولم يعد، بصورة رئيسية، كما كان في السابق، من عمل اليمن المتطرف، وإنما صار يكتسب بلامح اليسار.

هكذا كتب تارنيرو: "لقد حل العداء للسامية كأيدولوجية محل النموذج الثوري. وأخذت فلسطين مكان البروليتاريا في خيال سياسى تنقصه الحماسة. فالعداء للصهيونية والعداء للسامية يشكلان اليوم رحمين لتقديم جديدة للحمقى." (١)

فلنمر سريعا على هذا الاتجاه العام لغلاة الموالين لإسرائيل، الذين لا يمكنهم أن يمتنعوا عن تقديم حجة بدون أن يصحبوها بشتيمة. وإنه لمن الأفضل أن نذهب إلى ما هو جوهرى. لقد تغير رأى اليسار، بصفة عامة، تجاه إسرائيل. وكان دعمه يستند إلى تصور إسرائيل كبلد ديمقراطى صغير، مؤسس على القيم الديمقراطية، وعليه أن يواجه نزاعات مع بلاد عربية غير ديمقراطية، ولا تعترف بحقه فى الوجود. وجاء هذا ليضاف إلى تضامن تقليدى لليسار مع الطائفة اليهودية كان قد نشأ مع قضية دريفوس بعد

١ - "أى متعة فى إضفاء الطابع النازى على إسرائيل" ليبراسيون ١٣-١٤ إبريل (٢٠٠٢).

رعب النازية. واليوم تبذو صورة إسرائيل أكثر من أى وقت آخر كصورة بلد يحتقر القانون الدولي ويحتل أراضا ليست له ويقمع بقوة الشعب الفلسطيني الذى قبل قاداته، برغم ذلك، حق إسرائيل فى الوجود. ويشجع اليسار اليوم (ليس كل اليسار وليس وحده) هدف إنشاء دولة فلسطينية ويطالب بأن يُعامل الفلسطينيون معاملة إنسانية. على كل حال، كيف يمكن للمرء أن يعلن انتسابه لليسار إذا كان لا يحترم القانون الدولي ولا يحترم كرامة الكائن البشرى؟ وهذا لا يجعل اليسار معاديا للسامية ومعاديا للصهيونية وإنما يفسر معارضته لسياسة شارون، الذى يزداد تباعده فى كل يوم عن هدف إنشاء هذه الدولة الفلسطينية، ويعمل على إدانة معاناة السكان الفلسطينيين التى صارت مرفوضة أكثر فأكثر، ودون أن يُحسنُ فضلا عن ذلك أمن الإسرائيليين.

لقد قاد العداء للسامية إلى تحول قطاع من اليمين المتطرف إلى أن يصير مواليا للعرب. وهذا التيار موجود دائما. غير أن هناك قطاعا آخر من اليمين المتطرف تحول إلى مساندة قوية لإسرائيل التى تبدو له كأفضل خصم للعرب. وهذا الحقد على العرب جعل هذه الشريحة السياسية تعمل لصالح إسرائيل بعد أن كانت تجسد فى الماضى أكثر صور معاداة السامية غباوة.

ويعتبر الكسندر ديل فال واحداً من ممثلى هذه الشريحة من اليمين المتطرف التى انضمت لقضية إسرائيل عبر معارضة شديدة لـ "اليسار" والمسلمين على حد سواء، ويسمح الانحياز إلى إسرائيل بضرب عصفورين بحجر واحد. ويقول "يتوجه اليسار المتطرف واليسار الدولي اليوم باتجاه ينحو إلى أبلسة اليهود، عبر دولة إسرائيل والصهيونية والذين يتضامنون معهم، وهم بذلك ينضمون إلى فرضيات الدعاية لبن لادن، الذى لم يكن أبداً، مع ذلك، مهتما بمصير الفلسطينيين".

"المزايدة الإعلامية السياسية مؤخرا ضد دولة إسرائيل والصهيونية بل
وضد اليهود باختصار، باتهامهم بأنهم متضامنون مع السياسة "الفاشية"
لشارون، سمحت، على الأقل، بتوضيح وكشف الخداع الكبير وخلفيات
أفراد اليمين المتطرف في عدائهم لليهود والصهيونية، كأول متواطئين
إيديولوجيين مع الشمولية الإسلامية الجديدة، التي تهاجم الديمقراطيات
الغربية، وكأستاذة كبار في النفاق طالما أن ديماجوجياتهم التكتيكية والموجهة
عن محبة اليهود تخفى في الواقع كراهية لليهود "معدلة وخبيثة".^(١)

وقد اشتهر الكسندر ديل قال بكتاباتة المتضامنة مع صربيا ميلوسيفتش
وبمعارضته للسياسة الغربية في البلقان، متهما إياها أنها تلعب لعبة
المسلمين. وكان في هذه الفترة معادياً بصورة واضحة لأمريكا. وإضافة إلى
ذلك فقد اتخذ من نفسه مديراً لمركز جيويوليتكى وجوده غير مؤكد.

وقد كشف روني موزات، وهو أحد المتخصصين في اليمين المتطرف،
بعض المعلومات الهامة عن الكسندر ديل قال، واسمه الحقيقي هو مارك
دانا. وقد ظهرت هذه الدراسة في إبريل (٢٠٠٢) في مجلة حركة رالفون
Ras L'front. وكشفت الدراسة أن مارك دانا قد تعاون بصورة منتظمة مع
مطبوعات تعود إلى اليمين الجديد الوثني في الفترة بين بداية (١٩٩٤)
وسبتمبر (٢٠٠١). وفي يولييه - أغسطس (١٩٩٦) تحدث تحت اسم
مستعار هو جيلدو ديل قال في جامعة صيفية لشبكة أوربية ذات اتجاه وثني
جديد هي "الاتلافات الأوروبية الجديدة" التي انعقدت في اللومباردى.
ومن بين الأسماء الأخرى المشاركة نجد كلوريوموتى وهو الناشر الإيطالي

١- الفيجارو، "الوجوه الحمراء والخضراء للعداء للسامية".

لكتاب "بروتوكولات حكماء صهيون". وتقول الدراسة أيضا أن مارك دانا كان محاضرا أثيراً في دوائر اليمين المتطرف ولدى الكاثوليك المتشددين في الأخوة الكهنوتية للقديس بى العاشر^(١).

وسيصير الكسندر دى فال محاضرا أثيراً لدى قطاع من الطائفة اليهودية، ومتحمساً لإعطاء إضاءة استراتيجية وهمية على خوفها من العرب^(٢). وهو يدعو من خلال حجة مماثلة لحجة بن لادن إلى تحالف يجمع كل الذين ينبغي لهم أن يواجهوا العرب من إسرائيل وأمريكا لكن أيضا روسيا والهند الخ. وسيكتب حتى في صفحات مرصد العالم اليهودى.

ويقول: "الإسلام شمولى"، "العملية الراهنة من الاستيطان والإسكان والتي يطلق عليها بإسراف "ظاهرة هجرة" ترتبط بالفعل بحرب غزو، وغزو مقنع"^(٣).

وما هو أكثر دلالة، وأبعد من المسيرة الشخصية لدليل فال، هو الاستقبال الذى يحظى به في دوائر طائفية معينة.

١- إكزافيه ترنسيان، "أخطار كراهية الإسلام" لوموند ١١ مايو (٢٠٠٢).

٢- سيدافع عنه بشراسة: جان إيف كانوى "العالم والطائفان. أجهزة الإعلام الفرنسية هل هي موضوعية؟" مرصد العالم اليهودى ص ٩١. يعيب على إكزافيه ترنسيان أنه أنطلق في "نقد الشخص" على الكسندر ديل فال "الذى يحكم بجرأة على أخلاقيات العمل في صحيفة لوموند" كل هذا لأنها وضعت في المقدمة علاقاته مع اليمين المتطرف! بالنسبة لأناس لا يتوقفون عن اتهام من ينتقدون شارون بالعداء للسامية بإضافة أحكام تنزع عنهم بشكل عام خصائصهم المهنية: نرى حقا أن أى حياء قد وُضع جانبا.

٣- إكزافيه ترنسيان "أخطار كراهية الإسلام" لوموند ١١ مايو (٢٠٠٢).

ولم يتردد مارك كونبل ، وهو باحث فى مركز سيمون فاينستال^(١) ، فى التوقيع على مقالة مع الكسندر ديل فال اسمها "تقارب الشموليات." ^(٢) ويعرف المرء منها أن المحور "الأحمر والبنى والأخضر" ، (الحركات المعادية وتحالف اليسار الراديكالى والإسلاميين) يطبع بطابعه الحوار الفكرى .

لقد ذهلت شخصيا من كل الرسائل العادية والالكترونية التى تلقيتها بعد نشر مقالى فى جريدة لوموند^(٣) فى أغسطس (٢٠٠١) ، عن عنف الأقوال التى يستخدمها كثير من غلاة الموالين لإسرائيل إزاء العرب والمسلمين. ولم يتردد كثير من المؤلفين ، فى الغالب بدون أن يذكروا أسماءهم ، فى استخدام تعبيرات صريحة فى عنصريتها وقذارتها .

فى صيف (٢٠٠٢) كشفت صحيفة ليبراسيون ، عن موقع على الإنترنت لليمين المتطرف "النجدة ضد الأوباش" "Sos Racaille" كان قد نادى بالتصويت لصالح لوبن ، وحتى هذا الحد ليس هناك ما يدهش ، لكن الأكثر إثارة للانتباه هو إحدى الحجج المستخدمة من قبل مؤلفى هذا الموقع . وهى انه ينبغى التصويت ضد "بن شيراك" ^(٤) .

وكان من بين العلاقات الصديقة للموقع موقع آخر موال لإسرائيل L'AIIIP ويشاركه الحقد على العرب .

ولم يكتف موقع "amisrealhai.org" بتقديم قائمة بأسماء "اليهود" كما رأينا سابقا ، بل قدم أيضا دلائل على قرابته الإيدولوجية المربكة مع

١- كان يعمل فى الواقع فى سفارة إسرائيل بباريس .

٢- الفيجارو ٢٢ إبريل (٢٠٠٢) .

٣- انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب .

٤- ليبراسيون ، ٩ أغسطس (٢٠٠٢) "على خط النداء للقتل" .

اليمين الفرنسى المتطرف . فى ١٥ يولييه نشر نصا معنونا بـ "شيراك وعملية المرصد"^(١) بشأن عملية الاعتداء على رئيس الجمهورية من قبل شاب من اليمين المتطرف . ويمكن للمرء أن يقرأ إنه من بين الذين قاموا بتحييد هذا الأخير " سيظهر قريباً، اسم محمد شلح وهو من أصول تعود لشمال أفريقيا، فى عيون الفرنسيين، كبطل أنقذ الرئيس من موت محقق برصاصات متعصب من "اليمين المتطرف" . وسيكون من نتائج هذه الحادثة إكمال عملية أبلسة اليمين القومى وتبرير كل الإجراءات التى يمكن أن تتخذ مقدما إزاء المتعاطفين معه. (...) وتقديم نموذج بطل جديد من أصل مغاربى للسكان الفرنسيين كما لو كان نموذجاً للمدنية"^(٢).

وسنجد أيضاً الإيطالى فينى Fini، الذى يعرف نفسه بأنه يمثل ما بعد الفاشية، مرحباً به فى إسرائيل وفقاً لـ شيمون بيريز^(٣).

من جهة أخرى صارت حكومة بيرلسكونى (الذى لم يتردد فى تمجيد تفوق الحضارة الغربية، فى ٢٠ سبتمبر ٢٠٠١)، ووقف بذلك خلف نظرية صدام الحضارات) أكثر حكومات أوروبا مساندة لإسرائيل، بهدف إرضاء أمريكا أساساً، لكن أيضاً، كما برهن عليه نجاح كتاب أوريانا فالانتشى، لأن العدواة مع المسلمين صارت شعوراً متزايداً فى هذا البلد.^(٤)

بيد أن هذا يبدو محدود الأهمية مع تطور زعيم الجبهة الوطنية فى فرنسا، جان مارى لوبن. وكurst يدعوت أحرونوت، الصحيفة الأكثر

١- اتهم فرانسوا ميتران من قبل خصومه بأنه قد نظم بنفسه، فى (١٩٥٩)، عملية اغتيال له أمام حديقة مرصد باريس.

٢- لوموند ٢٣ أغسطس (٢٠٠٢) "موقع على الإنترنت يربط بين الصهاينة الراديكاليين واليمين المتطرف".

٣- IHT، ١٠ مايو (٢٠٠٢).

٤- ليبراسيون، ٢٤ أبريل (٢٠٠٢).

انتشاراً فى إسرائيل، عنوانها الرئيسى "ذهول" لوصف المكانة الثانية التى حققها المرشح "العنصرى والمعادى للسامية" تماماً كما فعلت "معاريف" أثناء الجولة الأولى من انتخابات الرئاسة الفرنسية. ويقول وزير الإعلام الإسرائيلى روفين ريفيلان، وهو راديكالى من الليكود "لقد فكر الفرنسيون دائماً مثل لوبن لكنهم لم يتجرأوا على قول ذلك بصوت مرتفع". وصرح تيزبى ليفينى، مساعد وزير الخارجية الإسرائيلى: "إن النتيجة التى حصل عليها لوبن هى تعبير عن محاولات إنكار الهولوكوست ليس فقط فى فرنسا وإنما فى كل أوروبا"^(١).

وهكذا فى أن وصول مرشح اليمين المتطرف إلى الجولة الثانية من انتخابات الرئاسة، والذى تحدث مرات عديدة بأقوال لها ملامح معادية للسامية، يثبت الفرضية المزعومة عن حدوث انحراف فى فرنسا.

لقد ابتهج بصورة شبه علنية أولئك الذين كانوا يريدون نزع مصداقيته ومنعه من أن يلعب أى دور فى الشرق الأوسط. ولا يريدون أن يأخذوا بالاعتبار التعبئة الضخمة التى قام بها الفرنسيون ضد اليمين المتطرف بين جولتى الانتخابات. يمكن للمرء أن يرى مفارقة فى موقف أولئك الذين لا يقولون شيئاً عن وجود اليمين المتطرف ليس على الساحة السياسية وإنما فى قلب الحكومة الإسرائيلية ذاتها، ويرفعون صرخات الرعب ضد تأثير اليمين المتطرف فى فرنسا. فى إسرائيل لم يكتف هذا التيار السياسى بتحقيق تقدم انتخابى وإنما يحتل مكانة فى الحكومة ويؤثر على سياستها.

لماذا لا يتم حينئذ التركيز على أخطار اليمين المتطرف فى إسرائيل، معه

١- الفيجارو ٢٣ أبريل (٢٠٠٢).

القسم الأكبر من القوى السياسية، بما فيها حزب العمل، يمارسون الحكم؟ وهل يمكن القول إن العداء للسامية لدى لوبن هو الذى جذب إليه الكثير من أصوات الناخبين فى ٢١ إبريل (٢٠٠٢)؟ يمكن للمرء الاعتقاد، على العكس، أن هناك عوامل أخرى كانت أكثر أهمية من العداء للسامية الذى لم يكن له سوى دور هامشى. من جهة أخرى فإن مواقف لوبن من إسرائيل هى أكثر تعقيداً مما قد يعتقد المرء. لقد نشرت صحيفة هاآرتس الإسرائيلية فى ٢٢ إبريل مقابلة مثيرة للاهتمام مع زعيم الجبهة الوطنية. عندما سئل عن الاعتداءات المعادية للسامية. لقد أقام ربطاً بين السكان من أصل مغاربى فى فرنسا وأحداث الشرق الأوسط وأضاف "هناك سكان إسلاميون فى فرنسا، أغلبهم من شمال إفريقيا. ومع أن بعضهم حصل على الجنسية الفرنسية إلا أنهم لا يملكون المخزون الثقافى والبنية الاجتماعية الفرنسية... قيمهم مختلفة عن قيم العالم اليهودى-المسيحى... ويتدعمون بصورة تلقائية بالتناسل الطبيعى وبالهجرة... إنه عالم الإسلام بكل ضلاله". وكان ينفى برغم ذلك وجود معاداة للسامية فى فرنسا، مذكراً بأنه قبل الانتفاضة كان هناك ثلاثة أو أربعة حوادث معادية للسامية فى السنة من ضمن ١٨ مليون جريمة وأعمال خارجة عن القانون. واستمر فى تفسيره قائلاً إنه إذا كانت أجهزة الإعلام موالية للفلسطينيين فإن ذلك يعود إلى "نقل العرب فى العالم ووجود طائفة مسلمة قوية فى فرنسا، ولواقع أن شارون من اليمين... وأن هذه السياسة ذاتها لو قام بها واحد من اليسار لحظيت بانتقاد أقل". وأكد جان مارى لوبن فى المقابلة ذاتها أن الإسرائيليين يمرون اليوم بالتجربة ذاتها التى مرت بها فرنسا أثناء حرب الجزائر "تقول الحكومة الإسرائيلية أنها ضحية لاعتداءات إرهابية" غير أن

هذه الاعتداءات أقل وضوحاً من الضربات العسكرية. كنت أنتمى للفرقة العاشرة المظلية التي كان عليها أن تضع حداً للرعب في الجزائر. وقد بدأ هذا بعد سلسلة من الاعتداءات ضد المدنيين في الأماكن العامة. وقامت الفرقة بإزالة هذا الرعب غير أنها لم تفعل ذلك بطريقة ودية مع الإرهابيين. فالحرب ضد الإرهاب شيء وحشي". وأضاف بعد ذلك: "أنفهم تماماً دولة إسرائيل التي تسعى لحماية مواطنيها"

ما الذي يثير الدهشة، في الواقع، في هذا التقارب بين لوبن-شارون؟ الاثنان لديهما مشاعر متقاربة إزاء العرب.

كتب روجيه كوكيرمان في مقال منشور في اليوم التالي لانتخابات الرئاسة الفرنسية على موقع الإنترنت لصحيفة هاآرتس ذاتها أن النسبة التي حصل عليها جان ماري لوبن في الجولة الأولى "كانت رسالة موجهة إلى المسلمين كي يلتزموا الهدوء".

وأمام الاضطراب الذي أثارته مثل هذه التصريحات اضطر إلى التراجع "لقد تم تحريف أقوالى" كما ذكر لوكالة الأنباء الفرنسية ناسباً ذلك لأخطاء في الترجمة.

وصحح أقواله "أشرت إلى النتائج الممكنة للتصويت لصالح لوبن وسئلت إذا كان ذلك في وسعه أن يؤدي إلى انخفاض أعمال العنف، فوجدت نفسى مضطرباً لأقول نعم". وكتب كوكيرمان، فيما بعد، منظماً دفاعه: "إن الأقوال التي نسبت إلى لم تكتب بطريقة تعبر عن حقيقة ما أقصد، فالتصويت لصالح اليمين المتطرف لا يمكن أن يحمل إلا الشقاء". (١)

١- "ألا نخدع أنفسنا" لوموند ٢٧ إبريل (٢٠٠٢).

بدون شك . لكن فلتخيل لحظة أن مسلما فرنسيا قد أفضى لصحيفة عربية بأن التصويت الذى حصل عليه لوين فى الجولة الأولى هو رسالة موجهة ليهود فرنسا بأن عليهم أن يلتزموا الهدوء " ، فهل كان التكذيب بالغموض ذاته يمكن أن يقبل بسهولة؟ وإذا كان هذا المسلم يشغل مسؤولية طائفية فهل كان من الممكن أن يظل فى موقعه ، أو يجد نفسه مضطرا إلى الاستقالة؟ وهل كان يمكن التعامل معه على أنه مفاوض ذو شرعية أمام السلطات العامة؟ ألن يتم تذكره بأقواله فى كل مداخلة يقوم بها؟

كيف نفسر أن كوكيرمان ، الذى يدين بسرعة خطابات الآخرين عندما لا تروقهم ، والذى لا يتردد أحيانا فى إعطائها معنى مختلفا إذا كان ذلك سيدعم حجته ، يرفض أن يكون للمرء الحق فى الحكم ليس على ما يعزى إليه وإنما على ما قاله حقا؟ ما يزعجه ليست الأقوال التى قالها وإنما لأنها وصلت إلى الجمهور الفرنسى .

وستؤدى هذه الأقوال إلى حدوث انقسام داخل الطائفة اليهودية ، وسترتفع أصوات لإدانتها . ومن بينها ميشيل دريفوس-شميت ، وهو سناتور اشتراكى ورئيس " اشتراكية ويهودية " ، وهو من الذين كرسوا حياتهم البرلمانية للدفاع عن حقوق الإنسان وتقدم الحريات ، وكان قد شعر باستياء من هذه الأقوال : " إذا كان قد تفوه بهذه الأقوال التى نقلتها الصحف فإن روجيه كوكيرمان غير جدير حينئذ بتمثيل الطائفة اليهودية فى فرنسا " (١)

غير أنه لم يكن هناك أى مسؤول اشتراكى قد رأى أنه من المناسب متابعة ميشيل دريفوس-شميت فى الاتجاه الذى سار فيه .

ووجد برنار أبواف، وهو مدير راديو شالوم، الكلمات الدقيقة أيضا لإدانة هذا التفسير الذى قدمه كوكيرمان: "هذا أمر زائف وأحمق فلن يقلص أبداً النجاح الانتخابى الذى حققه لوين، من العداء للسامية. لا يتبقى أن ندخل فى المنطق العربى الإسلامى ضد اليهود"^(١)

غير أنه بعد هذه الموجات من النقد سيتم نسيان هذا الأمر وسيختفى دون أن يترك أثاراً. كان يمكن الاعتقاد أن مثل هذه الأقوال الخارجة عن المعقول ستظل لفترة طويلة تلاحق صاحبها. لكن لم يحدث شئ من ذلك. على العكس، وأثناء العشاء السنوى للمجلس التمثيلى للمنظمات اليهودية بفرنسا فى ٢٥ يناير (٢٠٠٣)، أعرب عن قلقه من أن هناك واحداً من كل خمسة قد توجه للتصويت لصالح لوين أثناء الانتخابات الرئاسية وعن إدانته التحالف "البنى والأخضر والأحمر" المتهم بالعداء للصهيونية والعداء للسامية^(٢).

وقد أثار برونو ميجريه، من جانبه، فى مواجهة الأصولية الإسلامية الحديث عن "اهتمامات مشتركة مع التنظيمات المثلثة ليهود فرنسا"^(٣).

١- كان باتريك برويل من أنصار هذا الرأى: "هناك تائهون كثيرون فى هذه القضية. هناك من يعتقدون داخل الطائفة اليهودية أنه إذا جاء لوين إلى السلطة فإن العديد من اليهود سيرحلون إلى إسرائيل وإذن هذا أمر جيد لإسرائيل، أو أن مجئ لوين سيكون علامة موجهة للمسلمين.. غير أن الطائفة اليهودية تعرف فى النهاية مع ذلك ما تدبى به للعنصرية والعداء للسامية والفاشية. وتطالب بواجب الذاكرة لكل الناس بالطبع وأن لا ينسى المرء شيئاً كذلك، وخاصة نحن نخطئ تحديد العدو". لوموند ٣٠ إبريل (٢٠٠٢).

٢- ليبراسيون والفيجارو، ٢٧ إبريل (٢٠٠٣).

٣- صحيفة لوباريزيان Le Parisien ٢٨ أغسطس (٢٠٠٢)، استشهد بها دومنيك فيدال "باسم المعركة ضد معاداة السامية" لوموند ديبلوماتيك ديسمبر (٢٠٠٢).

والى جانب شارون، وشيمون بيريز الحائز على جائزة نوبل للسلام. هناك فى الحكومة الإسرائيلية وزراء عنصرىون بصورة صريحة، ويطالبون بطرد الفلسطينيين من الأراضى المحتلة: وهو أمر لن يكون سوى جريمة حرب، ويطلقون باستمرار تصريحات مهينة جداً ضد الفلسطينيين وتقع تحت طائلة القانون لو كانت قد صدرت فى فرنسا^(١)، لتحريضها على الحقد العنصرى. ومن جهة أخرى أثار وجود حزب العمال فى هذه الوزارة مناقشات فى قلب الاشتراكية الدولية.

فى ١١ ابريل (٢٠٠٢) كتب إيليو دى ربو، رئيس الحزب الاشتراكى البلجيكى إلى شيمون بيريز، مذكراً إياه أن كثيراً من الاشتراكيين لم يفهموا قرار حزب العمل فى مارس (٢٠٠١) بالدخول فى حكومة يقودها رئيس الوزراء شارون، ومكونة بشكل خاص من أعضاء فى أحزاب اليمين المتطرف: "يبدو لنا أنه من غير المقبول أن يدخل حزب عضو فى الاشتراكية الدولية والحزب الاشتراكى الأوروبى، فى تحالف حكومى يضم وزراء قوميين بصورة مغالية وعنصرين بصورة علنية. إنها مسألة مبدأ تتطابق مع الضرورة المطلقة بالآ نجعل من اليمين المتطرف أمراً اعتيادياً، والأسوأ إعطاء مصداقية، فى كل أنحاء العالم. وهذه القاعدة من الأخلاق السياسية لا يمكن، فى نظرى، أن تواجه بأى استثناء."

وقد أعرب إيليو دى ربو بعد ذلك، عن استيائه وأن مخاوفه قد تأكدت بصورة كبيرة وأن عمل الحكومة الإسرائيلية كان كارثياً على الصعيد

١- أكد إيلى بارنافى أنه أمام حكومة الاتحاد القومى التى تأخذ المياه من كل الاتجاهات وحزب العمل الذى فى طريقة للتفكك نغامر بأن نجد فى القدس "حكومة يمين بتكوين متطرف قد يجعل من جنكيزخان اشتراكياً ديمقراطياً مسالماً" كتاب فرنسا وإسرائيل، دار بيران Perrin، ص١٧

الإنساني وعبثيا على الصعيد السياسي . وبعد أن أكد على أنه لا توجد حكومة في العالم يمكن أن تكون فوق القانون الدولي ، ولا يوجد جيش على الأرض يمكنه أن يتصرف بمعزل عن احترام الاتفاقات الدولية ، قام إيليو دي رويو بتذكير شيمون بيريز بصورة قاسية أن وجوده في الحكومة لم يعد يمنع " تشدد السياسات وأن الحرب شاملة " . ويخلص إلى القول : " فلتشرف مرة أخرى جائزة نوبل للسلام ، واترك بدون تأخير حكومة شارون . "

وبينما كان عديد من حزب العمل الإسرائيلي يأملون منذ فترة طويلة في خروج حزبهم من الحكومة ، وبينما استقال شلومو بن عامي وزير الخارجية السابق من منصبه في البرلمان احتجاجاً على بقاء حزب العمل في الحكومة^(١) كان موقف الحزب الاشتراكي الفرنسي من هذه القضية من المحرمات دائمة . وكان من اليسير التظاهر ضد حضور اليمين المتطرف في الحكومة النمساوية أكثر من إسرائيل .

وأثناء اجتماع الحزب الاشتراكي الفرنسي حيث تم تناول هذه المسألة لم يتردد أحد المكلفين بمتابعة الشؤون الإسرائيلية في القول إنه ينبغي مساندة شارون لأنه يمثل حاجزاً أمام ناتينياهو^(٢) في حين أن الأمر لم يكن يستدعي أن يكون هناك مشقف كبير حتى يدرك - أبعد من التراجع الأخلاقي - أن حزب العمل سيسير ضد مصالحه الانتخابية بالبقاء في الحكومة ذاتها كشارون . وعندما قرر أخيراً مغادرة الحكومة في نوفمبر

١- لوموند ١٠ أغسطس (٢٠٠١) . " يبقائه في الحكومة قدم حزب العمل ذريعة لليمين وسائرا نحو كارثة انتخابية " كما صرح بن عامي أثناء استقالته . ولو قدم أحد أعضاء الحزب الاشتراكي الفرنسي هذه الملاحظة لكان أثار حفيظة غلاة الموالين لإسرائيل على الفور .

٢- قبل هذا القول في يونيو (٢٠٠٢) .

(٢٠٠٢) أعرب الحزب الاشتراكي الفرنسي عن ترحيبه ببيان صدر عن المكتب القومي للحزب، ولم يجرؤ أبداً على الإدانة قبل ذلك. ويعد ذلك سيذهب المكلفون في الحزب عن الشأن الإسرائيلي الى الرهان على بن اليعازر من الصقور ضد ميتزنا من الحمام الذي سيكسب مع ذلك الانتخابات الداخلية في حزب العمل. وقد أقرت حكومة شارون التي تشكلت في بداية (٢٠٠٣) مكانة متميزة لليمين المتطرف العنصري ودون أن يعلن أحد عن استيائه.

كان ينبغي أن يخفف كل هذا بصورة طبيعية من حماسة أولئك الذين يدينون صعود اليمين المتطرف في فرنسا الذي يرون فيه الدليل على معاداة السامية المؤكدة لهذا البلد.

وبالطبع، فلإن وجود مرشح اليمين المتطرف في الجولة الثانية من الانتخابات الرئاسية، والذي جاء ليؤكد تجذره على الخريطة السياسية منذ عشرين سنة، هو موضوع اهتمام لكل جمهوري. وواقع أن هذه الظاهرة منتشرة بقدر كبير في أوروبا لا يشكل عزاء. هل ينبغي أن نستخلص من هذه الظاهرة أنها تشكل دليلاً ساطعاً على انفجار العداء للسامية في المجتمع الفرنسي؟ لا، لأن لوبن يتحاشى بعناية من الآن فصاعداً التفوه بتصريحات معادية للسامية، مبقياً على انزلاقاته اللفظية مع العرب والمسلمين^(١). ويدعم علي العكس سياسة شارون، من جهة أخرى وبشكل مثير

١- كما أكدت الأسبوعية البريطانية المحافظة والليبرالية، حتى جان ماري لوبن قد أدرك "أن عليه أن يهدئ من معاداته للسامية وأن من الأفضل إدانة الاعتداءات التي يتعرض لها اليهود، بهدف التشهير بالمهاجرين المسلمين المكروهين. وقد وضع جان ماري لوبن نفسه في موقع المدافع عن اليهود الفرنسيين ضد الأعداء المسلمين وضد المهاجرين بشكل عام". الإيكونوميست، ٤ مايو (٢٠٠٢) "أوروبا واليهود".

للفضول، نجد أن صعود اليمين المتطرف فى هولندا وإيطاليا قد حظى بنقد أقل من قبل إسرائيل. لقد تمت عملية توظيف سياسى للنجاح الذى حققه لوبن فى الانتخابات بغرض محاكمة فرنسا المعادية للسامية وحتى لا يكون لها المشروعية إذن فى لعب دور فى الشرق الأوسط. وتأتى هذه الانتقادات من بلد يشارك فيه اليمين المتطرف فى الحكم. وفى فرنسا نجد بعض المساندين لهم يعربون عن فرحة مشابهة وأكثر تكتماً من جراء التحذير الذى تشكله هذه الظاهرة بالنسبة للعرب.

الفصل السادس

معاداة السامية فى فرنسا من منظور إسرائيلى وأميركى

الحوار الذى فجره المجلس التمثيلى للمنظمات اليهودية فى فرنسا، والمجمع الدينى المركزى، وبعض المثقفين من غلاة الموالين لإسرائيل، سيجد صدى خاصا فى بلدين هما إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية. من المنطقى أن تتابع إسرائيل مصير يهود العالم بدقة وعناية فائقتين. وفى الولايات المتحدة نجد أن الاهتمام الموجه لحقوق الإنسان ذو طبيعة انتقائية أحيانا، وغالبا ما تتبع الأخلاق هناك المصالح الجيوبوليتيكية. على أية حال، منذ عام (١٩٦٧) ومصير اليهود فى العالم يتابع عن قرب فى الولايات المتحدة الأمريكية. وليس هناك ما يثير الدهشة إذن فى أن هذين البلدين قد اهتمتا اهتماماً ملحوظاً بالنقاش الدائر فى فرنسا حول معاداة السامية. ويمكن الاعتقاد مع ذلك أنه إذا لم يكن هناك سواهما اللذان شعرا بهذا الوضع، فإن هذا يعنى أن المشكلة ليست خطيرة إلى هذا الحد الذى أراد البعض أن يصوره. وسيكون الأمر إهانة لمعظم الديمقراطيات الأخرى، ناهيك عن المنظمات الأخرى للمجتمعات المدنية التى تهتم بالدفاع عن حقوق الإنسان والكفاح ضد العنصرية، أن لا أحد منها قد اهتم بهذا الموضوع إذا كانت له خطورة نوعية وفعالية.

فى الحقيقة، وفيما يتجاوز القلق المعلن بشأن الاعمال المعادية للسامية فى فرنسا، توجد خلفية استراتيجية فى إسرائيل كما لدى الطائفة اليهودية بالولايات المتحدة الأمريكية، تتمثل فى إحراج فرنسا لأن سياستها فى الشرق الأوسط تزعجهما بشدة.

وهناك باعث آخر لدى إسرائيل وهو أنها تدعم بذلك الدعوة الموجهة لليهود الفرنسيين بالهجرة إلى إسرائيل.

وكان أرييل شارون أحد الأوائل الذين كشفوا عن الاشتعال الجديد للعداء للسامية فى فرنسا^(١). وبينما كان رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء الفرنسيين يحاولان ممارسة الضغوط على شارون حتى يعيد الحوار مع الفلسطينيين، كانت إدانة معاداة السامية المتنامية فى فرنسا وسيلة للإفلات من الإجابة على تدهور الأوضاع فى الشرق الأوسط. وكان مناحيم بييجين فى عام (١٩٨٢) قد استخدم على وجه الدقة الطريقة ذاتها^(٢).

ويعرف شارون أن التحدى الديموغرافى فى معركته ضد الفلسطينيين هو من التحديات الأساسية. ويظهر منحنى النمو السكانى أن الفلسطينيين سيكونون أغلبية فى معظم إسرائيل-الأراضى المحتلة من هنا إلى عشرين عاما. إلا إذا لجأت إسرائيل إلى إجراءات طرد جماعية- البعض يفكر فى ذلك- فإن الإسرائيليين سيضطرون سواء إلى التخلّى عن الطابع اليهودى لدولة إسرائيل، أو التخلّى عن طابعها الديمقراطى. ولكى يغطى هذا العجز حدد شارون ثلاثة أماكن ممكنة للهجرة نحو إسرائيل هى الأرجنتين وجنوب أفريقيا وفرنسا.

١- لوموند، ٨ يوليه (٢٠٠١).

٢- الاكتيوالبته اليهودية، ١٠ يناير (٢٠٠٢) "تنمية هجرة اليهود من فرنسا لإسرائيل بصفة نهائية".

ولا توجد بؤاغت كيرة لدى يهود فرنسا، المتنمجين تماما فى المجتمع، لكى يذهبوا بصورة جماعية للإقامة فى إسرائيل. ومن المعروف أنه أثناء حصول دول المغرب على استقلالها قرر اليهود السفارديم الفرنسيون الذهاب إلى فرنسا وليس إلى إسرائيل. كما أن تزايد المخاطر وغو الإرهاب الذى يضرب إسرائيل لا يمكن أن يدفع فى شئ إلى الهجرة نحو الدولة العبرية. لكن فى المقابل إذا حدث زعر، ونشأ لدى بعض يهود فرنسا شعور بأنهم مستهدفون بوصفهم يهودا من قبل أعمال معادية للسامية، وأنه بسبب السقوط والتواطؤ مع الاغلبية العربية لا تفعل السلطات العامة الفرنسية أى شئ لحمايتهم، إذن الرغبة فى الهجرة لإسرائيل يمكن أن تنبعث. ونظراً لأنهم يتعرضون للتهديد فإنه من الأفضل أن يذهبوا للعيش فى بلد تدافع حكومته عنهم أفضل من البقاء فى بلد يتركهم لمصيرهم الحزين، وخشيتهم من طائفة أخرى أكثر عدداً وذات طبيعة عدوانية تجاههم.

وأعلن وزير الاندماج والهجرة الإسرائيلى أن كل يهودى يأتى من فرنسا وجنوب أفريقيا فى (٢٠٠٢) سيتلقى بصورة تلقائية "Sal Klita" مساعدة مالية هامة تعطى منذ سنوات للمهاجرين من الاتحاد السوفيتى وبعض البلاد الأخرى غير أنها كانت تحجب حتى هذا الوقت عن المهاجرين من بلاد غربية.

والحال أن ألفا ومائتين من يهود فرنسا قد اختاروا الإقامة فى إسرائيل عام (٢٠٠١)، وهو أمر يمثل انخفاضا بنسبة ٢٠% بالمقارنة مع العام الفائت. وهو انخفاض يعود بصورة أساسية إلى الخوف الذى يثيره الوضع

الأمنى والاقتصادى فى إسرائيل^(١). وفى عام (٢٠٠٢) سيرتفع الرقم إلى ٢٥٦٦ (٢).

وحدد بيان وزير الاندماج والهجرة الإسرائيلى أنه من بين ستمائه ألف يهودى يقيمون فى فرنسا يوجد ٤٠٪ يعيشون فى محيط مسلم معادى، و ٣٠٪ يستخدمون الخدمات الاجتماعية للدولة الفرنسية. "وتقدم الموجة المعادية للسامية المنتشرة فى فرنسا فرصة لدولة إسرائيل لكى تعود بالاف من اليهود إلى إسرائيل" كما قال الوزير.

"لقد احتفظ أرييل شارون بحقية وزارة الاندماج والهجرة منذ أن أسس حكومته. وأظهر اهتماما واضحا لمطالب قادة الطوائف الفرنسية بإعطاء دعم أكثر ليهود فرنسا الذين يعودون نهائيا للإقامة فى إسرائيل. ونعرف أنه أثناء اللقاء الذى تم منذ عدة أشهر بين قادة الطائفة اليهودية بفرنسا ورئيس الوزراء الإسرائيلى، طالب جان كاهن رئيس المجمع الدينى المركزى من أرييل شارون أن يمنح يهود فرنسا الذين يرحلون لإسرائيل المساعدة المالية "Sal Klita".

ومع مرور الوقت وتدهور الأوضاع فى الشرق الأوسط واستمرار فرنسا فى تعزيز طريق السلام من خلال المفاوضات، وإظهار نقدها تجاه حكومة شارون، ستنمو فى إسرائيل الاتهامات حول تصاعد العداء للسامية فى فرنسا.

١- ليبراسيون، ٨ يناير (٢٠٠٣)، لوموند ٧ يناير (٢٠٠٣)، قدمتا رقم ٢٢٣٦ يهوديا فرنسا هاجروا إلى إسرائيل فى (٢٠٠٢).

٢- الاكيتواليتة اليهودية، ١٠ يناير (٢٠٠٢).

فى ٦ يناير (٢٠٠٢) وصف ميشيل ملشيسور، نائب وزير الخارجية الإسرائيلية، فرنسا بأنها "أسوأ البلاد الغربية فيما يتعلق بالعداء للسامية"^(١).

وفى ٢٠ فبراير، وفى خطاب أمام مسؤولى مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الأمريكية أعاد آرئيل شارون التأكيد على أن الطائفة اليهودية فى فرنسا قد يكون عليها أن تواجه "موجة خطيرة جداً من العداء للسامية". وأضاف قائلاً إن "هناك ما يقرب من ستة ملايين عربى (اليهود) يمكن أن يجدوا أنفسهم أمام خطر كبير، لهذا نحن نعد كل الاستعدادات لاستقبالهم فى إسرائيل" وأضاف شارون. هذه الأقوال تقول الكثير عن الطريقة التى يدرك بها رئيس الوزراء الإسرائيلى العرب أكثر من حديثه عن تصاعد العداء للسامية. من الظاهر كما يرى أنه منذ اللحظة التى يوجد فيها كثير من العرب فى مـــــان ما فإن اليهود بصورة تلقائية يتعرضون للتهديد، ولا يبدو ممكناً فى نظره أن تتعايش الطائفتان فى تناغم.

وقد أثارت هذه الأقوال عاصفة من الاحتجاجات والإيضاحات. وقد أكدت وزارة الخارجية الفرنسية فى ٢١ فبراير (٢٠٠٢) أن "إدانة فرنسا كبلد معاد للسامية شئ شنيع". وصرح إيلى بارنافى سفير إسرائيل فى فرنسا لإذاعة RTL أنه أمر "مبالغ به كثيراً" القول إن الطائفة اليهودية

١- لوموند ٢٣ فبراير (٢٠٠٢) "أرئيل شارون والعداء للسامية فى فرنسا".

فى فرنسا "مهدة بالعنف" (١). كما أكد روجيه كوكيرمان على ضرورة "إضفاء نظرة نسبية" على تصريحات شارون.

غير أن العديد من اليهود الفرنسيين لن يذهبوا إلى إضفاء نظرة نسبية على تصريحات شارون بل سيدينون حجج رئيس الوزراء الإسرائيلى (٢). ومع ذلك، فالحملة الدعائية لم تتوقف عند هذا الحد، إذ أن إيلى إشاى وزير الداخلية الإسرائيلى، من حزب شاس» الارثوذكسى" أثناء استقباله فى ٢٢ ابريل (٢٠٠٢) وفداً من قادة الطائفة اليهودية فى فرنسا فى زيارة للقدس، حث يهود فرنسا على "جمع حقائبهم والهجرة إلى إسرائيل".

وفى مجلة المنبر اليهودى الشهيرة أكد ديفيد ليفى وزير الخارجية الإسرائيلى السابق، فى مقابلة معه، أن الصحافة الفرنسية "تحمل مسئولية كبيرة" فى الاعتداءات على المصالح اليهودية فى فرنسا "وأن عليها أن تراجع ضميرها". وهذه التصريحات التى تماثل بين أى نقد أو حتى تساؤل وبين العداء للسامية يمكن أن تكشف عن خطر بالنسبة لأجهزة الإعلام الأجنبية فى إسرائيل، وتشبه فى الواقع حملة منتظمة من التخويف ضد الصحافة الدولية.

١- صرح للفيجارو ماغازين، ٢٦ اكتوبر (٢٠٠٢): "لقد استمعت إلى أشياء مجنونة عن اللاسامية الفرنسية المزعومة... الأمر الذى قد يؤدى إلى الاعتقاد بأن ناصية كل شارع فى باريس تشهد مذابح!... فلأراك الحقيقة والحقيقة هما شيان مختلفان"

٢- "النظر إلى أنه يكفى ليهود فرنسا الإقامة فى إسرائيل حتى يصيروا فى النهاية آمنين" ألا يعنى هذا ضمهم؟ اليس فى هذا نظرة لطافتهم كما لو كانت من الأشياء التى تزرع كمستوطنة؟" اختار السيد شارون لحظة غريبة ليقدم الضيافة الإسرائيلى ليهود فرنسا. وستساءل الخبشاء إذا لم يكن هو الذى يحتاج إليهم أكثر، ربما لسد النقص فى صفوف العسكر الشباب للجيش الإسرائيلى الذين سحقوا أثناء مهمتهم. لا يوجد عدد كبير من أفراد الطائفة اليهودية يريدون استبدال حماية شارون بقوانين الجمهورية" جورج والتر، "لا، شكراً أيها السيد شارون" الفيجارو ٤ مارس (٢٠٠٢).

وصعدت إسرائيل من موقفها ضد فرنسا، حيث ترى أنها تعمل لصالح الفلسطينيين، وكل ذلك لأنها تصر على تدعيم فرص حل تفاوضي وتفضل حلاً سياسياً وليس عسكرياً، وعلى أرضية من احترام القانون الدولي وستعمل إسرائيل كل ما في وسعها على تحقيق أقصى تقليص ممكن لهامش المناورة أمام الدبلوماسية الفرنسية في الشرق الأوسط. ويشكل الانهزام بالعداء للسامية جزءاً من هذه الاستراتيجية.

لقد دفع سفير فرنسا في إسرائيل ضريبة هذه الاستراتيجية. فثناء استقبال رئيس الدولة العبرية لأفراد السلك الدبلوماسي بمناسبة العام اليهودي الجديد، تقدم أحد الصحفيين الحاضرين من جاك هتزنجر، سفير فرنسا في إسرائيل، وطرح عليه سؤالاً: "هل يمكن أن نقارن بين ياسر عرفات وبين لادن؟ فأجاب هتزنجر بأن الإرهاب ينبغي أن يدان في كل الأحوال، لكن سيكون من غير المسئول تماماً المقارنة اليوم بين الوضع هنا ووضع الولايات المتحدة. هنا الإرهاب مرتبط بالصراع بين إسرائيل والشعب الفلسطيني."

وكان سفير فرنسا قد تحدث باللغة الانجليزية، لكن حدث تغيير صغير في الترجمة العبرية "سيكون أمراً غير مسئول المقارنة بين الإرهاب هنا والإرهاب في الولايات المتحدة". وكان هذا كافياً حتى ينطلق بعض المغرمين بالعناوين المثيرة في ضجة صاخبة "هتزنجر يعطى الضوء الأخضر للإرهاب" كما قال موشيه كاتساف رئيس إسرائيل. وصاح النائب شول ياهالوم (من الحزب القومي الديني، ووزير سابق) "ينبغي إعادته إلى باريس". وبطريقة رسمية أعتبرت وزارة الخارجية الإسرائيلية في القدس أنه

لو كانت الطائرات المختطفة قد ضربت برج ايفل لكان هتزنجر تحدث بطريقة أخرى. "مكانه ليس هنا" كما قالت مصادر معنية بالوزارة لأجهزة الإعلام. وقدمت الوزارة بصورة رسمية شكوى ضد السفير. واستدعى من قبل المدير العام، افيل جيل، لتقديم إيضاحات.

وقد صرح جاك هتزنجر إلى صحيفة ידיعوت أحرونوت في ٢٨ سبتمبر (٢٠٠١) "أنا لا أفهم مطلقاً كيف يمكن لصديق لإسرائيل مثلى أن يصير فجأة عدواً للشعب، وهو الذى اتهم عبد الناصر والملك حسين بأنهما من الغزاة"^(١)، والذى أمضى بصورة اختيارية فى فترة شبابه أشهراً فى كيبوتز هوجو شاريم. وتشير الصحيفة الإسرائيلية إلى أنه "فى مقابلة تليفزيونية قدم هتزنجر اعتذارات كما لو كان أحد يصبو مسدساً على صدغه".

ولا نتخيل فى بلد آخر أن يوضع سفير لفرنسا موضع تساؤل وبطريقة تجعله يوافق على تقديم اعتذارات بينما هو ضحية عملية تزوير. وينبغى الإقرار بأن هذا الاتهام فى طريقه إلى أن يصبح من الأمور المألوفة فى المجتمع الإسرائيلى، بما فى ذلك داخل اليسار. وهكذا، فى (٢٠٠٢)، قام رئيس حزب العمل ووزير الدفاع بنيامين بن اليعازر بتوجيه نقد شديد إلى نائب حزب العمل السابق يوسى بلين، وهو أحد قادة معسكر السلام فى إسرائيل، معيياً عليه أنه سبب أضراراً للحزب ومتهمين إياه بـ "معادة صرفة للسامية".

ومرة أخرى وضعت الصحيفة الإسرائيلية هاآرتس، الأمور فى نصابها،

عن طريق ما قاله عكيفا الدار " أى حكومة أجنبية تتسقد الاحتلال تتهم بصورة تلقائية بمعادة السامية، وكذلك الأمر بالنسبة لآى صحيفة أوربية تنشر قائمة انتهاكاتنا لحقوق الإنسان. ويبدو أن العداء للسامية صار نعمة لليهود. فإذا كان العالم بأسره ضدنا فماذا يفيد إخلاء المستوطنات والانسحاب من الاراضى؟" (١)

وأضاف الصحفى "من خلال خبرتنا الماضية مع أوروبا نعرف أن العداء للسامية لا يصدر بمرسوم من أعلى. واتفاق الشراكة الذى وقع مع الاتحاد الاوروبى فى (١٩٩٥) يثبت بكل تأكيد أن موقف إسرائيل هو الذى يدفع إلى استقبالنا بحرارة أو برود.

واتفاق الشراكة هذا، الذى يسمح لإسرائيل بمنافذ ذات أولوية إلى أسواق خمسة عشر بلداً بالاتحاد الاوروبى، كان مكافأة على اتفاقيات أوسلو. وكانت سياسة حكومة ناتنياهو، بعد ذلك، هى التى دفعت برلمانات فرنسا وبلجيكا إلى تأجيل التصديق على اتفاق الاتحاد الأوروبى - إسرائيل. وإذا كانوا فى النهاية قد صدقوا على الاتفاق، فى (٢٠٠٠)، فذلك لأنهم اقتنعوا بجهود السلام التى بذلتها حكومة باراك. الآن تصف الأحزاب السياسية الإسرائيلية البلجيكين بأنهم معادون للسامية لأنهم اتجهوا إلى إلغاء إتفاق الشراكة فى اللجنة الأوربية، باسم انتهاكات الحقوق المدنية والإنسانية فى الأراضى المحتلة. (٢)

١- وكالة الأنباء الفرنسية ٨ مارس (٢٠٠٢).

٢- هآرتس ٢٣ مايو (٢٠٠٢) "العداء للسامية هل هو 'نعمة' لإسرائيل؟".

٣- المصدر السابق.

فى الولايات المتحدة، حظيت الاعتداءات المعادية للسامية باهتمام كبير .
ويسرعة تم إثبات العلاقة بين هذه الاعتداءات والسياسة الفرنسية التى نظرت لها
على أنها "موازية للفلسطينيين" . ويقول دبلوماسى فرنسى " وإذا حاولنا تفسير
أن هذه الاعتداءات ظرفية وأنها من عمل شباب مسلم من أصل مغربى من
الغاضبين لأوضاع الشرق الأوسط، لا نجد استجابة أفضل ويتهموننا بأننا
أسرى هذه الاقلية فى انتهاج سياستنا فى الشرق الأوسط! " (١٠)

ومن المفارقة أن نرى أن النقد الموجه لإصفاء الطابع الطائفى على
الدبلوماسية يأتينا من الولايات المتحدة، وهو بلد تحدد سياسته الخارجية
على نطاق واسع انطلاقاً من وزن الطوائف المختلفة وقدرتها على التنظيم .

بيد أن أبلسة فرنسا على هذا النحو توفر مزيتين لأولئك الذين يتهمون
هذا المسلك، فهى تسمح بالتشهير ببلد ينظر إليه فى الغالب على أنه مثير
للإزعاج، لأنه يعتقد أن فى إمكانه ومن واجبه، باسم ماضيه العريق، أن
يعارض الولايات المتحدة الأمريكية . فى الولايات المتحدة هناك شئ ما غير
محتمل فى هذا الادعاء الفرنسى - باريس تريد أن تسافر بالدرجة الأولى
وهى تملك تذكرة بالدرجة الثانية، أى أنها تتمسك بخطاب عالمى بينما
وسائلها محدودة . ويسمح نقد فرنسا أيضاً بتقارب فكرى مع إسرائيل .
بالطبع لا توجد مؤامرة منظمة فى الولايات المتحدة بخصوص هذا الشأن،
وإنما مناخ ومسلمات فرضت نفسها ولم يعد يضعها أحد موضع تساؤل .
وصارت بعض الأقوال المكررة وغير الدقيقة بمثابة حقائق لا يمكن تجاهورها،

١ - اشتعال العداء لفرنسا بالولايات المتحدة الأمريكية " لىراسيون ١٣-١٤ إبريل
(٢٠٠٢) .

وتطورت كراهية فرنسا فى الولايات المتحدة أولاً حول ادعاء معاداة السامية قبل أن تنطلق هذه الكراهية بشأن الموقف الفرنسى من العراق.

فى ١٠ مايو (٢٠٠٢) أظهر البرنامج الشعبى جداً " حياة ليلة السبت " Saturday night live شريطاً مصوراً على خلفية أوكورديون متلائمة مع تعليق: " فرنسا بلد أشهر الطبّاعين، أشهر الرسامين، وأشهر المعادين للسامية. الفرنسيون جناء ومتشدقون، متفطرسون ومتعفنون، معادون لإسرائيل، معادون لأمريكا، ومعادون لليهود دائماً. " ألم يحن الوقت - تقول المعلقة - لكى نبدأ من جديد كراهية الفرنسيين "؟.

ويؤكد نيل جولد شتاين، المدير التنفيذى للمؤتمر الأمريكى اليهودى، بشأن الحوادث الأربعة التى تم إحصاؤها: " نحن نعرف أن هذه الاعتداءات من عمل شباب مسلم، لكن حكومتكم تتحمل نصيبها من المسؤولية بتصويرها إسرائيل كشیطان، وبرفضها معاقبة أعمال الانحراف العنصرى بشدة كافية".^(١) وبدون أن يستعيد مباشرة مثل هذا الاتهام تحدث جورج بوش وأخذ فى الاعتبار الا يناقضه: " ترفض أمريكا التحزب والتعصب. نرفض أى علامة على الحقّد تجاه العرب والمسلمين. نرفض الشياطين القديمة المعادية للسامية، التى حركت قتلة دانييل بيرل^(٢)، وأولئك الذين يحرقون المعابد فى باريس " صرح بذلك الرئيس الأمريكى تحت عاصفة من التصفيق، فى ٣٠ إبريل (٢٠٠٢) فى كاليفورنيا فى إطار استعدادات انتخابات الحزب.

١- الإكسبريس ٣٠ مايو (٢٠٠٢) " كراهية فرنسا صناعة أمريكية "

٢- صفحى أمريكى اغتيل فى باكستان لأنه كان يهودياً.

وكانت المجلة الأسبوعية The Weekly Standard، ذات التأثير الكبير في الأوساط المحافظة، قد جعلت عنوانها الرئيسي مصحوباً بصورة للعلم الفرنسي مع تحوير لشعار الجمهورية الفرنسية ليصير "حرية، مساواة، كراهية اليهود" (١).

وتظاهر عدة مئات من اليهود والموالين لإسرائيل، في ٢٦ أبريل في نيويورك، مطالبين بمقاطعة اقتصادية لفرنسا. من جهة أخرى وصفت المؤسسات اليهودية الكبرى فرنسا كبلد مخرب على غرار ألمانيا في الثلاثينيات. "يجد يهود فرنسا أنفسهم في حالة ضعف لم يعيشوها أبداً منذ الحرب العالمية الثانية" كما قال إبراهيم فوكسمان مدير جمعية موالية لإسرائيل هي رابطة مناهضة التشهير L'anti-Defamation league. ومن لوس أنجلوس أذان مركز سيمون فايسستال، من جانبه، "أكبر عملية هجوم ضد معابد يهودية أوربية وضد مدارس يهودية منذ ليلة الكريستال"، وحاول حث السواح الأمريكان على عدم الذهاب إلى فرنسا هذا الصيف" (٢).

من المؤكد أن فرنسا تعيش مشاكل اندماج وعنصرية. لكن ليس مؤكداً أن الطائفة اليهودية هي التي تعاني أكثر من غيرها في هذا الشأن. غير أن الولايات المتحدة (ناهيك عن إسرائيل عندما نرى المعاملة التي يعامل بها الإسرائيليون العرب) ليستا في الموقع الأفضل الذي يسمح بإعطاء دروس للآخرين حول موضوع مكافحة العنصرية. بالتأكيد سمحت سياسة

١ - The Weekly Standard، ٥ يونيو (٢٠٠٢)، مجلد ٧، عدد ٣٣.

٢ - الفيجارو ٢٢ مايو (٢٠٠٢)، "العداء للسامية يوقظ بوش".

الاندماج فى الولايات المتحدة بتحقيق بعض الأشياء التى لا تزال غير متخيلة فى فرنسا. على سبيل المثال نموذج كولن باول. لكن بالقدر ذاته نجد أغلبية السود فى وضع لا يحسدون عليه. وإذا أوقف البوليس الفرنسى شاباً يهودياً فإن لديه فرصاً أكثر فى الخروج بدون مشاكل من شاب أسود تم توقيفه من قبل البوليس فى مدينة أمريكية. ووفقاً لمنظمة "مراقبة حقوق الإنسان" فقد ارتفعت الاعتداءات الموجهة ضد المسلمين بنسبة ١٧٠٠٪ (نعم ألف وسبعمائة فى المائة) فى (٢٠٠١) بالولايات المتحدة فى مناخ ما بعد ١١ سبتمبر.^(١) ولم تجعل الصحافة الفرنسية من هذا موضوعها المفضل ! وأدان أيضاً كاتب الافتتاحيات شارل كرواساهمر الموالى لإسرائيل، صعود العداء للسامية فى أوروبا، قائلاً أن الأمر الغريب لا يكمن فى العداء للسامية اليوم، وإنما لغيابه النسبى زهاء خمسين عاماً، على النقيض من تراث ألفى أوروبى. فأحداث الهولوكوست جعلت الشيطان يدخل جحره أثناء النصف الثانى من القرن الماضى. وقد خرج من جديد الآن.

لكنه سيذهب بعيداً بقوله إن هذا العداء للسامية يتجه أكثر إلى أن يكون مصطنعاً وليس عداء صريحاً لليهود. فاليهود، بالنسبة له، قد يتم التسامح معهم وحتى قد يقبلوا إذا ظلوا فى أماكنهم. ولا يطرح اليهود مشكلة طالما هم بدون سلطة، وسليبيون، ومنظرهم خلاف. أما غير المسموح لهم، كما يرى دائماً، فهم أولئك اليهود الذين يرفضون قبول أن يكونوا ضحايا ولا شئ يمثّل ذلك أفضل من الدولة العبرية. لكن بين الأ

١- صحيفة مترو، ١٥ نوفمبر (٢٠٠٢).

يكون ضحية وبين المساندة الشاملة لعمل حكومة شارون، ألا يوجد بديل آخر؟

لقد وصل الأمر إلى حد أن منظمة يهودية أمريكية، المؤتمر اليهودي الأمريكي، دعت هوليوود إلى مقاطعة مهرجان كان السينمائي مقارنة فرنسا (٢٠٠٢) بفرنسا (١٩٤٢) : "معابد ومدارس يهودية تحرق، ويعتدى على اليهود في الشوارع...". ونشرت إعلاناً في variety et Hollywood Re-porter معنوناً "فرنسا (١٩٤٢) - فرنسا (٢٠٠٢)". (١)

أدان السينمائيان كلود لانتزمان وكلود لولوش هذا النداء. (٢)

وفي الفترة من ٦ إلى ١١ مايو ذهب وفد من المجلس التمثيلي للمنظمات اليهودية في فرنسا برئاسة روجيه كوكيرمان إلى نيويورك وواشنطن لشرح حقيقة أوضاع العداء للسامية في فرنسا، إلى المنظمات

١- لبيراسيون، ١٠ مايو (٢٠٠٢).

٢- بعد أن تشاورا مع وزير الثقافة والاتصال جان-كلود أياجون، وكذلك ادى استيخ، رئيس التحالف الإسرائيلي العالمي، وايريك روتشيلد رئيس النصب التذكاري للشهيد اليهودي المجهول، نشروا بياناً يدين أقوال المؤتمر اليهودي الأمريكي "إن المقارنة التي يؤيدها المؤتمر اليهودي الأمريكي جارحة لكل واحد منا نحن الفرنسيين، ولكل واحد منا نحن اليهود، والأكثر خطورة أنها مهينة لذكرى الشهداء الذين لا يمكن حصرهم في أحداث الشوا". ويشدد الموقعون على البيان "إذا كان بلدنا قد عرف بالفعل ولسوء الحظ عدداً معيناً من الأعمال المعادية للسامية إلا أنه لا يوجد ما يجعل الوضع في (٢٠٠٢) مشابهاً للوضع في (١٩٤٢)، بل يوجد ما يعارض بينهما في كل شيء". هذا ما يذكره النص قبل أن يتابع "معاداة السامية (١٩٤٢) كانت من صنع الدولة، حيث آلة القتل تعمل بأمر حكومة تخلت عن الجمهورية لصالح الاحتلال". ويخلص النص إلى أن "الأعمال المرتكبة اليوم هي أعمال منعزلة وقاومتها السلطات العامة بلا هوادة، وأدينت بصورة علنية من قبل كل المسؤولين السياسيين ومن قبل كل السلطات الأخلاقية والدينية في البلد، ومن قبل معظم مواطنينا" لوموند ١٤ مايو (٢٠٠٢).

الأمريكية. وصرح كوكيرمان لصحيفة لوموند "كان المسؤولون الأمريكيون يميلون إلى حد ما إلى الاعتقاد بأننا لا نعرف كيف نتناول الأحداث، وأن اليهود الفرنسيين لا يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم". وقد شرح زعماء المجلس التمثيلي لمحدثيهم أن مقاطعة فرنسا "ستكون عملا غير مفيد". وأنه كان ينبغي الانتظار "لرؤية ما اذا كانت الحكومة الجديدة ستظهر حزما أكبر من سابقتها" في البحث عن مرتكبي الأعمال المعادية للسامية ومعاقبتهم.^(١) ويمكن للمرء، مع ذلك، أن يطرح تساؤلات حول قدرة المجلس التمثيلي على التأثير. كيف لم يتمكن قادته من زرع الطمأنينة في نفوس أبناء عمومته الأمريكيين. فالتحذير من انتشار العداء للسامية في فرنسا، والتشهير بسلبية السلطات العامة في مواجهة هذه الأحداث، والحديث، كما يفعل المجمع الديني المركزي، عن ليلة كريستال، كل هذا قدم حججا للمنظمات الأمريكية. ويؤادنته موجة العداء للسامية في فرنسا وقع المجلس التمثيلي في الفخ الذي نصبه بنفسه.

بيد أن هناك حسابات ظاهرة أبعد من انفلات العاطفة غير المتحكم بها (واللاعقلاني قد تنشأ عنه ظواهر حقيقية). ففرنسا، في الشرق الأوسط وأماكن أخرى، هي أحد البلدان التي تقاوم أكثر من غيرها الأحادية القطبية الأمريكية مهما تعرض له هذا الموقف من صعوبات متزايدة في الشرق الأوسط. وتدافع عن حل تفاوضي كاشفة وهم الحلول العسكرية الخالصة التي يميل إليها شارون. وباتهامها بالعداء للسامية يمكن بذلك تفسير معارضتها لشارون، ويتم نزع مصداقيتها في ملف الشرق الأوسط أمام المؤسسات الدولية.

١- لوموند ١٤ مايو (٢٠٠٢).

من جهة أخرى، فإن أصدقاء إسرائيل الأكثر قرباً لن يحرموا أنفسهم من نقد السياسة الخارجية الفرنسية عندما تعارض الولايات المتحدة. وبما أن بوش قد صار أفضل حصن لشارون، فإنهم يصطفون كتلة واحدة خلف الاقتراحات والمواقف الأمريكية. وإذا كان من سوء الطالع لفرنسا أنها وقفت عالية الرأس أمام الولايات المتحدة، فإن غلاة الموالين لإسرائيل يشهرون بها بعنف ويحملون دعمهم إلى العم سام. وسنجد الافتراق ذاته بشأن الحرب ضد العراق وسنجد أن المسؤولين المناصرين للحرب والمعارضين للسياسة الفرنسية في هذا الشأن هم أيضاً غلاة الموالين لإسرائيل.

كثير من يهود فرنسا أدانوا بشدة، من جانبهم، هذه الحملة الدعائية القادمة من وراء الأطلنطي. ويرى هنري هاجين برج، الرئيس السابق للمجلس التمثيلي أن "المؤتمر اليهودي الأمريكي ليس جاداً والقول بأن فرنسا بلد لاسامي هو قول ينقصه على الأقل التمييز والتحليل... وباستثناء قادة اليمين المتطرف فإن كل المسؤولين السياسيين الفرنسيين قد أدانوا وحاربوا العداء للسامية"^(١)

واكد إدجار برونغمان، رئيس المؤتمر اليهودي العالمي، أن تجديد الاعتداءات اللاسامية لا يسمح مع ذلك بالقول إن فرنسا بلد لاسامي "وأن يكون الفرنسيون قد صوتوا لصالح لوين، رمز العداء للسامية، فهذا لا يعني أن الفرنسيين لاساميون."^(٢)

وفي السبت الحادي عشر من مايو (٢٠٠٢)، ووفقاً للمتحدث الرسمي بالليزيه، كاترين كولونا، فقد أعرب الرئيس الفرنسي جاك شيراك أثناء

١- "يهود فرنسا بين نارين" لوموند ١٧ مايو (٢٠٠٢).

٢- الفيجارو ٢٩ ابريل (٢٠٠٢).

محادثة تليفونية مع آريل شارون عن "استيائه صراحة من الحملة المعادية لفرنسا في إسرائيل، التي تهدف إلى تقديم فرنسا كبلد لاسامى فى الوقت الذى أعرب فيه الفرنسيون بصورة جماعية عن رفضهم للعنصرية وكرهية الأجانب واللامامية، وأن هذه الحملة مرفوضة" و "أنها لن تمر بدون عواقب". (١)

وفى واشنطن بوست، وفى الوقت الذى اعترف فيه بوجود أعمال لاسامية غير مقبولة، أعاد المفوض البريطانى المحافظ كريس باتن التذكير بأن هناك اعتداءات أخرى نالت من أماكن العبادة الإسلامية، وتساءل "عندما تعرضت بعض الكنائس التى يرتادها السود إلى حرائق، منذ عدة سنوات، هل كان ينبغى علينا فى الحال أن نستتج من ذلك أن جماعة الكلوكلوكس كلان تزحف إلى البيت الأبيض". (٢)

وفى الكتاب الذى أصدره عندما ترك وظائفه كسفير لإسرائيل فى باريس أقر إيلى بارنافى: "والحال وبالقدر نفسه وكما رأينا فإن فرنسا ليست بلداً لاساميا وكذلك ليست معادية لإسرائيل". (٣)

لقد رأينا حقاً أنواعاً مختلفة من التضليل فى الولايات المتحدة وإسرائيل تدعم خرافة فرنسا لاسامية. ويرى المرء طابعها الخطاى تماماً والمشوه والأحمق. ومع ذلك حدثت وتطورت بدون صعوبات من خلال قوة التضخيم الإعلامى.

١- لوموموند ١٤ مايو (٢٠٠٢).

٢- واشنطن بوست ٢٣ مايو (٢٠٠٢).

٣- فرنسا وإسرائيل مرجع سبق ذكره، ص ١٥٥، وتابع قائلا: "أكثر من عاصمة أوربية اليوم تظهر نقداً أكثر من باريس وأكثر من ممثل سياسى أوروبى يسمح بأحكام لو صدرت من فرنسا لكانت مثيرة للفضيحة. ويكفى المرور على الصحف الأسبانية واليونانية والاسكندنافية ليدرك المرء أن الصحافة الفرنسية مازال أمامها طريق فى الحقد على الدولة اليهودية".

الفصل السابع

الكيل بمكيالين

يرى غلاة الموالين لإسرائيل أن العداء للسامية يعيث فساداً في فرنسا. ويرى أغلب الفرنسيين أن هذا اللئاء إذا لم يكن قد اختفى تماماً فهو قد صار مستقراً. وليس كما هو حال العداوة مع العرب والمسلمين. فالطائفة المسلمة تتعرض أكثر من الطائفة اليهودية إلى الاستهداف بسهولة كبيرة وبدون محاسبة على صعيد النشر والحياة الفكرية.

هكذا نشرت الصحيفة أوريانا فلانسي كتابا بيع منه أكثر من مليون نسخة في إيطاليا. وترجم^(١) إلى اللغة الفرنسية وبيع منه ٧٥ ألف نسخة، وهذا ما جعله من أفضل مبيعات الكتب البحثية في العام. وسرعان ما أثار جدالاً. فهو عنيف بشكل خاص مع المسلمين، وينظر لهم كأنهم كتلة متناغمة وسلبية بشكل خاص. وتسمح بعض الاستشهادات بتكوين فكرة عن الفلسفة العامة للكتاب: "... المساجد التي (...). تعج حتى الغثيان بالإرهابيين والطامحين لأن يكونوا إرهابيين (...). وبصورة أو بأخرى فإن الأئمة هم المرشدون الروحيون للإرهاب".

ولا ينظر البعض إلى المؤلفة ككاتبة عنصرية بما أنها "تنظر إلى دين وليس إلى عرق" وكما تقول "لنا قضية مع حرب صليبية معكوسة"

١- العاصفة والكبرياء، دار Plon، (٢٠٠٢).

إن أبناء الله هم "أناس بدلاً من أن يسهموا في تقدم الإنسانية يمضون وقتهم وأردافهم في الهواء للصلاة خمس مرات في اليوم!"

وتأسف بالمقابل في أن "الروس الذين - بفضل المسلمين الشيشان- حصلوا مسبقاً على حصتهم من المذابح". واستمراراً لهذه المختارات من الاستشهادات تتحدث عن "أفراد يرتدون ملابس الانتحاريين الفلسطينيين الذين يبيعون أمهاتهم في أسواق الحريم من أجل رؤية اليهود وقد عادوا إلى معسكرات الإبادة وغرف الغاز وأفران حرق الجثث (...). إن أبناء الله يتكاثرون كالفئران (على نقبى الإيطاليين والأوربيين). إنهم إذن لا يشكلون هجرة بقدر ما يشكلون غزوا ينطلق تحت رمز الوقاحة... ويكفى من أجل طردهم أن يتم وضعهم في صفوف واقتيادهم حتى الموانئ والمطارات وإرسالهم إلى بلادهم".

وكتبت أوريانا فالانشى، ضمن حقاوات أخرى، أن القرآن لم يعط أبداً إلا "الكذب والعداوة والنفاق". وترى أن الاعتراف للعرب بدور في ابتكار الرياضيات هو كذبة قديمة، وأن المهاجرين المسلمين هم "عشائر دموية تحول المدن العظيمة كجنوه وتورين إلى قصبات(*)". هناك شيئ ما فى الرجال العرب يشير اشمزاز النساء ذوات الذوق الرفيع". وتدين انتشار محلات الجزارة الحلال الخ. ويتجاوز هذا الموقف إدانة عمليات ١١ سبتمبر والإرهاب الاسلامى. يمكن بالتأكيد القول إن أوريانا فالانشى لا تمثل إلا نفسها. لكن ما هو مثير للحيرة هو هذا الاستقبال الذى حظى به هذا الكتاب. وقد صرحت أوريانا فالانشى أنها بعد نشرها مقالا عن العداء للسامية فى المجلة الأسبوعية بانوراما بميلانو تلقت آلاف الرسائل

(*) القصة: قلعة يقيم فيها أمير أو زعيم فى البلاد العربية، وهى أصلاً فى العربية

بمعنى وسط المدينة أو القرية - قاموس روبير - (المترجم).

والشهادات من يهود عبر العالم يشكرونها. وأن "نيويورك بوست" حيتها بوصفها "الإجابة الوحيدة والأكثر بلاغة على الهوس المشين الذى تمارس به أوروبا دعايتها المعادية لإسرائيل. أما صحيفة وول استريت جورنال (صحيفة لها خط يميل إلى المحافظين الجدد وموال لإسرائيل) فقالت: "وصفتنى بأننى أمثل ضمير أوروبا"^(١)

وفى فرنسا خصصت مجلة لوبوان عشر صفحات وموضوعها الرئيسى فى منطقة PACA (بروفانس - ألب - كوت دازور). "طريقة فى التسويق لناخين لوبنيين مفترضين"^(٢)، كما تقول صحيفة لوكاتار انشنيه. هل يمكن أن نعتبر أن النشر حر، وأن حق كتابة مثل هذه الحماقات الحاقدة ينبغى أن يعترف به لكل فرد، وأن نقول إن كل ما هو مفرط متجاوز للحدود ليس له إلا أهمية قليلة. ولم لا؟! هل تخيل مع ذلك أن مجلة لوبوان تكرر المساحة ذاتها لكتاب يتحدث بعنف أيضا تجاه اليهود؟ هل تخيل ببساطة إمكانية نشر مثل هذا الكتاب فى فرنسا؟ لأن هناك أمرين: إما أنه لا ينبغى أن يكون هناك أى عائق أمام حرية التعبير، وأن ذكاء القراء وحده هو الذى سيعاقب المؤلف، أو أنه لا بد من الانتباه إلى ما ننشره وألا نتسامح مع كتب يمكن أن تكون مهينة لطائفة أيا كانت. والموقفان المختلفان لكل منهما منطق. لكن ما هو غير منطقي أن يختار المرء الموقف الأول فى بعض الحالات والثانى فى حالات أخرى.

ومن الطبيعى أن يشير كتاب أوريانا فلانشى العنيف استنكاراً بين المثقفين سواء المهمومين بتحاشى أى خلط أو المعادين للانحرافات العنصرية. وكان

١- "حول العداء للسامية" الفيجارو، ٧ يونيه (٢٠٠٢).

٢- "La voix aux chapitres" ٥ يونيه (٢٠٠٢).

يجب على الذين يدنون صمود العداء للسامية أن يتدافعوا إلى الصفوف الأولى.

كان الاستثناء الشهير هو برنارد هنرى ليفي الذى لم يجد أعذاراً لهذا الكتاب وأدانه جملة "هل ينبغى أن نناقش مثل هذا الكتاب؟ بدون شك لا. وإلى أولئك الذين يحاولون أن يجدوا فى هذا الكتاب شيئاً صحيحاً يحرك المياه الراكدة، والذين يقرون له بمزية كسر الصمت ضد سياسة الإجماع الذى يرضى الجميع، وأنه يخترق أحد المحرمات المزعومة فى الحديث عن الإسلام، أريد أن أقول شيئاً: إن أسوأ طريقة لخوض هذه المعركة (ضد التشدد الإسلامى) سيكون الخلط والمزج فى سبيل الاتهامات ذاتها بين السادات وقتلته، بين مسعود وطالبان، بين المسلمين المستيرين بسرايفوا وأنصار بن لادن" (١)

غير أن هذا الاتساق الأخلاقى والفكرى الذى يجب تحقيقه، كان مع الأسف حالة منعزلة. آخرون لم تكن لديهم مثل هذه الروح. وبدلاً من أن ينتقدوا بشدة كتاب فالانتشى نجدهم يقدمون له ظروفًا مخففة.

هكذا نجد بيسير-أندريا تاجييف، الذى يدين كثيراً كراهية اليهود لم يغضب بدرجة كبيرة من هذا الكتاب المعادى للمسلمين والعرب.

"المستهدف من هذا الكتاب، إذا أردنا التلخيص، هو العرب الإسلامى، وهو الأمر المستهدف من قبلى أيضاً وأنا أشارك الكتاب إذن الأرضية ذاتها. واعتبر كتاب أوريانا فالانتشى إذن كتاباً شجاعاً وواضحاً. وأشار كلها أيضاً القيم التى تدافع عنها، التى هى قيم الحرية الفردية

١- "أوريانا فالانتشى والإثارة غير المقبولة" لوبوان ٢٤ مايو (٢٠٠٢).

والعلمانية. ولايستخدم هذا الكتاب الصيغ السياسية التي ترضى الجميع. ولا تهتم أوريانا فالاتشى كثيراً بصيغ التوافق. وتجتهد فى قول حقائق مزعجة بشكل رهيب، عن بن لادن على سبيل المثال الذى صار بطلا فى العالم الإسلامى.

"أعتقد إذن أن أوريانا فالاتشى كانت صائبة تماماً حتى لو كانت بعض تعبيراتها صادمة. وهنا أبدى بعض التحفظات إزاء بعض العبارات التي لم أكن أكتب مثلها، ولم أكن استخدم بعض الصياغات التي يمكن أن توصف بأنها مفرطة وصادمة ولاسيما غير مفيدة. نقدى يتعلق أساساً بأسلوب الكتاب الهجائى إلى حد ما ، وليس بجوهره." (١)

ماذا كان سيقول تاجيف لو أن كتابا مشابها نشر عن اليهود؟ هل كان نقده سيتعلق بمجرد نقد الأسلوب وليس قيم الكتاب؟

وأضاف: "لقد ركزت على أن الاتهام بالعنصرية يستخدم كوسيلة لإسكات العقول الناقدة وتحجيم حرية التعبير. فالיום يتم توظيف معاداة العنصرية من أجل منع نقد تسييس الاسلام." (٢)

لقد كُتِبَ كل هذا من قبل مثقف يدين أى نقد لعمل حكومة شارون على أنه معاد للصهيونية وإذن معاد للسامية وفقاً لمنطقه.

يؤكد آلان فينكلكروت، من جانبه، أن "أوريانا فالاتشى لها مزية عظيمة فى أنها لم تخف أمام الكذبة الورعة. وذهبت إلى أعماق القضية واجتهدت فى مواجهة الواقع مباشرة". ويعترف مع ذلك أنها "ذهبت

١- actuj.com، ٢٥ يونيو (٢٠٠٢).

٢- المرجع ذاته.

بعيداً وخضعت للتعميمات^(١) - لقد عرفناه أكثر عنفا وخاصة أكثر عمومية في تقييمه النقدي.

وترى الصحيفة اليزايث شملا، والتي أنشأت موقعاً على الانترنت لمساندة الحكومة الإسرائيلية (proche. orcent. info) أن كتاب أوريانا فالانتشي متطرف إلا أنها مع ذلك ترى أن الذين يدينونها ليست لديهم الشجاعة في " فتح مناقشة كبرى من أجل مستقبل كل المجتمعات اليهودية المسيحية والآسيوية، فهؤلاء وأولئك مستهدفون من قبل المتشددين... وإذا كانت لديهم الشجاعة - بدلاً من أن يمارسوا الازدواجية باستمرار بقولهم أشياء إيجابية إلزامية عن الإسلام حتى يتمكنوا من قول ما هو أسوأ عن الإسلاميين عندما يفعلون ذلك - لم يكن كتاب أوريانا فالانتشي ليحظى بهذا النجاح الذي حققه. فكتاب فالانتشي الحاد، بعيداً عن أن يكون عرض لشعبوية ما قد يساعد على فهمها، هو كتاب يعبر أكثر عن صرخة غير محتملة ضد انحرافات الانهيار^(٢)

هل كان ينبغي توفر الشجاعة حقاً لنشر هذا الكتاب ؟ بالطبع لا. فالانتشي تتزلج على موجة كراهية الإسلام، والتي لم يفعل ١١ سبتمبر سوى أن دعمها. وبهجومها العنيف على المسلمين انطلاقاً من العالم الغربي فإن لها شجاعة الهجوم على الضعفاء^(٣).

١- لويوان ٢٤ مايو (٢٠٠٢).

٢- "إرهاي في مانهاتن" الفيجارو ٨-٩ يونيو (٢٠٠٢).

٣- ليراسيون ١٤ يونيو (٢٠٠٢)، "بدون عاصفة وبدون كبرياء" رد عليها إدريس جبالى : "أنا لن أوجه إليك شتائم ولا إهانات، أتوجه إليك ببعض الحرج. لكن أرفض ما يقال عن الشجاعة في كتابك، عمك لا يمكن أن يسجل إلا في نطاق موضة بارزة حيث صار من الشائع ومن الأمور الاجتماعية التشجيع بالمسلم والعربي والشرقي والمهاجر وابن المهاجر."

طالبت منظمة المراب . MRAP بعرض الأمر على المحكمة لمنع الكتاب بسبب " إثارة التمييز والحقد والعنف العنصرى " . وفى البداية لم تكن منظمة ليكرا Licra ترغب فى الاشتراك فى الشكوى إلا أنها غيرت رأيها بعد ذلك وطالبت بمنع الكتاب .

المفاجأة، من الذى سيظهر كمدافع عن أوريانا فالانتشى ؟ إنه وليام جولدندال ! رئيس منظمة " محامون بدون حدود " المحارب للعنصريين اللاساميين والمطارد لكل من يتجرأ على نقد حكومة أرييل شارون . فهل نتخيل ماذا سيكون عليه رد الفعل إذا كان هناك محام ملتزم فى الكفاح ضد العنصرية أو مساندة الفلسطينيين يظهر كمدافع عن كتاب عنيف فى معاداته للسامية؟

وفقا لوليام جولدندال : " نعم، الكتاب لعنة على المسلمين، ويمكن أن يعاب على مؤلفته أنها تمارس نزعة بدائية فى العداء للمسلمين، كما كان يعاب عليها سابقا عداؤها البدائية للشيوعية . وماذا بعد، ألم يكن ما فعلته بالأمس وما فعلته اليوم هو إطلاق ردود فعل السلطات العامة والمجتمع المدنى قبل أن يحدث كل شئ ؟ " . إلى أن يصل جولد نادل بطريقة صارخة إلى أن " الخطر اليوم هو خطر الفاشية الخضراء التى يريد البعض أن يمنع النقد الموجه إليها " (١)

يجب إدانة الحركة الإسلامية الراديكالية والإرهاب، لكن هل بممارسة مثل هذا الخلط؟ وهناك مجرد تساؤل . فلتخيل أن صحفيا أعد كتابا مشابها لكتاب فالانتشى وكان يتناول اليهود كما تناولت المسلمين ! هل كان كتابنا العظماء سيجمعون على ألا ينقدوا سوى الأسلوب

"المبالغ به إلى حد ما" للكتاب ؟ ولسترك الآن مجال الكتب البحثية لتعرف قليلاً على بعض ما تقوله الصحف .

فى مجلة لير الفرنسية، سبتمبر (٢٠٠١)، نجد فى مقابلة مطولة مع ميشيل هوليك التالى :

سؤال : 'بالنسبة للإسلام، لم يعد ما تعبر عنه هو الاحتقار وإنما الحقد؟'

جواب : "نعم، يمكن الحديث عن الحقد فالدين الأكثر غباوة، مع ذلك، هو الإسلام. وعندما يقرأ المرء القرآن يشعر بالصدمة... والانهار ! فالكتاب المقدس، على الأقل، كتاب جميل، لأن اليهود لديهم ملكة أدبية عجيبة..."

سؤال : 'شخصيتك الرئيسية فى الرواية وصلت إلى حد قول هذه العبارة : "فى كل مرة يصلنى خبر أن إرهابيا فلسطينيا أو طفلا فلسطينيا أو امرأة حامل فلسطينية قد تم قتلهم بالرصاص فى غزة يتتابنى شعور كبير بالحامسة"...'

جواب : "لم تكن لدى أبداً الفرصة لمعايشة شعور الانتقام. لكن فى الظروف التى يوجد فيها، من الطبيعى أن ميشيل (شخصية الرواية) تكون لديه الرغبة فى قتل أكبر عدد ممكن من المسلمين... نعم... نعم يوجد الانتقام. الإسلام دين خطر وهذا منذ ظهوره ولحسن الحظ أنه قد أدين"

وفى العدد اللاحق من مجلة لير أكد بيير أسولين أن هوليك جاءته مناسبات كثيرة لتكذيب الأقوال التى نسبت إليه ولم يفعل لأنها تطابق ما يفكر به وما كتبه .

لو أن هوليك قد قال عشر هذه الأقوال على الطائفة اليهودية، هل كان

يمكنه الاستمرار فى الكتابه بحرية؟ بالتأكيد لم يحصل على جائزة الكونكور كما اعتقد البعض فى لحظة ما، غير أنه خرج مستفيداً من هذه القصة. ورفعت ضده دعوى قضائية من قبل عدد من الجمعيات الإسلامية لكنهم خسروا القضية. وقد ترفع عن الحق فى حرية التعبير. ولم لا بالفعل؟ من الحقيقى أن حرية التعبير فى فرنسا كانت تكافح فى المقام الاول ضد الملك والكنيسة. وأنه من المؤسف دائماً أن نرى محاكمة لكتاب. وما هو أكثر إزعاجاً ليس أقوال هوليك وإنما تأكيد البعض أن هذا النمط من الأقوال يتسمى إلى مجرد الإثارة عندما يكون الاعتداء على المسلمين، ويتسمى إلى الحث على الحقد العنصرى إذا كانت هذه الأقوال تتعلق بطوائف أخرى.

إلى أى مدى يمكن أن تذهب حرية الفنان؟ وهل للإبداع حدود ينبغى أن يتوقف عندها؟ إنها مناقشة بلا نهاية حيث تتغلب الذاتية بالطبع. لكن ينبغى أن تكون المعايير ذاتها سواء كانت متساهلة أو متشددة، مطبقة بطريقة موحدة. لست مقتنعا - بعيداً عن ذلك - أن مناقشة الأفكار يمكن أن تمر عبر المحاكم. وأرى أن ما هو مفرط لن يكون له مدى بعيد فى الأغلب. لكنى أقول أيضاً لنفسى إذا كنت مسلماً، وإذا كنت عربياً قد تكون لدى القناعة أن دينى وهويتى يعتدى عليهما أكثر من الآخرين، وبسهولة أكثر وبدون مساءلة أكبر - على الصعيد القضائى والأخلاقي - وأن هذا لا يؤدي إلا لتدعيم مركز المتطرفين الذين يستفيدون من هذا الشعور بالرفض لكى يسبحوا فى مياه مواتية.

الفصل الثامن

اخطار تأثير الطوائف على السياسة الفرنسية

يعتبر فرانسوا ميتران بدون شك أكثر الرؤساء الفرنسيين محبة لليهود والأكثر قربا من إسرائيل، إلى درجة أن صعوده إلى الأليزيه قد أقلق إلى حد بعيد العواصم العربية في (١٩٨١). كما أن البعض قد تحدث في هذه الفترة عن وجود تصويت عقابي من قبل الطائفة اليهودية ضد جيسكار ديستان - المرشح المنافس لميتران - لأنه اعتبر معاديا لإسرائيل.

وعندما انتخب ميتران ألغى قراراً كان قد اتخذ قبل عام بموجبه قبلت فرنسا الخضوع للمقاطعة العربية.^(١) وكان أول رئيس دولة فرنسي يذهب إلى إسرائيل. وفي خطابه الشهير بالكنيست، في مارس (١٩٨٢) (٢)، الذي أعلن فيه أنه سيلتزم باللغة ذاتها في باريس أو القدس أو في العواصم العربية، وأنه يؤيد مبدأ حق إسرائيل في العيش في أمن وداخل حدود آمنة ومعترف بها، وحق الفلسطينيين في امتلاك دولة. وكان هذا - ينبغي الاعتراف بذلك - استشرافا للمستقبل في هذه الفترة. وهذا لم يكن ليغفره له أبداً اليمين واليمين المتطرف في إسرائيل.

١ - كانت الدول العربية تستثنى من معاملاتها التجارية الشركات التي لها علاقات اقتصادية مع إسرائيل.

٢ - انظر النص الكامل في فرانسوا ميتران - تأملات حول السياسة الخارجية - دار فايار (١٩٨٦) ص ٣٣٥-٣٤٦.

فى العام ذاته، ويوم العملية التى جرت فى شارع روزيه، وبينما ميتران يتنقل إلى موقع الحادث ليعلن تضامنه مع يهود فرنسا، كان أعضاء فى حركة البيتار Betar يستقبلونه بصرخة "ميتران قاتل ١".

وصرح منحيم بيجين، رئيس الوزراء الإسرائيلى الذى بدأ غزو لبنان فى يونيه (١٩٨٢)، وهو الغزو الذى أدانه ميتران : "إن الجريمة التى ارتكبت فى قلب باريس هى نتيجة للإشارة والتلميح إلى Oradours (*) ومواقف معادية لإسرائيل عن عمد - وهى أيضا معادية لليهود - فى الصحف وفى معظم وسائل الإعلام الفرنسية. ومن جديد تتردد فى شوارع باريس هتافات الموت لليهود كما كان عليه الأمر فى زمن قضية دريفوس. أنا فخور أننى رئيس وزراء إسرائيل الديمقراطية لكننى قبل كل شئ يهودى، وإذا لم تتدارك السلطات الفرنسية مظاهرات النازيين الجدد، وقتل اليهود لمجرد أنهم يهود فقط فلن أتردد - كيهودى - فى دعوة شباب شعبنا فى فرنسا للدفاع عن حياة اليهود وكرامتهم!^(١) وهى لغة تشبه بشكل غريب اللغة التى سيستخدمها شارون فيما بعد بعشرين عاما تقريبا، فى أعقاب انطلاق الانتفاضة الثانية.

لن يغفر هذا اليمين واليمين المتطرف فى إسرائيل لميتران أنه نظم رحيل عرفات من بيروت المحاصرة فى (١٩٨٢).

وعندما أقر هذا الأخير فى (١٩٨٨) بوجود إسرائيل، لم يكن هناك موانع لدى ميتران لكى يستقبل قائد منظمة التحرير الفلسطينية فى باريس. وستتحرك المؤسسات الرسمية اليهودية لمنع هذه الزيارة.

(*) اسم مدينة فى فرنسا تم حرق ٦٤٣ شخصا بها داخل كنيسة، منهم ٥٠٠ امرأة وطفل، كإجراء إنتقامى من قبل الألمان. وظل إسم المدينة شاهداً على الوحشية والبربرية النازية - قاموس روبير (المترجم)

١ - ذكره بيير باين فى: الإرادات الأخيرة والمعارك الأخيرة، دار بلون (٢٠٠٢) ص ٧٩-٨٠.

ونشر المجلس التمثيلي للمنظمات اليهودية فى فرنسا نصا يدين استقبال "الإرهابى" عرفات، وناقدا لفرنسا التى تفقد روحها فى مبادرات إعلامية ربما تكون بلا مستقبل. "أليس من حق الفرنسيين أن يستعلموا عن السياسة الخارجية التى تدار باسمهم ؟ نعم، نحن مستأوون كمواطنين لمدنا التى تعرضت لعمليات إرهابية تم التخطيط لها طويلاً فى معسكرات فلسطينية تحت مسئولية مباشرة لمنظمة التحرير الفلسطينية. فهل باريس، التى أدميت كثيراً، ستستقبل ياسر عرفات قبل أن ينطق كلمة أسف واحدة ويدون أن يستمع إلى كلمة إدانة واحدة؟" (١).

ونشر بيير باين محضر اللقاء الذى تم بين ممثلى المجلس التمثيلي وفرنسا ميتران فى ١١ مايو (١٩٨٨) وحيث صرح الأخير : "أنتم جتتم لرؤيتى بوصفكم مواطنين فرنسيين. حقا سيصوت اليهود كما يريدون. وأرى جيداً أن هناك رد فعل غير مؤيد لى أو للسياسة التى انتهجها. أنتم تفعلون ما يحلو لكم، لكن دعونى أقل لكم إن هذا الأمر لا أهمية له، ففرنسا شئ آخر، إنها تشمل قطاعات أخرى كثيرة غير الطائفة اليهودية" (٢).

وحتى قبل الكشف عن علاقاته السابقة مع رونييه بوسكيه، تعرض ميتران الرئيس الأكثر محبة لليهود إلى هجوم شديد لأنه ابتعد عن سياسة اليمين الإسرائيلى. وكان يعاب عليه، إضافة إلى ذلك، موقفه لا إزاء الطائفة اليهودية الفرنسية وانما إزاء الحكومة الإسرائيلىة.

١- ذكره بيير باين المرجع السابق ذكر ص ٨٣. المؤلف يشدد على: "عندما يكون قطاع كبيراً من الطائفة مستعداً للانخراط فى معركة ضد رئيس منتخب بصورة قانونية لكى تجعله يغير سياسته، لماذا لا يكون من غير الملائم وصفها باللوى ووصف عملها بأنه عملية لوى؟ هل تتحرك المنظمات التمثيلية اليهودية بدافع من التشكيلات السياسية الرئيسية الإسرائيلىة؟ ولا يخفى القطاع الأكثر نشاطاً وابطه القوية مع الليكود."

٢- بيير باين، مصدر سبق ذكره، ص ٨٩.

وأنشأ المجلس التمثيلي تقليد العشاء السنوى فى وسط الثمانينيات. وصار مع الوقت موعداً ملزماً للطبقة السياسية الفرنسية. قد يحدث أن يطلب منها تأكيد تضامنها مع يهود فرنسا. وسيطلب منها أيضاً أن تؤكد تضامنها مع إسرائيل ومع السياسة التى تنتهجها حكومتها، وهما ليسا شيئاً واحداً.

ولم يكن هذا الأمر يطرح مشاكل تذكر عندما يكون هناك التزام بعملية السلام. ويطرح هذا الأمر مشاكل أكثر عندما تكون عملية السلام فى مأزق أو فى طريقها لأن تهدم. ليس هذا مزعجاً عندما تكون سياسة الحكومة الفرنسية والإسرائيلية متقاربة، ويحدث الإزعاج عندما تكون هذه السياسة متباعدة. ولنتلاحظ فى هذه الحالة أن مسئولى المجلس التمثيلى دائماً ما يطلبون من الحكومة الفرنسية تغيير موقفها، ولم يفعلوا ذلك أبداً مع الحكومة الإسرائيلية. من المشروع تماماً لدى يهود فرنسا أن يطالبوا - وهو ما يتمناه كل المواطنين الفرنسيين - بالآى ينقل صراع الشرق الأوسط إلى فرنسا. لكن لماذا إذن، أثناء العشاء السنوى للطائفة اليهودية فى فرنسا توضع فى القائمة باستمرار قضية صراع الشرق الأوسط ذاته، ويُشار على قادة البلد بالسياسة الحسنة التى ينبغى عليهم اتباعها، أى فى الأغلب الانحياز غير المشروط إلى مواقف الحكومة الإسرائيلية؟

هكذا، على سبيل المثال، فى نوفمبر (٢٠٠٠)، أثناء العشاء السنوى احتج هنرى هاجين، الذى ينظر إليه اليوم على أنه معتدل ومكروه من قبل اليمين فى الطائفة اليهودية لأنه ساند عملية السلام الإسرائيلية - الفلسطينى، ضد دعم فرنسا لقرار الأمم المتحدة بإدانة إسرائيل لـ "الاستخدام المفرط للقوة" فى قمعها للانتفاضة الفلسطينية. وموجها كلامه إلى رئيس الوزراء الفرنسى، ليونيل جوسبان: "أنت ساهمت شخصياً فى

إعادة التوازن للموقف الفرنسى أثناء زيارتك للقدس فى فبراير. هل يمكننا أيضا أن نأمل فى أن يكون لفرنسا سياسة أخرى غير تلك التى تتمثل فى إدانة إسرائيل فى الهيئات الدولية ووصفها كما لو كانت المذنب الوحيد للمواجهات مع المتظاهرين الفلسطينيين، وكما لو كانت هذه التمردات قد انطلقت بصورة عفوية، وكما لو لم تكن هناك مسئولية لياسر عرفات فى رفض مفاوضات السلام وحدوث المواجهات وهذا ما يذهل السيد هاجين برج. فالموقف الفرنسى السائد لا يشكل سياسة ولا دبلوماسية متوازنة. وبخروج فرنسا من الموقف المتوازن فإنها تضع نفسها من جديد خارج اللعبة."

وهكذا فإن كل ما لا يشكل انحيازاً تاماً وواضحاً فإنه ينظر له ليس فقط كمعارضة وإنما كعداوة. ولم يتردد روجيه كوكيرمان، وهو الذى ينظر إليه على أنه من المقربين لحزب الليكود، حزب أرييل شارون، أمام رئيس الوزراء ليونيل جوسيان، أثناء العشاء السنوى (٢٠٠١)، فى التهجم على السياسة الفرنسية: "أولئك الذين يعملون فى القنصليات، ويتقنون انتهاكات إسرائيل للحق الإنسانى سيجدون أمامهم أفقا واسعا إذا بذلوا جهداً فى توسيع مجال رؤيتهم." (١)

ومضى يقول: "ما الذى يأمله المجلس التمثيلى فى هذا الشأن من الحكومة الفرنسية؟ أن تكون سياستها فى الشرق الأوسط متوازنة". والتوازن كما يراه كوكيرمان يميل إلى حد ما لصالح إسرائيل. فى الواقع يتضمن هذا القيام بضغط على عرفات (لكن ليس على شارون بالطبع).

ويعنى أيضا قبول إسرائيل فى الفرانكوفونية^(١). و "الاعتراف رسميا بواقع بسيط وحقيقى هو أن القدس عاصمة دولة إسرائيل". وهذا الواقع البسيط والحقيقى لم يعترف به لا القانون الدولى ولا أى دولة ولا حتى الولايات المتحدة الأمريكية^(٢). فضم القدس وإعلانها من طرف واحد عاصمة لدولة إسرائيل قد أدانتها الأمم المتحدة. باختصار فإن رئيس المجلس التمثيلى يدعو بهدوء رئيس الوزراء الفرنسى للقيام بمبادرة يكون من شأنها عزل فرنسا تماما باعترافها بإجراء غير قانونى لم تعترف به الجماعة الدولية.

وأثناء عشاء ٢٥ يناير (٢٠٠٣)، وفى الوقت الذى كانت فيه فرنسا تعارض واشتطن حول آفاق الحرب على العراق، كان روجيه كوكيرمان يحض فرنسا على القيام بـ "كفاح متصر ضد التعصب".

"والذين يخشون أن الكفاح ضد الإرهاب لا يعرض حرياتنا للخطر يخطئون فى الأولويات كما كان الأمر فى السابق مع دالديه وشمبرلين"، كما قال إشارة إلى رئيس الوزراء الفرنسى والبريطانى اللذين وقعا فى عام ١٩٣٨ اتفاقيات ميونيخ مع المانيا النازية، معتقدين أنهما بذلك يتجنبان الحرب العالمية الثانية^(٣).

وهذا الموقف الفرنسى المهموم بتجنب حرب ضد العراق، والمنطلق من احترام سيادة مجلس الأمن بالأمم المتحدة، والذى ينطلق من إرادة فى

١ - الموافقة ينبغى أن تتم بالإجماع، ليس إذن فرنسا وحدها التى تغلق باب الانضمام أمام إسرائيل.

٢ - اعترف الكونغرس الأمريكى بالقدس عاصمة لإسرائيل، لكن البيت الأبيض لم يتبع الكونغرس فى هذه النقطة.

٣ - وكالة رويتر ٢٦ يناير (٢٠٠٣).

العمل من أجل ألا يشتعل الشرق الأوسط، قدمه روجيه كوكيرمان إذن كموقف يميل إلى التخاضل.

فى الواقع كوكيرمان يرفع صوته ضد الدبلوماسية الفرنسية. بالنسبة له ليس هناك منذ نصف قرن وزير خارجية كان لديه تعاطف مع إسرائيل. "وذلك نتيجة التعليم المعادى لإسرائيل، وهو تعليم يبنى كاثوليكي ومعاد للسامية ويرضعه الدبلوماسيون من أثداء أمهاتهم"^(١).

وإذا كان من المشروع تماما وجود مثل هذه اللحظات من اللقاء والأخوة كالتى يوفرها العشاء السنوى للمجلس التمثيلى، فهل من المبرر أن يتحول إلى موعد للسياسة الخارجية؟ وألا توجد مخاطرة فى المدى القريب أن تريد طوائف أخرى أيضا القيام بعشاء سنوى على قدم المساواة مع الطائفة اليهودية، ويدعون بدورهم مختلف المسئولين السياسيين ويحددون بذلك (ومعهم ما يحددون به) من هو العدو ومن هو الصديق لهذه الطائفة المعنية؟ ولماذا لا ينظم غداً الكاثوليك والبروتستانت والمسلمون أو البوذيون حدثاً من هذا القبيل؟ ولم لا ! وبعد ذلك، العلمانيون والماسونيون وكل العقائد مجتمعة؟

وسيدّهب الصحفى الكسندر أدلر، الملتزم بشدة بقضية إسرائيل، إلى حد كتابة "فرنسا هى العدو المعلن لإسرائيل".^(٢) هل نقول إن فرنسا هى العدو المعلن لكل بلد آخر عندما تنتقدها وهو نقد يقع، فضلا عن ذلك، ضمن حدود المطالبة باحترام قواعد القانون الدولى. فيما عدا ذلك فإذا كانت فرنسا حقا هى العدو المعلن لإسرائيل فما هى النتائج الشخصية التى يستخلصها أدلر ذاته؟ فيما يبدو فإن تضامنه الأول لن يذهب إلى فرنسا.

١- هآرتس، ٢٨ سبتمبر (٢٠٠١).

٢- الكسندر أدلر، شاهدت نهاية العالم القديم، دار جراسيه (٢٠٠٢) ص ٣١٣

ألم يدرك أنه إذا أخذ كلامه حرفياً قد يضع عديداً من يهود فرنسا المرتبطين بإسرائيل في وضع مستحيل؟ وأن هذه الحجة يمكن أن تستخدم بدون صعوبة من قبل المعادين للسامية، والذين يمكن أن يؤيدوا بدون خجل فرضية الطابور الخامس؟ لا، إسرائيل وفرنسا ليستا أعداء. يمكن أن يوجد بينهما مع ذلك تباعدات، وحدث أن تعارضتا مرات عديدة منذ عام (١٩٦٧).

أما بالنسبة للحملة التي تعرضت لها^(١) شخصياً فإنها تجعلني أتساءل ماذا كان سيحدث لو تجرأت وكتبت "إسرائيل هي العدو المعلن لفرنسا".

وعندما نرى الحملات التي يقودها اليمين الإسرائيلي ضد الحكومات الفرنسية المختلفة والتي لم تؤيد لسوء حظها احتلال الأراضي الفلسطينية، هل يمكن القول أن إسرائيل هي العدو المعلن لفرنسا؟ فرنسا لم تضع أبداً موضع تساؤل وجود إسرائيل وحدودها المعترف بها دولياً وحققها في الأمن.

ليس هناك صوت يهودي في الانتخابات^(٢). فالتنوع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للطائفة يجعلها توزع أصواتها بالطريقة ذاتها كبقية الفرنسيين، باستثناء أقلية صغيرة من الأصوات تعود لليمين المتطرف. غير

١- انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب.

٢- انظر سيلفي استرودل، الصوت اليهودي، مطبوعات العلوم السياسية، (١٩٩٦)، ص ٣٧٣. كرسى أطروحتها في العلوم السياسية لهذا الموضوع. تقول: "على اختلاف مع التصورات المعادية للسامية المعبر عنها في اتفاقات "بروتوكولات حكماء صهيون" أو في "النقابة اليهودية"، فإن فكرة الصوت اليهودي التي تم اتباعها في فرنسا بمبادرة من جماعات أو تيارات يهودية منظمة يمكن التعرف عليها تقريبا، وتسعى إلى نقل أشكال من التبشير الديني إلى التبشير السياسي. وبعد ذلك استعاد اللاساميون بوعي أو بدون وعي فكرة الصوت اليهودي التي وجدوا فيها تعبيراً جديداً عن القدرة اليهودية السرية والغامضة." مرجع سبق ذكره ص ٣٦ و ٣٧.

أن الممثلين الرسميين للطائفة لا يعكسون هذا التنوع . هكذا يؤكد روجيه كوكيرمان : . . . هناك الحرب في إسرائيل ، هناك الخطر لكل يهود فرنساأعتقد اننا اليوم نتحدث بصوت واحد وموحد خلف إسرائيل . ، (١) يمكن ان نشير الي نماذج أخرى عديدة لهذا التداخل بين النقاش حول الشرق - الأوسط والحياة السياسية الفرنسية .

لقد هنا شارون الطائفة اليهودية الفرنسية لأنها "الأكثر نضالاً لصالح إسرائيل" في أوروبا . (٢)

ولم يتردد حاييم موريكان ، مدير المجلس التمثيلي ، في القول : "نحن قادرون على تأكيد إخلاصنا لإسرائيل حتى عندما يكون ذلك على نقیض مع السياسة الفرنسية" . (٣)

وأكد الأميرال ميشيل دارمون ، رئيس جمعية فرنسا إسرائيل ، أنه " منذ عشر سنوات والطائفة اليهودية قد ضلت معركتها ، فليس لوبن عدونا وإنما السياسة الخارجية الفرنسية . (٤)

كما أعترف إيلي بارنافي : " لدينا في المجلسين أصدقاء مخلصون ، والبعض منهم منظم في جماعات صداقة نشطة " (٥) . أكثر من جماعات الصداقة في طول البلاد وعرضها نجد عضواً برلمانيا اقترح مؤخراً على زملائه اليهود في كل الأحزاب أن يشكلوا جماعة ضغط مؤيدة لإسرائيل . ولحسن الحظ تم رفض هذا الاقتراح من قبل كثير من البرلمانيين اليهود .

١- آرش ، عدد ٥٢٠ يونيه (٢٠٠١)

٢- يوشا شيبتر "Jewish telegraphic Agency, French Ties" أغسطس (٢٠٠٢)

٣- المرجع ذاته

٤- الشهادة المسيحية ، ٦ يونيه (٢٠٠٢) أستشهد بها دومنيك فيدال "باسم المعركة ضد العداء للسامية" لوموند ديبلوماسيك ديسمبر (٢٠٠٢)

٥- إيلي بارنافي ولوك روزين فايج ، فرنسا وإسرائيل مرجع سبق ذكره ، ص٦٣ .

وأعرف شخصيا عدداً كبيراً من النواب المنتخبين يفضلون تجنب الحديث عن الشرق الأوسط، أو تأكيد تضامنهم من حيث المبدأ مع إسرائيل بسبب حذرهم الانتخابي أكثر من قناعتهم. فهم يخشون رد فعل سلبي - ناهيك أنهم يبالغون بشأنه - لقطاع محدود من الطائفة اليهودية لكنه ذو تصميم وفعالية. نموذج آخر "Proche-orient-info" وهو موقع إعلامي على الأنترنت عن الشرق الأوسط ومؤيد لحكومة شارون، يعرب عن سعادته لانه "ساهم في مدينة استراسبورج في إسقاط روبيير جروسمان، الرجل القوي في حزب التجمع من أجل الجمهورية في الإلزاس، أثناء الانتخابات التشريعية الأخيرة"، في اللحظة ذاتها التي كسب فيها اليمين الانتخابات بصورة كبيرة في فرنسا نظراً للروابط المقترضة مع مسئول حزب المسلمين في فرنسا^(١).

كيف نفسر أن موقعاً الكترونياً للإعلام الذي يدعى أنه يريد تقديم معالجة موضوعية للمشكلة - يعرب عن فرحه لأنه تدخل في العملية

١- في ١٣ مايو الماضي، يوم انطلاق موقع proche-orient.info، قدم بورنريه للأطرش مسؤول حزب المسلمين في فرنسا ومشيراً إلى تجرؤ الصحافة المحلية على إعلانه، أي العلاقات السياسية بين هذا الإسلامي وروبير جروسمان. وقد تم تداول ورقة الموقع هذه في استراسبورج، وفي راديو جوديك. وقد استعاد إرمان يونج هذه المعلومة وقام بتوزيعها بنفسه في اليوم التالي في صورة منشور.

ولم يتردد محرر الموقع في إضافة: "هذه القرابة غير العادية تكشف مفاجآت أخرى. فاليمين المتطرف كان يشك في أن روبيير جروسمان من المؤيدين لبناء المساجد. وعن هذه الحجة نشر بياناً مشتركاً مع الجبهة الوطنية ر MNR واليمين المتطرف الإقليمي داعين لهزيمته في ١٢ يونيو. "الجلوس على المائدة مع الشيطان حتى لو كانت معنا ملعقة كبيرة سنخسر الانتخابات" www.proche-orient.info : ٢٧ يونيو (٢٠٠٢). فيما يبدو لا يحتاج هذا الموقع إلى ملعقة كبيرة ليجلس على مائدة كبيرة مع الجبهة الوطنية و MNR واليمين المتطرف الإقليمي.

الانتخابية الفرنسية ! المخاطرة بالطبع هي الانحراف على الطريقة الأمريكية حيث سيكون وزن الطوائف^(١) هو الذى يحدد السياسة الخارجية على نطاق كبير .

" الغموض يكتنف بصورة متزايدة الحدود بين المواطن والطائفة . وتم تجاوز هذه الحدود عندما اعتبر مسئولو الطائفة اليهودية بفرنسا أن المسلمين بصورة جماعية بمثابة خصوم لهم . وعندما يتجمعون ، كما فى سارسيل لتشكيل قوائم انتخابية ، أو عندما يحاولون الدفاع عن أنفسهم فى مواجهة العداء للسامية .

" وتم تجاوز هذه الحدود أيضاً عندما ينشأ حزب للمسلمين فى فرنسا ينشد الاقتراع الانتخابى وفقاً لمعايير طائفية وينشر هجائيات أكثر عنفاً فى معاداتها للسامية " .

لقد كان زعيم اتحاد الطلاب اليهود بفرنسا محقاً فى ملاحظته السابقة . فالتنظيم الطائفى للبعض يقضى بالضرورة إلى التنظيم الطائفى للآخرين . يقف النائب الاشتراكى الأوروبى فرانسوا ريمارى ، طواعية إلى جانب

١- تشير افتتاحية بصراحة ، فى Information juif (١٨ مارس ١٩٧٧) إلى نقل النموذج الأمريكى لفرنسا : " إن الناخب اليهودى فى هذا البلد الذى يشعر بأنه مهتم بإسرائيل له الحق وعليه الواجب فى أن ينظم نفسه لكى يعطى صوته إلى أولئك الذين يساندون البلد الذى يشكل نموذجاً وطموحاته وتوحداً مع نموذجها الخاص وطموحاتها الخاصة . وهكذا اكتسب الصوت اليهودى أهمية خاصة فى الولايات المتحدة والذى ينبغي أن يؤخذ كنموذج فى كل البلاد الديمقراطية ، وفى المقام الأول فرنسا حيث لا يكون التضامن مع إسرائيل مجرد ذكرى فقط مع الماضى وإنما ضمان للحاضر والمستقبل خاصة . " استشهدت به سيلفى استرودل مرجع سبق ذكره ص ٣٦ .

رأى الحاخام الأكبر سيتروك. وفي حالة من الانزعاج، حتى لا نقول
الوجوم، لدى النواب الآخرين في مجموعته، كرس زيمارى الأساسى من
نشاطه البرلمانى الأوروبي فى الدفاع والمناوبة عن سياسة شارون. ولم
يتوقف عن نقد بل وإنهاء علاقة الاتحاد الأوروبي بالسلطة الفلسطينية. ومن
حق زيمارى كمناضل أن يعبر بحرية عن دعمه لحكومة يمين أو يمين متطرف
وحتى وإن كان ذلك مزعجا على الصعيد الأخلاقى بالنسبة لشخص يقول
إنه يتسبب لليسار. وكممتخب، فينبغى عليه أن يلتزم باحترام قواعد العمل
الديمقراطى. وهذا هو الحد الأدنى الذى ندين به للنائحين والحزب الذى
بفضله انتخبنا. وزيمارى قد تجاوز ذلك بنشاط ودون أن تعيده الهيئات
الحاكمة بالحزب إلى قواعد العمل. وإذا كان ينبغى أن يظهر من جديد فى
الانتخابات الأوروبية فى (٢٠٠٤) على قائمة الحزب الاشتراكى، فإن هذا
يعنى أن هذا الأخير قبل عن معرفة بالأمر إرسال مناصر لشارون فى مقاعد
البرلمان الأوروبي باستراسبورج.

وبيير لولوش الذى يقدم نفسه كمدافع لا يلين عن إسرائيل يرى أن
"للطائفة اليهودية المنظمة دورا عليها أن تلعبه. فالنموذج الجمهورى، شئنا
أم أبينا، والبوقة الجمهورية التى ينصهر فيها الجميع قد تعدلت من الآن
فصاعداً. نرى هذا جيداً فى الضواحي. فقد غمت على أرضنا، على مدار
عشرين سنة، طائفة مسلمة تمثل فى الوقت الراهن ما يقرب من ستة إلى
ثمانية ملايين من الأشخاص، منهم أربعة ملايين هم من الفرنسيين. هذا
واقع. وأمام ظهور الطوائف على هذا النحو ينبغى أن نعيد التفكير فى
النظام. وقد يتضمن ذلك أن تقوم الطائفة اليهودية بتنظيم نفسها أيضا

وإعادة هياكلها بصورة تسمح لها بالدفاع بطريقة أفضل عن مصالحها أمام هذا المعطى الجديد. (١)

نحن أمام انقلاب فى المنظور مثير للفضول من قبل بيير لولوش المقتنع بأن الحزب الاشتراكى قد كسب بلدية باريس فى (٢٠٠١)، لأنه عرف كيف يكسب بصورة أفضل الصوت اليهودى. وأن استعادة هذا الصوت من جديد هو أحد المفاتيح الأساسية فى تحقيق انتصار اليمين فى العاصمة الفرنسية فى انتخابات (٢٠٠٧). ويبدو أنه يعتقد أن الطائفة اليهودية غير منظمة، وأنه ينبغى بصورة ضرورية أن تعيد تنظيم هياكلها حتى تستطيع مواجهة الطائفة المسلمة الأكثر عدداً (وهو أمر لا جدال فيه) والتى تعرف تماماً كيف تسمع صوتها (وهو أمر بعيد عن الحقيقة). إن التشنج الطائفى لا يحمل شيئاً. وليس له من نتائج إلا تنظيم مماثل للطائفة المسلمة. وهكذا أسس محمد الأطرش حزب مسلمى فرنسا والذى يضم الفين من المنتسبين له. ومع تزايد الانفعال الذى نتج عن أحداث الشرق الأوسط قام بتنظيم مظاهرات سمحت لحزب الله وحماس أن يعلنوا عن أنفسهما بصورة علنية. وقال فى تفسير أسباب إنشاء حزبه "لكى نحرر المسلمين فى فرنسا من تأثير الحزب الاشتراكى المتصهين" (٢)

وتدريجياً يتم نقل صراع الشرق الأوسط إلى فرنسا، والدخول فى الدائرة الجهنمية لعمليات برور تأثير الطوائف. وهو أمر لن يكسب منه أحد، الطائفة اليهودية أكثر من غيرها. لأن قانون العدد فى النهاية لن يكون فى صالحها بصورة آلية. وأبعد من ذلك ستكون الجمهورية هى

١- المنبر اليهودى، عدد ١٥٢٤، فى ٣١ يناير (٢٠٠٢).

٢- لويوان، ٢٤ مايو (٢٠٠٢).

الخاسر عندما تصير مجرد حاصل الطوائف. لهقا ينبغي تغليب لا وزن كل طائفة وإنما المبادئ العالمية. ويسبب تأكيدى على هذه البديهة العادية كت موضوعاً لفتوى من جانب غلاة الموالين لإسرائيل.

الفصل التاسع

فتوى(*) فى باريس

إذا كنت قد أثرت فى هذا الكتاب مسألة شخصية، فليس هدفى من ذلك الحديث عن نفسى، وإنما لإظهار أى انحرافات وأى تشويهات للحقيقة وأى أحقاد يمكن أن يثيرها فى فرنسا الملف الإسرائيلى - الفلسطينى .

فى أبريل (٢٠٠١) كنت قد حررت مذكرة سياسية عن الصراع الإسرائيلى-الفلسطينى، وأرسلتها إلى فرانسوا هولاند وهنرى ناليه، وهما على التوالي السكرتير الأول والسكرتير الدولى للحزب الاشتراكى.(١) انطلقت هذه المذكرة من تساؤل واجهنى منذ زمن طويل: لماذا لا نطبق فى الشرق الاوسط المعايير والمبادئ ذاتها كما فى الصراعات الأخرى؟ لماذا نقبل الانتهاكات المستمرة للقانون الدولى واتفاقيات جنيف وقرارات الأمم المتحدة وعدم احترام مبدأ التقرير الذاتى للحقوق الفلسطينية؟ ألا يوجد تناقض إضافى بين واقع الانتساب ليسار ووضع المبادئ العالمية جانباً فى هذا الصراع ذى الطبيعة الخاصة؟ ولماذا نتدخل عسكرياً لصالح الكوسوفيين بينما نقر مع ذلك سيادة يوغسلافيا على كوسوفو، ونرفض ممارسة ضغوط فعلية على الحكومة الإسرائيلية، عندما ننكر على إسرائيل السيادة على الأراضى

(*) من الضرورى التنويه هنا بأن المؤلف يستخدم كلمة فتوى بالمعنى الشائع لها فى الغرب بعد فتوى الخمينى ضد سلمان رشدى، وليس بالمعنى الفقهى للكلمة فى الثقافة الإسلامية - المترجم ١٠- أنظر نص المذكرة فى ملحق هذا الكتاب.

المحتلة؟ كيف يمكن تفسير هذا فى لحظة يتم الابتعاد فيها عن عملية السلام وحيث القمع يتزايد أكثر فأكثر ضد الفلسطينيين بدون أن يجلب مع ذلك - بل على العكس - الأمن لإسرائيل؟ باختصار هل يمكن أن نتسبب إلى اليسار ونتقاعس عن نقد سياسة حكومة شارون؟

وأنا أقر بالعوامل التاريخية لهذا الاستثناء، وبالأخطاء التى وقع فيها الفلسطينيون. ومن البديهي أنه لا يوجد هنا، ولا فى أى مكان آخر، طرف يملك الصواب بصورة مطلقة، وآخر يتحمل كل الأخطاء. وكنت أؤكد مع ذلك أن هذا لا يبرر الإبقاء على سياسة الكيل بمكيالين بالمقارنة مع الصراعات الأخرى. أو يبرر هذا التوازن الزائف المتمثل فى المساواة بين مسئوليات المحتل والذى يتعرض للاحتلال.

وأثناء محادثتى عن هذا الموضوع، وعندما كنت أواجه فى الغالب بالحجة ذاتها - كل هذا ليس من قبيل الزيف لكن لا يمكن أن نتحرك لدواع انتخائية - كنت أشدد على أنه فى مرحلة معينة من انتهاك المبادئ، على البواعث الانتخابية أن تزول. بل وأكثر من ذلك فإن الفجوة بين المبادئ المعلنة وعدم احترامها قد يصير غير مفيد على الصعيد الانتخابى، وأنه فى النهاية ينبغى معالجة صراع الشرق الأوسط لا من زاوية الوزن الذى تتمتع به الطائفة وإنما انطلاقاً من المبادئ العالمية.

وبوصفى مدرساً للعلاقات الدولية كنت أشعر أيضاً بالدهشة من تطور وعى الطلاب. فعندما كان يثار موضوع الشرق الأوسط منذ عشرين عاماً كانت الآراء تتجه مناصفة بين أنصار طرفى النزاع. أما اليوم فالغالبية العظمى تحمل المسئولية الرئيسية - وليست الوحيدة - على إسرائيل^(١).

١- إلى بارنافى ذاته أقر ذلك حيث أعلن استيائه من أنه يواجه صعوبات فى الحديث أمام جمهور الطلاب. فى كتابه فرنسا وإسرائيل مرجع سبق ذكره، ص ١٠٥-١٠٧.

باختصار كانت هذه المذكرة تجمع عدداً معيناً من النقاط ، وليس فيها فى النهاية ما يشكل انقلاباً كما سيلاحظ القارئ عند قراءته لها فى ملحق الكتاب . ومع ذلك ستحدث ضجة كبيرة وستوزع بكثافة بدون علمى . غلاة الموالين لإسرائيل ، والذين يفضلون تضامناً طائفيًا شاملاً على حساب المبادئ العالمية ، فى حالة من التأثر خشية أن يغير الحزب موقفه فى هذا الشأن . وعلى نقيض الموقف التقليدى للحكومات الفرنسية من اليسار أو اليمين ، بل على نقيض موقف فرانسوا ميتران ذاته ، لم يكن الحزب الاشتراكي يرغب أبداً فى الابتعاد عن حكومات إسرائيل ، على الأقل فى الحالات التى كان فيها حزب العمل الإسرائيلى فى السلطة . وما كان يمكن أن يستوعب تماماً عندما كانت إسرائيل تسعى لتأسيس السلام مع الفلسطينيين ، صار عصياً على الفهم عندما شارك حزب العمل فى حكومة يقودها آرييل شارون . ولم يخف أبداً هذا الأخير معارضته لعملية السلام ، وسيثبت بعد ذلك كم كان متسقاً مع نفسه .

وكان وجود أعضاء من اليمين المتطرف أو من غلاة المتدينين فى الحكومة يجعل مسار حزب العمل أكثر استغلاقاً على الفهم . ويؤكد كثير من الإسرائيليين من اليسار ، بالطبع أقلية ، إن هذه المشاركة لا يمكن أن تكون إلا عملاً موجهاً لتدمير عملية أوسلو (مرة أخرى أيضاً حتى إذا كانت كل المسئوليات لا تقع على عاتق إسرائيل وحدها) ، وتحرم الإسرائيليين بالإضافة إلى ذلك من بديل سياسى واضح .

وستثير هذا المذكرة ضدى غضبا وحتى حقداً . وسأصير موضوعاً لحملة منظمة . إنها فتوى فعلية أطلقت ضدى . كيف يمكن أن نفسر أن التذكير بالمبادئ الأولية يمكن أن يطلق مثل هذه الردود من الأفعال؟ ومع التأمل وجدت عدة تفسيرات لذلك .

التفسير الأول هو أنني وضعت الإصبع على شئ ما مزعج، أى التفكير الطائفى. وكان هذا من المحرمات، وينظر له على أنه يستند إلى التمييز بين اليهودى وغير اليهودى. ولا شئ أكثر زيفاً من ذلك، لأن هناك كثيراً من اليهود المعارضين لسياسة شارون فى الحزب الاشتراكى. والحال أن المسافة بين المبادئ السياسية لليسار أو المبادئ الإنسانية ببساطة ووضع الشرق الأوسط هو الذى يدفع إلى تشنج مواقف البعض. ولا سيما أنهم كانوا لا يشعرون بالراحة عندما يرون أن سياسة إسرائيل صارت موضوعاً للنقد أكثر فأكثر. كما أن المسافة التى صارت أكثر وضوحاً بين المبادئ العالمية وسياسة إسرائيل قد عرت طابعهم الطائفى.

والتفسير الثانى أننى لست عربياً أو مسلماً. وإذا كنت هذا أو ذاك لاعتبر البعض أننى ألعن دورى كمدافع عن الفلسطينيين. وهكذا كان موقفى سينظر له على أنه سلوك طائفى يتكيف معه الكثيرون، غير أننى تدخلت فى هذا النقاش دون أن تكون هناك أى مصلحة خاصة أَدافع عنها، تحركت فقط انطلاقاً من قناعة، وهذا لم يغفر لى.

والتفسير الثالث أننى طبقت على هذا الصراع المبادئ العالمية (احترام القانون الدولى، حق الشعوب فى تقرير مصيرها بنفسها، احترام حقوق الإنسان) بينما كان يريد أولئك الذين يملكون رؤية طائفية أن يعالج الصراع وفق مبدأ الاستثناء. ويرفضون تطبيق المبادئ ذاتها التى نطبّقها فى الصراعات الأخرى على الصراع الإسرائيلى، وينوعون فى البواعث التى تعطى هذا الصراع ملمحاً استثنائياً، وهكذا يتوقف المبدأ العالمى بوضوح على أبواب الصراع الإسرائيلى-الفلسطينى.

وأخيراً، أعتقدت أننى أدركت أن التفسير الرابع يكمن فى أن هذه

المذكورة قد وصلت إلى ليونيل جوسبان، وأنه ربما قد أعرب عن موافقته على خطوطها الرئيسية. وليونيل جوسبان اعتبر دائماً كواحد من أكثر الأصدقاء المخلصين لإسرائيل بين الإشتراكيين الفرنسيين. فعندما كان يشغل منصب السكرتير الأول للحزب الإشتراكي أعرب في الثمانينيات عن موافقته على النقل المحتمل لسفارة فرنسا من تل أبيب إلى القدس؟ وهو أمر يعنى اعتراف بضم إسرائيل للمدينة، وهو ما لم تكن دولة قد فعلته حتى هذا الوقت. وبرغم مساندته الدائمة لإسرائيل وربما بسبب هذه المساندة - أدرك بدون شك المأزق، حتى لا نقول البئر، الذى قاد إليه شارون شعبه.

شرعت فى هذه الفترة فى حوار عبر البريد الإلكتروني مع مراسلين إسرائيليين كانوا قد حصلوا على نص المذكرة دون أن توجه إليهم وأرسلوا لى حججاً مضادة.

قررت أن أنشر مقالاً انطلاقاً من هذه المذكرة، مستعيداً منطقها العام ومستبعداً للعناصر التى كانت تشكل تساؤلاً مباشراً لقادة الحزب الإشتراكي.

أرسلت المقالة فى منتصف شهر يولييه ونشرت فى ٤ أغسطس على أعمدة صحيفة لوموند. وكنت أعتقد أنها ستمر فى صمت فى عز الصيف. ولم يحدث شئ من هذا. وكنت قد أخذت معى الكمبيوتر المحمول أثناء الإجازة، وفوجئت على الفور بغزارة الرسائل والشتائم والاحتجاجات والتهديدات. وأجبت على أغلبها بادئاً فى حوار مع البعض منهم. وحدث الشئ ذاته فى موقع الاتصالات بمعهد العلاقات الدولية والاستراتيجية حيث تم تلقى العديد من المكالمات، وقام بعض المتهورين

بإهانة بعض المتعاونين معي . وفي ٨ أغسطس نشرت جريدة لوموند رداً من إيلي بارنافي سفير إسرائيل في باريس ، الذي هاجمني بشدة ومشككاً في المذكرة الداخلية التي أرسلتها للحزب الاشتراكي ، زاعماً أن هناك وراء تقديمي المغرض وعلامات تشير إلى رغبة في نزع المشروعية عن دولة إسرائيل ، وأنتى كنت أقف على "حدود العداء للسامية" . لا يمكن الشك في أن إيلي بارنافي مثقف بارز وتقدمي . لكنه كان آنذاك ، على الأقل ، ومهما كانت علاقاته مع اليسار الفرنسي ، سفير بلد أجنبي .

وأكد لي كثير من الأشخاص بعد ذلك أن النزعة الخطائية في مقال بارنافي هي التي جعلتهم يكتشفون مقالتي ، وأنه كانت لديهم صعوبة في إدراك العلاقة بين المقالين ، وأن عنف الرد لا يتطابق مع فحوى مقالتي .

هل كان ذلك تنفيذاً لأوامر تل أبيب بتشديد اللهجة في مواجهة النقد الذي تتعرض له إسرائيل؟ هل أراد بارنافي إظهار أنه كسفير وفي لحكومته الجديدة (كان قد عين من قبل حكومة يسار في فترة باراك) وأنه يمكن أن يقوم بأشياء لا يمكن للمؤرخ أن يتجرأ على القيام بها^(١)؟ هل كان ينبغي تجنب اتساع المسافة بين الحزب الاشتراكي والحكومة الإسرائيلية ، والتصويب على شخص لا يشغل أى مسئولية؟ لقد أثار مقالتي ورد بارنافي عاصفة صغرى .

١- في كتابه "فرنسا وإسرائيل" ، مرجع سبق ذكره ص ١٤ أقر أنه عين من قبل حكومة حزب العمل وسيجد نفسه بعد ذلك مع حكومة اتحاد قومي . واقترح عليه أصدقاءه من اليسار في إسرائيل وفرنسا أن يستقيل "حتى لا يؤمن على سياسة يعرفون مسبقاً أنها كارثية" . لكنه لن يفعل ذلك لأسباب من بينها "تجنب السخرية الناجمة عن ترك منصب شغله منذ شهرين فقط" في فترة كانت هزيمة باراك ، كما يرى ، متوقعة . ويصف في كتابه صورة قاسية لشميون بيريز الذي عاب عليه أنه كان متمسكاً دائماً بالسلطة . وقامت الحكومة الإسرائيلية بإقالته ولم تكن له فرصة أن يقدم هو استقالته .

ابتداء من ٦ أغسطس كتب كليموفايل-راينال، رئيس جمعية الصحفيين اليهود بفرنسا^(١) إلى سيرج فاينبرج، رئيس مجلس إدارة معهد العلاقات الدولية والاستراتيجية IRIS، مؤكداً له أن مقالى كان شائناً ومطالباً بأن يجد تقريره المعارض وتقرير وليام جولدنادل صدق داخل الهيئات المديرة للمعهد.

ويعتبر فايل راينال أن "خطابى قد أثار انفعالاً كبيراً داخل الطائفة اليهودية التى تجدد نفسها على هذا النحو موضع تساؤل بصورة جماعية، وترى أنها حرمت من حق مشروع فى مساندة إسرائيل ضمن الحوار الديمقراطى". وهو يرى، إذا فهمنا جيداً، أن الحوار الديمقراطى ينبغى إذن أن يسمح بمساندة إسرائيل وليس نقدها. بدون شك لقد أخطأت فى استخدام مصطلح الطائفة اليهودية، لكن الذين يرفضون بصورة راديكالية هذه الفكرة هم تماماً أولئك الذين يتقدون ممثلها الرسميين. هؤلاء الآخرون لم يترددوا فى استخدام مصطلح الطائفة الذى هو بدون شك غير علمى تماماً لكنه يشيع فى اللغة الدارجة. على أى حال لم أقدم فى شئ هذه الطائفة بوصفها طائفة متماسكة أو تشكل كتلة واحدة.

اتهمت أيضاً بـ "جعل الطائفة اليهودية مسئولة مسبقاً عن موجة جديدة من العداء للسامية التى يمكن أن تصيبها إذا، لم توافق على القيام "بتوبة" جماعية بالوقوف إلى جانب حججى الباطلة، وأن هذا الانحراف وهذا الاعتداء عبر اللغة المستخدمة لا يمكن إلا أن يكون ضاراً بسمعة المعهد داخل مجلس الإدارة الذى تشرفون عليه. ونحن نعلم أيضاً أننا يمكننا دائماً اعتباركم من بين أصدقاء إسرائيل فى فرنسا. ولكل هذه الأسباب نعرب

١- الجمعية لا تجمع أغلبية الصحفيين اليهود بفرنسا، الذين لم توجه إليهم أى دعوة للانضمام إليها ولا تمثل سوى بعض الأصدقاء حول رئيسها.

لكم عن تأثرنا فى الوقت الذى نأمل فيه أن يجد هذا الأمر صدق داخل الهيئات المشرفة على معهد (IRIS) .

ترى ماذا كان يقول السيد كليموفايل-راينال إذا كتبت جمعية موالية للفلسطينيين إلى إدارة القناة الثالثة للتعبير عن تأثرها فيما يتعلق بالمواقف التى يدافع عنها بصورة متكررة، بتقديم نفسه تارة كرئيس جمعية الصحفيين اليهود بفرنسا، وتارة كصحفى بالقناة الثالثة؟ سبرى أن هذا من الأمور غير المقبولة ! ماذا يمكن أن نرى فى هذا الأسلوب المتمثل فى عدم الرغبة فى إجراء حوار مع شخص ما، والتوجه مباشرة إلى من يعتبر أعلى منه فى سلم العمل، ليطلب منه توقيع عقوبات؟ وسألاحظ بعد ذلك أن هذا الأسلوب يعتبر من المقومات الراسخة فى عمل غلاة الموالين لإسرائيل من اليمين أو من اليسار. ولا يتوجهون أبداً إلى من يتهمونهم، لأنه غير جدير فى نظرهم، وبشكل خاص لأنهم يخشون المناقشة العلنية التى لا يمكن أن تسير فى صالحهم.

ويفضلون البقاء فى نطاق عمل غير مباشر يتجه نحو أطراف أخرى يمكنها أن تعاقب متهماً ليس له الحق بالطبع فى الدفاع عن نفسه. وهذه الأساليب غير الجديرة بالاحترام تكشف الكثير عن أولئك الذين يستخدمونها. وتذكرنا هذه الأساليب واللغة المستخدمة بها بشكل غريب بأساليب اليمين المتطرف فى الثلاثينيات.

وسأكتشف بالإضافة لذلك أن السيد كليموفايل-راينال ذاته ليس من عاداته أن يربك نفسه بمهارات غير مفيدة. فقد كتب، فى الشهر السابق لذلك، إلى جان بيير الكباش يتهمة بشأن تعليق له على المكاهابيد^(١) الذى لم يرق له، بأنه يقف إلى جوار أسوأ أعداء إسرائيل والسلام.

١- لقاءات دولية مخصصة للأندية الرياضية اليهودية الموزعة عبر أنحاء العالم.

وعبر التلفزيون وعبر الكمبيوتر المحموك لم تتوقف الرسائل عن الظهور بالئات. بعضها تهائى وبعضها الآخر نقد والكثير من الإهانات المتزايدة والحافلة ببعض التهديدات لتشكل إجراء رادعاً. ولم يكن لردود الأفعال هذه شى من العقوبة، وكانت تظهر بصورة منظمة. وامتلاً موقع التلفزيونات بمعهد العلاقات الدولية بالمكالمات أيضاً، وتكدست أكوام الرسائل البريدية وكان من بينها طلبات عديدة موجهة إلى سيرج فاينبرج حتى يأخذ موقفاً رافضاً لى أو يستقيل من مجلس إدارة المعهد.

وهناك طلبات أكثر تحديداً أرسلت إلى أعضاء بـ مجلس الإدارة ينتمون إلى الطائفة اليهودية الفرنسية. رد فعل غريب. أكان ينبغى على أن أحصى أعضاء مجلس الإدارة الذين ينتمون الى الطائفة اليهودية؟ بالتأكيد لم أدرك الأمر أبداً على هذا النحو، ولم أقم أبداً بإحصاء لهؤلاء أو أولئك. وسيكون دائماً هذا الأمر بالنسبة لى غير وارد على الإطلاق. بيد أن الأساليب التى يستخدمها غلاة الموالين لإسرائيل، كما نراها، قد تدفع بالبعض للقيام بذلك. ولا يعدو الأمر فى النهاية سوى واحدة من اثنتين. إما أن تكون أقوالى معادية للسامية حقاً، وحيثذ يكون على كل أعضاء معهد العلاقات الدولية أن يتبرأوا منها، فمكافحة السامية لا تقع على عاتق اليهود فقط. وإما أن تكون أقوالى ليس فيها شىء من هذا، وأن الأمر حقاً، من جانب الذين يديرون حملة ضدى، هو إجراء طائفى يؤدى منطقاً، مرة أخرى، إلى انحرافات غاضبة.

ومن غريب الصدف أن العضو الذى أعرفه أكثر فى مجلس الإدارة، ومنذ وقت بعيد، والذى عملت معه أكثر من غيره، ونشرت معه كتاباً فى عام (١٩٨٥)، فرانسوا هيسبورج، هو الذى سيفتح النار.

فى خطاب أرسل فى ٢٠ أغسطس إلى سيرج فانبرج، والذى وصلت منه نسخة إلى كل عضو فى مجلس الإدارة، ويتهمنى أننى جعلت يهود فرنسا مسئولين عن سياسة إسرائيل. ولم ير من المناسب أن يتحاور معى مباشرة عن اتهام على قدر كبير من الخطورة.

كيف نفسر أن صديقاً منذ عشرين عاما تقريبا قد اكتشف فجأة بين ليلة وضحاها أننى كنت معادياً للسامية، ولم يبحث حتى فى تبديد شك خطير بهذا القدر من خلال اتصال مباشر؟

لقد أجاب عليه سيرج فانبرج بطريقة جافة بما فيه الكفاية مندهشاً من "إجراء قليل الاحترام" يتمثل فى القيام بمحاكمة نوايا لى بالعداء للسامية مؤكداً له أن محاولته تنتمى بالأحرى إلى موقف عام سلبى إزاء معهد العلاقات الدولية^(١) والاستراتيجية.

نشرت لوموند فى ١٣ أغسطس رداً على مقالى كتبه المحامى بير-فرانسوا فيل. وكان يعيب فيه على أننى أصدرت تهديداً "بالإزاحة خارج الجماعة الوطنية بتهمة جماعية لإبداء الرأى" للجماعة اليهودية الفرنسية. وأرسلت له خطاباً شخصياً محاولاً تفسير موقفى.

بالتأكيد كنت مندهشاً وقلقا من هذا الاتهام بمعادة السامية، وأنا الذى كافحت باستمرار ضد كل أشكال العنصرية طوال حياتى، وكنت ألاحظ، مع ذلك، أن كثيراً من اليهود كانوا يرسلون لى رسائل مساندة، وأن أغلب أصدقائى ومعارفى من اليهود سواء كانوا متفقين معى أم لا لم يستخلصوا مثل هذه النتائج. وكنت أعتقد مع ذلك أننى كنت واضحاً فى ورقتى ولم أتناول الطائفة اليهودية ككتلة واحدة، مظهراً على العكس أنها يمكن أن

١- من الصحيح أن الأسلوب التمثيل فى استخدام خطاب إدانة لإقصاء منافس محتمل يظهر الصفات الأخلاقية التى لا يجمع عليها أحد، والتى تذكرنا بلحظات حرجة فى تاريخنا .

تحتوى على وجهات نظر مختلفة وطالبت، على وجه الدقة، بتجنب مخاطر الانحراف الطائفي. هل واقع أننى غير يهودى يمتنعى من القيام بذلك؟

نشرت لوموند، فى ١٩-٢٠ أغسطس، رسالة من رونالد بثمان تعيب على إيلى بارنافى فى رده أنه أمدل ستاراً من الصمت على مشكلة المستوطنات اليهودية فى الأراضي المحتلة. "اليهود، أو الذين صنفوا كذلك، والذين عرفوا فى فرنسا فترة الاحتلال، والذين دخلوا، مثلى، فى صفوف المقاومة لا يمكنهم أن يؤيدوا مثل هذه السياسة التى تقود إلى كارثة محتمة. ولا أعتقد أن غالبية أفراد الطائفة اليهودية المتباينين، عندما يسألون بصورة فردية، يوافقون على هذه السياسة. وليس هذا فقط لأنها تغذى العداء للسامية، الذى يمكن أن يعانون منه، لكن ببساطة لأن هذه السياسة تسير فى خط مناقض لقيم التسامح واحترام الإنسان والديمقراطية والانفتاح، والتى جعلت من فرنسا منذ بعيد بؤرة جذب لكثير من الأشخاص من أصول أجنبية."

فى بداية سبتمبر، وبعد محادثة تليفونية مع إيلى بارنافى نظمها سيلفان أتال على موجات إذاعة RMC أنفو، والتى تمت بصورة ودية تماماً، أرسلت له دعوة لإلقاء محاضرة فى IEP بمدينة ليل حيث أقوم بالتدريس هناك. وتمت المحاضرة فى قاعة مليئة عن آخرها، وأمام طلاب جلسوا حتى بين الممرات وصولاً إلى منبر المتحدثين. وألقى بارنافى محاضرة رائعة، وتحدث عن السلام، وتجنب اللغة النمطية، ولم يتهرب من أى سؤال حتى الأسئلة الأكثر إحراجاً. وكانت هذه المحاضرة بدون شك إحدى اللحظات الهامة أثناء العام الدراسى، وكذلك بالنسبة للطلاب الذين توافدوا إليها.

لاحظت أثناء المحاضرة أن هناك شخصاً فى الصفوف الأولى لم يتوقف عن تصوير نظرات حادة لى. وفى حفل الاستقبال الذى أعقب المحاضرة

قدم نفسه كمستول إقليمي للمجلس التمثيلي للمنظمات اليهودية فى فرنسا (كريف). وصرح لى بأنه جاء لأنه لا يمكنه القيام بغير ذلك، حيث إن الامر يتعلق بسفير إسرائيل، غير أنه شعر بالصدمة لأننى تمكنت من إدارة هذا اللقاء بعد مقالى فى شهر أغسطس.

وحاولت مرة أخرى أن أفسر اتهامى بالعداء للسامية، موضحا له أننى مستعد لآى مناقشة حول هذا الموضوع. لكنه أجابنى بشكل أكثر غضبا، وقال إن هذا النقاش ليس وارداً على الإطلاق بالنسبة له، وانطلق فى مرافعة طويلة أمام نظرات إيلي بارنافى المترعجة.

لقد كان ملكيا أكثر من الملك، ولم يفهم كيف يبادلنى بارنافى الحديث. بعد عدة أسابيع دعانى ديديه باريانى لإلقاء محاضرة أمام أعضاء حزب الاتحاد من أجل الديمقراطية الفرنسية، حول انعكسات أحداث ١١ سبتمبر. ولم أكن أنتمى إلى هذا الحزب لكننى وجدت أنه من الطبيعى تماماً أن أتجادل مع مناضلى حزب سياسى. فهذا هو جوهر الحوار الديمقراطى. كنت أعرف ديديه باريانى، لأنه كان رئيسا لنادى باريس لكرة القدم، حيث يلعب أبنائى هناك، وصرت عضوا فى مجلس إدارة النادى. وفى نهاية العشر دقائق الأولى من محاضرتى لاحظت توزيع نسخة من مذكرتى التى أرسلتها إلى فرانسوا هولاند بين الحاضرين، ويسدو أن أحدا أراد تفجير الموقف. وأثناء فترة توجيه الأسئلة نهض شخص على الفور طالباً الكلام، واتهمنى بأننى تفوهت بأقوال معادية للسامية. فطلبت منه أن يذكر لى أمثلة محددة على ذلك وأن يقدم نفسه للجمهور. وكان كليمو فايل-رانيال. ولم يكن فى وسعه إلا أن يكرر أننى استهدفت الطائفة اليهودية، دون أن يستخرج بالطبع جملة واحدة لها ملامح معادية للسامية. وغادر القاعة بسرعة لأنه كان قد احتكر الكلام عبر خطاب مرتبك، واضطر فى النهاية

إلى الانسحاب بشكل يدعو للرتاء أمام الاحتجاجات الموجهة له. وفي ٦ سبتمبر نشرت "الايكيتوالته اليهودية" صفحة تحت عنوان "العداء للصهيونية" وعنوان آخر على مدار الصفحة بكاملها: "قضية بونيفاس" تثير غضبا كبيراً داخل الطائفة اليهودية. في مقال لوموند وفي مذكرة داخلية موجهة إلى الحزب الاشتراكي - يتهم بسكال بونيفاس، مدير معهد العلاقات الدولية والاستراتيجية (IRIS) على الطائفة اليهودية بشدة. "

وقع على هذا المقال مارتن بيريز - وهو اسم مستعار لكليمو فايل-رانيال- ويتحدث عن "إيماءات سوداء".

لقد أدركت شيئاً آثار حيرتى كثيراً، وهو أن ما ينقل من المذكرة كان تلك الفقرات التي اعتبرت أكثر عداءً لإسرائيل. ولم يظهر في أى لحظة النقد الذي وجهته للفلسطينيين، أو التفهم الذي عبرت عنه في بعض النقاط لوجهات النظر الإسرائيلية. يتهمونني بأنني أدنت إسرائيل كتلة واحدة، بينما نشرت قبل ذلك في الفيجارو مقالاً عن مؤتمر الكفاح ضد العنصرية في دربان مسانداً إسرائيل، في مواجهة اتهامات منظمات غير حكومية كثيرة ماثلت بين الصهيونية وبعض أشكال العنصرية. ولم يشر أحد منهم إلى هذا المقال، بما فيهم أولئك الذين تحدثوا كثيراً عن مؤتمر دربان لإدانة المؤامرة المعادية لإسرائيل التي سيطرت على هذا المؤتمر. وكذلك مرت تحت ستار من الصمت إداناتي للعمليات الفلسطينية في إسرائيل، والاعتداءات المعادية للسامية في فرنسا، وناهيك عن تصريحاتي المؤيدة لوجود إسرائيل داخل حدود آمنة ومعترف بها.

ومن المنطقي عندما يشعر الإنسان بتهديد أن يحاول البحث عن حلفاء، ومن المحتمل أن يقبل المرء حلفاء ليسوا بالضرورة موافقين له في كل

القضايا، وإنما يسجل نقاط الاتفاق مع الآخرين أكثر من التركيز على "نقاط الاختلاف". وهنا لا نجد شيئاً من هذا، بل على العكس فإن كل عنصر من عناصر تفكيرى، الذى يمكن أن يعتبر متوافقاً مع مصالح إسرائيل قد تم مسحه، كما لو كان ينبغى بأى ثمن أبلىستى، كما لو كان ينبغى بأى ثمن البرهنة للقارئ أن اليهود ليس لهم إلا أعداء ذو عزم، ينظرون إليهم بوصفهم كتلة واحدة، ويحملون لهم عداوة بلا حدود وبلا تردد.

والهدف من مثل هذا الأسلوب هو تعبئة الطائفة فى مواجهة الخارج بإثارة الخوف لديها. فى حالة الخطر يتجمع الناس حول قادة حماة لهم وفى فترة الهدوء لا يشعر الناس بأهمية ذلك. والحال أنه إذا كان الوضع خطيراً جداً، وإذا كان هناك خطر حقيقى بالفعل يهدد الطائفة فإنه ينبغى على العكس البحث بأى ثمن عن التضامن بأكبر قدر ممكن من الاتساع. خلافاً لذلك تماماً - لأنهم يشعرون بأنهم فى موقف قوة يمكن للمسؤولين الرسميين أن يسمحوا لأنفسهم برفض أولئك الذين يناضلون ضد العنصرية وفى الوقت ذاته لا يقرون مائة بالمائة بمواقفهم.

وفى اليرم التالى لنشر هذا المقال فى "الاكتيواليتيه اليهودية" تلقت اتصالاً هاتفياً من بيير لولوش، وكان عضواً فى مجلس إدارة معهد العلاقات الدولية والاستراتيجية. وأخبرنى أنه اطلع لتوه على المقال المنشور فى لوموند، وأنه يطرح أمامه مشاكل جدية^(١)، وشرح لى أن الطائفة اليهودية تحست كثيراً مما كتبت، وأنه ينبغى أن نلتقى لنبحث هذه القضايا بصورة عاجلة. حددنا موعداً لكن أحداث ١١ سبتمبر حالت دون تحقيقه.

١ - قد يبدو مذهباً أن بيير لولوش لم يكن على علم بهذا المقال أو رد بارنافى على نحو خاص. ويضاف إلى ذلك أنه كان على علم بصورة غير مباشرة، على الأقل، عبر رسالة فرانسوا هيسبورج الذى التقاه كعضو فى مجلس إدارة المعهد، الأمر إذن يعود إلى مقالة "الاكتيواليتيه اليهودية" فهى التى دفعته إلى التحرك.

وبعد ذلك أرسل بيير لولوش خطاب استقالة إلى سيرج فاينبرج. ويبدو أن هذا الخطاب قد أرسل إلى جهات أخرى كثيرة حيث إن صحيفة "الإكيتواليتيه اليهودية" ذاتها أعلنت في عيدها لشهر نوفمبر أن "بيير لولوش قدم استقالته من مجلس إدارة معهد العلاقات الدولية IRIS^(١)".

وفي وقت واحد ساكون موضوعا للمساءلة في مجلتيْن إسبوعيتين استعدتا لحسابهما الملف الذي أعده (كريف) نهاية (٢٠٠١) بشأن الأعمال المعادية للسامية.

وقد كرست الصحافة مساحة كبيرة لهذا الملف، غير أن الاهتمام بالملف لم يكن يعنى استعادة كاملة وتناول كل البراهين الواردة به. وإذا كان أغلب الصحفيين قد أكدوا أنه لا يمكن وضع الرسائل المجهولة وحرائق المعابد اليهودية على قدم المساواة. لكن الأكسبريس ومجلة القيم الراهنة لم تؤكدوا على ذلك.

في الأكسبريس، عدد ٦ ديسمبر (٢٠٠١)، ملف بقلم إيريك كوانان عنوانه "الأرقام السوداء لمعاداة السامية" مع صور لمعابد محترقة. وبدأ المقال الطويل بالمقدمة التالية "منذ أكتوبر (٢٠٠٠) تصاعد بشكل كبير عدد أعمال العنف إزاء اليهود في فرنسا. وأغلب هذه التجاوزات ارتكبت من قبل شباب أبناء المهاجرين العرب-المسلمين، وهى تثير مضايقات، والاكثَر خطورة أنها كانت تقابل بالصمت". وتحت صورة المعبد اليهودى بـ

١- فى أعقاب ذلك سيكتب بيير لولوش فى كتاب "المعادون لليهود" : وهكذا نرى ظهور أشخاص يقدمون أنفسهم كـ "خبراء استراتيجيين" يقولون للطائفة اليهودية بفرنسا إن عليها أن تقلق على أمنها وسعادتها إذا استمرت فى مساندة إسرائيل ص١٦٨. وأقل ما يمكن أن يقال عن هذا الكلام هو إنه تحريف لأقوالى.

Trappes الذي أحرق في ١٠ أكتوبر (٢٠٠٠) والذي أثبت التحقيق فيما بعد أنه لم يكن عملاً معادياً للسامية وإنما حريق عارض نتج عن حالة السكر التي كان عليها حارس المعهد) أدان الصحفي السياسيين الذين بخشيتهم من أن يضعوا الزيت على النار^١ يمارسون الصمت على هذه الأعمال.

وهكذا صرح الحاخام الأكبر سيتروك: "عندما يكون في فرنسا خمسة أو ستة ملايين مسلم وستمئة ألف من اليهود فقط، فإنه من الواضح أن الطائفة المسلمة تؤخذ في الاعتبار بصورة أفضل." وتابعت المقالة: "من الحقيقي أن حادثة جرت مؤخراً في الحزب الاشتراكي، قد شجعت على هذه الخشية. واقترح باسكال بونيفاس -عضو بالحزب الاشتراكي ومدير معهد العلاقات الدولية والاستراتيجية - أثناء اجتماع مغلق للجنة الدولية بالحزب تعديل السياسة الرسمية للحزب إزاء إسرائيل، لأنه سيكون من المفيد للحصول في انتخابات الرئاسة (٢٠٠٢) على أصوات أكبر من الجالية العربية المسلمة".

وكم كانت دهشتي-واشمئزازی- عند قراءة هذه الورقة. لقد شوخوا بصورة خطيرة وجهة نظري، وجعلوني أقول إنه ينبغي نقد شارون ليس لأنه يمارس سياسة تستحق الإدانة، وإنما لأن العرب كانوا أكثر عدداً من اليهود، ناهيك عن أنهم جعلوني مشغولاً عن الاعتداءات المعادية للسامية! أسلوب غير محتمل في الخلط بين الامور!

لقد أرسلت رداً نشره إيريك كونان في إسبوع القراء بعنوان محايد إلى حد ما "معاداة للسامية جديدة"^(١)؟ ربما كان على أن أعبر عن امتناني لأن

هناك على الأقل علامة استفهام^(١) بالعنوان. في ٧ ديسمبر، وبالعنوان "التحقيق: لماذا يشعر يهود فرنسا بالخوف" نشرت مجلة "القيم الراهنة" ملفاً مستلهما من المصادر ذاتها. وفي هذا الملف يسرد ميشيل جوزفينكل أحداث عام من العنف المعادي للسامية. ويصاحب المقال صورة تظهر "كتب محترقة بعد الهجوم على المعبد اليهودي. ويبدو أن قطاعاً من أجهزة الإعلام قد تعود على هذا الوضع".

"نحن نشاهد منذ عدة سنوات معاداة للسامية في أوساط يسار متناغم." كما لاحظ المحامي الباريسي فرانسوا لورسا. لقد بدأ ذلك أولاً، كما يرى عالم الاجتماع جاك تارنيرو "في يسار اليسار، من جوزيه بوفيه حتى مناضلي الحق في الإسكان (DAL)

مرورا بأنصار البيثة... لكنه وصل من الآن فصاعداً إلى الحزب الاشتراكي ذاته، المعروف منذ زمن بعيد بأنه موال لإسرائيل ومحب للسامية. وقضية بونيفاس في هذا الشأن كان لها وقع القنبلة. في ٤ أغسطس الماضي قام باسكال بونيفاس، مدير معهد العلاقات الدولية والاستراتيجية (IRIS) وهو هيئة قريبة من الحزب الاشتراكي^(٢)، بنشر مقال في صحيفة لوموند معنون بـ "رسالة إلى صديق إسرائيلي". في الواقع كان المقال رسالة هجائية موائية للفلسطينيين، غير أن خاتمته تشير

١- في غضون عشرة أشهر وضعني إيريك كونا موضع تساؤل أربع مرات على صفحات الاكسبريس، في الوقت الذي أعلمته فيه عبر مكالمات تليفونية أنه قد شوه ما أقوله، لانه ليس من خلال وزن كل طائفة أقمت نقدي لشارون، وإنما انطلاقاً من عمل هذا الأخير، فأجابني إيريك كونا: "نعم: لكن ليس هكذا قد فسرت الطائفة مذكرتك".

٢- إذا لم أكن أخفيت أبداً قرابتي الشخصية للحزب الاشتراكي فإن مواقف المسئولين والباحثين الآخرين بالمعهد كانت كذلك تشكل أكبر تنوع فلسفي وسياسي فيما بينها.

الاهتمام على نحو خاص: إن الطائفة اليهودية بمساندتها إسرائيل كثيراً .
تغامر، كما يقول، بعزل نفسها كثيراً ولاسيما أمام الطائفة المسلمة... نوع
ما من التهديد، وبالنسبة لكثير من اليهود الفرنسيين فإن هذا هو مفتاح
الاعتداءات التي تتعرض لها الطائفة منذ أكتوبر الماضي. (١)

وكان على أن أقرأ المقال مرتين حتى أدرك مغزاه، فمقالى نشر فى
أغسطس (٢٠٠١)، وكان مفتاح الاعتداءات المعادية للسامية التى انطلقت
فى أكتوبر (٢٠٠٠) ! ولاحظت بدهشة ما، وعلى مدار يوم واحد يفصل
بينهما، قامت المجلتان الأسبوعيتان اللتان استندتا بصورة واضحة على
الملف ذاته الذى أعده المجلس التمثيلى (كريف)، بإدانتى بشكل خطير. أى
نموذج رائع هذا من التحقيق !!

ولم تتوقف الأمور عند هذا الحد.

فى مجلة آرشف عدد أكتوبر-نوفمبر (٢٠٠١)، كرس مايير فاتراتر ثلاث
صفحات بشكل كريم معنونة بـ "دكتور باسكال ومستر بونيفاس، وجهان
لاستراتيجى باريسى".

١- وأضاف المقال "ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، وإنكشف بالفعل أن مقال ٤
أغسطس لم يكن إلا النسخة المخففة من المذكرة السرية للمؤلف ذاته والموجهة إلى قادة
الحزب الاشتراكى. فالأقوال فى هذا النص كانت قاطعة. ويؤكد يونيفاس أن سياسة
التوازن فى الشرق الأوسط التى "تضع على قدم المساواة الحكومة الإسرائيلية
والفلسطينيين" ستعثرها الطائفة العربية المسلمة سياسة غير منصفة، وبالتالي ستبعد فى
الانتخابات القادمة عن ليونيل جوسيان والحزب الاشتراكى. والنتيجة: "هل تستحق
مساعدة شارون أن نخسر انتخابات (٢٠٠٢)؟ ولم يكن للمرء أن يحكم مسبقا على ردود
أفعال اليهود الفرنسيين حيثئذ. كان البعض منهم يؤكد أن تأثير الإسلام المتطرف لا يتوقف
عن التصاعد فى فرنسا وأوروبا وبالتالي ليس لهم من خلاص إلا فى إسرائيل والبعض
الآخر كان يدعو فى آن إلى تعبئة كل المجتمع الفرنسى فى مواجهة الخطر الإسلامى وفى
مواجهة التحول إلى اليمين لدى معظم أفراد طائفتها، فى (٢٠٠٢) وفيما بعد".

كتب مايير فاتراتر مشيراً إلى مقالى فى ٤ أغسطس^(١): "يقترح السيد بونيفاس، بنية خبيثة، على قادة حزبه إضفاء الطابع الطائفى على الحياة السياسية الفرنسية، أى أنه ينبغي على قادة هذا البلد أن يقيموا كشف حساب للطوائف المقيمة على الأراضى الفرنسية، ثم يشرعوا بعد ذلك فى أخذ مواقفهم من القضايا الكبرى الراهنة بالاستناد إلى ما تشكله هذه الطوائف من وزن ومن مصالح مفترضة. (لقد كتبت عكس ذلك تماماً). ومحاولة من هذا القبيل ستكون متناقضة مع الطابع العالمى الجمهورى الكامن فى قلب الوعى السياسى لغالبية المواطنين الفرنسيين، سواء كانوا من اليهود أم لا. " ويمكن أن يرى المرء أنه من المفارقة، على الأقل، أن تكون مجلة آرش هى التى تشكو فرض الطابع الطائفى على الحياة السياسية الفرنسية! وإذا كانت هذه "النية الخبيثة" موجودة فإنه ينبغي رؤيتها أكثر لدى مايير فاتراتر. ومن المفارقة أن أولئك الذين أرادوا دائماً دفع السياسة الفرنسية باتجاه يخدم مصالح إسرائيل يشعرون فجأة بالقلق من إضفاء الطابع الطائفى على الحياة السياسية الفرنسية.

وفى أعقاب نشر الورقة بمجلة آرش أرسلت رداً. وأرسل سيرج فاينبرج رسالة احتجاج أيضاً ونشرتها المجلة فى عدد يناير-فبراير (٢٠٠٢). وبدأت المجلة هكذا "سنجد هنا خطابين، وكذلك رد مايير فاتراتر عليهما. وكان مكان هذه الرسائل زاوية بريد القراء، لكن نظراً للأهمية التى أخذها هذا الحدث وجدنا أنه من المناسب أكثر إدراجهما فى الملف ذاته. "

ويحمل هذا الملف عنوان "ملف العداء للسامية" وهو عنوان أكثر من صريح. وهذه طريقة خاصة لتقديم الردود التى لا تستجيب فى شئ إلى معايير الموضوعية التى ينبغي أن تكون القاعدة المطلقة فى كل المناقشات

١- الذى يحتوى كما يرى "وصفا للصراع الإسرائيلى-الفلسطينى لا يستحق سوى صفر لآى طالب فى السنة الأولى من دراسة العلوم السياسية".

الجديرة بهذا الاسم^(١). لقد قيل لى أيضا أئنئ كنت بصورة منتظمة موضوعاً للإشارة والشتائم بإذاعات الطوائف. كما شوهت الكتب المختلفة عن العداء الجديء للسامية أقوالى وفكرى^(٢). وسيتعد نقولاً فييل، بدون حياء، عن القواعد الأخلاقية لجريدة لوموند التى يعمل بها، مكرساً لى فصلاً بعنوان: "من روجيه جارودى إلى باسكال بونيفاس".^(٣)

وبطريقة تريد أن تكون ماهرة، نظراً لغياب الأمانة الفكرية، يسلم بأننى طورت "إيماءات قريبة بدرجة كافية من البلاغة الجارودية، بالنسبة لمسألة نفى غرف الغاز على الأقل". إنه تأرجح مثير للفضول لأن جارودى يتطابق تماماً مع الذين يقولون بمسألة نفى ما تعرض له اليهود. ومع مرور

١- مجلة آرش عدد ٥٢٧ - ٥٢٨، ص ٥٩.

٢- رافائيل دراى، "تحت رمز صهيون" ميشالون، ص ٢١٩، وجى كونو بوتسكى "الخطأ على اليهود" مرجع سبق ذكره صفحات ٩، ٢٥، ٢٦، ١٥١، ١٥٢. وجان بيير اللالى "الاشكال الجديدة للعداء للسامية" مرجع سبق ذكره، كرس لى فصلاً كاملاً بعنوان "سته ملايين مسلم وستمانية ألف يهودى": "نشر الباحث باسكال بونيفاس مذكرة داخلية موجهة للحزب الاشتراكى، ويقترح فيها التخاطب بود أكثر مع الجالية العربية-المسلمة، باعتبارها أكثر جذبا وأكثر فائدة على الصعيد الانتخابى من الطائفة اليهودية، أثار جدلاً وحرك المعادلات الأكثر تنوعاً من اليمين كما من اليسار".

وكما نرى لقد شوهت أقوالى بصورة كبيرة... ويتابع المؤلف "ما الذى يجب أن نستخلصه من ذلك؟ هل نستخلص أن هناك علاقة بين هذه الملاحظة الديموغرافية والأحداث المقلقة التى نشاهدها هذه الأيام؟ وذهب جان بيير اللالى مسلحاً بهذا السؤال إلى استجواب شخصيات عديدة مع تساؤل يبدو على الشكل التالى: "هل تعتقد أن باسكال بونيفاس كان مصيباً فى الدعوة إلى تفضيل الطائفة المسلمة على الطائفة اليهودية لأسباب انتخابية؟" وبطريقة ليس فيها ما يدهش كثيراً أجاب كل واحد منهم بالنفى على هذا السؤال (ص ١٠٩-١١٨). بالطبع لم يتصل بى أبداً ليطلب منى تفسيراً. بدون شك خشية أن تأتى تفسيراتى على نقىض الفكرة المسبقة التى صنعوها.

٣- تاريخ شخصى للعداء للسامية، روبير لافون، (٢٠٠٣) ص ١٣٤-١٣٩.

الوقت كانت توجه لى، بالإضافة إلى ذلك، الإذانة فى منابر مختلفة بالصحافة العامة. وكان اتهامى بإضفاء الطابع الطائفى على السياسة الفرنسية يتواءم مع اتهامى بالعداء للسامية. وكان يعاب على، وهو أمر يستحق الإذانة لو كان صحيحا، أننى قلت: "انتبهوا هناك عدد من المسلمين أكثر من اليهود، ولترك اليهود ونحنا إلى المسلمين".

وسيعود إيلى بارنافى، رغم أنه يعرف حقيقة هذه المسألة، ثلاث مرات حول هذه القضية فى كتابه^(١)، وفى مقابله مع الفيجارو ماجازين^(٢).

لقد أدهشنى هذا التغيير فى الرؤية، وهذه الملاحقة الجماعية وهذا الخطاب المنسق. كذلك أردت إثارة الانتباه حول مخاطر نقص الشعبية التى قد تخيم على يهود فرنسا، إذا كان ممثلوهم لم يحذروا من الظهور بمظهر المحامين بلا شروط عن الحكومة الإسرائيلية.

أردت ببساطة إبداء ملاحظة، أنه إذا كانت الطائفة اليهودية (والتي أشدد على أن العديد من أفرادها قد رفضوا سياسة القمع الإسرائيلى) تعتمد على ثقلها الانتخابى حتى لا تسمح بمساءلة الحكومة الإسرائيلية، وهو تعبير أقر أنه كان سيئ الحظ، فإنها قد تكون الخاسرة فى النهاية، لأن الجالية العربية والمسلمة فى هذه الحالة ستسعى إلى الدخول بثقلها أيضا.

كانت إذن ملاحظة وصرخة تحذير، ولم تكن دعوة إلى ذلك، كما حاول البعض بسوء نية أن يعيب على. لقد قمت على العكس، بإدانة

١- إيلى بارنافى، فرنسا وإسرائيل مرجع سبق ذكره ص ٧٠، ٨٠، ١٥٠.

٢- ٢٦ أكتوبر (٢٠٠٢).

مخاطرة إضفاء الطابع الطائفي على السياسة الخارجية الفرنسية . وقلت ذلك بشأن تصويت البرلمان على مسألة إبادة الأرمن^(١).

لهذا كتبت في مذكرتي للحزب الاشتراكي "سيكون إذن من الأفضل لكل جماعة احترام المبادئ العالمية، وليس الوزن الذي تتمتع به كل طائفة" .

والواقع أنني وضعت إصبعي على شيء عادي وهام في آن واحد. لقد مارس الموالون لإسرائيل، ولفترة طويلة نوعاً من الردع من جانب واحد على الطبقة السياسية الفرنسية. وكان هناك دائماً لوبي موال للعرب في فرنسا إلا أنه لم يكن منظماً على الصعيد الانتخابي ولم يكن مهتماً بالمسألة الفلسطينية.

لقد وضعت غلاة الموالين لإسرائيل في تناقض لا يمكن تجاوزه بإطلاق صرخة تحذير ضد إضفاء الطابع الطائفي على السياسة الفرنسية والتحذير من تنظيم صوت انتخابي عربي. فلم يعد في إمكانهم متابعتي على صعيد المبادئ العالمية لأن سياسة شارون كانت نقيضاً لها.

وبرغم ذلك، وفي الوقت ذاته، كان تهديدهم بتصويت عقابي، في حالة ابتعاد المنتخبين عن مساندة شارون، يمكن أن ينقلب ضدهم. كانوا إذن في مأزق. لقد أوضحت مذكرتي أن الملك سيكون عارياً عما قريب، وأن ورقة التصويت الطائفي يمكن أن تنتهي إلى غير صالحهم.

١- هل ينبغي أن يكون لفرنسا سياسة خارجية قومية أم سياسة للطوائف التي تقيم على أراضيها؟ هل ينبغي أن تعتمد سياستنا في الشرق الأوسط على وزن الطائفة اليهودية والعربية، أم أن لفرنسا رسالة عالمية عليها أن تؤيدها، وقيماً جوهرية عليها أن تعززها؟ ألا توجد مخاطرة في تحويل الصراع السياسي بالشرق الأوسط إلى صراع إثني في فرنسا وغيرها؟ إذا أرادت السياسة الخارجية الفرنسية أن تظل قوة يعتد بها في العالم، فإن ذلك لا يمكن أن يحدث إذا كانت هذه السياسة مجموع حاصل مصالحها الخاصة "الفيجارو ٢٦ يناير (٢٠٠١) "دبلوماسية تحت التأثير" .

وكننت فى المقابل قد شددت على نوايا أولئك الذين يضعون البواعث الانتخابية فى المقدمة، حتى لا يكون هناك تحرك، وأن الفارق الكبير بين المبادئ وتصور الحزب الاشتراكى على أنه موال لإسرائيل، يمكن أن يكلفه كثيراً، ليس فقط عند أبناء المهاجرين، وإنما لدى الشباب بشكل عام والطلاب على نحو خاص. لكن الذين اتهمونى لم يتوقفوا إلا عند إشارتى لأبناء المهاجرين متناسين الشباب والطلاب. وكان هذا يسمح باللجوء إلى وضعية الضحية، وأن مساندة إسرائيل يتم التخلّى عنها لأن عدد اليهود أقل من العرب فى فرنسا، وليس لأن سياسة إسرائيل كانت غير محتملة.

وتوضح هذه الرؤية لطائفة ضد أخرى مدى الانغلاق العقلى للذين يعبرون عنها. ونسيان- أو إسدال ستار من الصمت عن عمد - أن الفرنسيين فى غالبيتهم يرون أن إسرائيل لا تتصرف بصورة صحيحة مع الفلسطينيين.

غير أننى أعرف أن الأذى قد حدث، ولأننى أعارض أولئك الذين يريدون مساندة إسرائيل، مهما فعلت، فقد تمت عملية أبلستى.

وكان عدد كبير من أصدقائى اليهود ينقلون لى ما يسمعون عنه. لقد صرت شاعر الصوت الإسلامى، أنا الذى لست عربياً ولا مسلماً، ولم أشارك أبداً فى أى انتخابات من هذا القبيل. بالنسبة لغلاة الموالين لإسرائيل كان لهذا التفسير مزية أخرى. كان يسمح مرة أخرى بتغيب ما يحدث حقاً فى الواقع. هل كان ينبغى أن أحدد أننى أخشى بالقدر نفسه تنظيم قواعد طوائف عرب فرنسا بفرض التأثير على السياسة الخارجية لبلدنا؟ إن هذا الأمر قد يثير عواصف بالنسبة للجمهورية ولوضعية فرنسا فى العالم، غير أن غلاة الموالين لإسرائيل كانوا قد فتحوا صندوق العجائب.

ونرى هنا دعامة تقليدية للتشوية الإعلامى. فتكرار الكذب باستمرار

وبقناعة يحوله فى النهاية إلى حقائق. والذين تصلهم أصداء ذلك ينشرونه بدورهم بدون أن يتحققوا. وفى الغالب كان يقال لى : " لم أقرأ مذكرك لكنى سمعت عنها أحاديث"، " إن سمعتك تسبقك". وهؤلاء الناس بشكل عام ذوو نوايا حسنة، وأحيانا تكون الرغبة فى التزوير مؤكدة.

هنا أو هناك يتحدثون عن " تقرير بونيفاس" الذى يقترح "التخلى" عن اليهود لأن العرب أكثر عددا منهم.

ومع الأسف لاحظ أن ما وصفته وما خشيت منه وما شخصته (ولم أدع إليه أبداً) هو فى طريقه للتحقق مع ظهور تشنج طائفى يشكل حلقة مفرغة ومقوضة للجمهورية. صحيح ليست للأبواق المنذرة بالأهوال صورة حسنة، لكن ليس من الإنصاف أن نحملها مسئولية الأحداث التى كانت تحذر منها.

وفى الفترة ما بين الجولة الاولى والثانية من انتخابات الرئاسة الفرنسية جاءنى صحفى أمريكى أثناء مروره بباريس، كريستوفر كالدويل، وطلب مقابلة معى عن العلاقة بين السياسة الخارجية وانتخابات الرئاسة، وكان يمثل "الويكلى إستاتدار" وهى صحيفة كبيرة تحمل توجهات "المحافظون الجدد". واستقبلته ودارت المقابلة بشكل رئيسى حول ما كتبه فى شهر أغسطس (٢٠٠١)، وجرت المقابلة بشكل ودى تماما حتى مع اندهاشى من أن قضية العداء للسامية كانت القضية الوحيدة التى طرحها طوال فترة المقابلة، وكم كانت دهشتى مع اكتشاف المقابلة المعنية !

وماذا كان يريد كالدويل من إجراء المقابلة معى ؟ أن يرى ملصقات هتلر معلقة على جدران مكتبى ؟ أن أنطلق فى سجال معاد للسامية ؟ وكانت مقالاته التى ظهرت بعنوان "حرية، مساواة، كراهية اليهود" تصور فرنسا وقد لحقها الخراب تحت تهور الشباب العربى المهاجر. وتحدث عن نفوذ

كبير لابن لادن فى الضواحي الباريسية. وكانت الفقرة المتعلقة بى فى مقالته معنونه ببساطة بـ "بونى-فاشية" بدلاً من بونيفاس.

وفى اليوم التالى للجولة الاولى من الانتخابات الرئاسية نشرت افتتاحية على موقع المجمع الدينى المركزى^(١)، تقدم تفسيراً لهزيمة ليونيل جوسبان وصعود جان مارى لوين فى الجولة الثانية من الانتخابات. كتب جان-فرانسوا إستروف تحت عنوان "يوميات كارثة غير معلن عنها": "نحن لا نعفى المسئولية عن المسئولين غير الواعين الذين مهدوا الطريق أمام لوين فى فرنسا، وهم أكثر مما نتوقع. وكمواطنين فرنسيين، كيهود وكأصدقاء لإسرائيل، نحن معينون بصورة ثلاثية الأبعاد. عندما يدعو باسكال بونيفاس الحزب الاشتراكى إلى اتخاذ مسافة مع إسرائيل، وتهميش الطائفة اليهودية بفرنسا، حتى لا يخسر أصوات المهاجرين العرب فهو يقول، فيما هو أساسى، أن طابع العالم الثالث الكاريكاتورى الذى يسم وزارة الخارجية، وأنصار البيئة واليسار المتطرف يصاحبه بالضرورة انعدام التعاطف مع ضحايا الاعتداءات المعادية للسامية فى فرنسا. وفى المظاهرات المنظمة من قبل MRAP

(المساراب) و FIDH (الفيدرالية الدولية لحقوق الانسان) كانت هناك نقابات وأحزاب من اليسار واليسار المتطرف، منذ أكتوبر (٢٠٠٠)، وهم يسخرون علناً من إسرائيل فى مقدمة الصفوف ويهتفون فى نهاية المسيرات، "الموت لليهود". وكان يتبع هذه المظاهرات التحول إلى اعتداءات معادية للسامية ضد المعابد والمدارس والسيارات اليهودية، وكذلك ضد الشباب اليهودى أثناء ممارسة الرياضة ومارة "يمكن التحقق منهم". وهنا نكتشف أين ذهبت عدة مئات الآلاف من الأصوات التى سقطت من

ليونيل جوسبان، وحرمت فرنسا من جولة ثانية ديمقراطية، كان يتمناها الغالبية العظمى من الفرنسيين."

ومن جانبه أرسل لوران أرولاي، وهو أحد المسؤولين بالفيدرالية الاشتراكية، رسالة دورية^(١) يلقي فيها الضوء على الهزيمة المفاجئة لليونيل جوسبان في الجولة الأولى، ويحدد المسئول وكان أنا ! كنت مذنباً لأننى نشرت مقالات ليس فقط في أجهزة الإعلام العامة، وإنما أيضاً، وهو قمة الإثارة، "في صحف الطائفة اليهودية". وبدون شك ليست هناك جدوى من الإشارة إلى لوران أرولاي، بأننى لم أفعل سوى استخدام حق الرد الشرعى، عندما وضعت موضع تساؤل. وأضاف "فهناك مائة وتسعون ألفاً من الأصوات التى لم تصوت لصالح ليونيل جوسبان حتى يصعد للجولة الثانية، والتى كان قسم كبير منها من أصوات الطائفة اليهودية، التى وجهت مساندتها بصورة جماعية إلى آلان مادلان... وهو أحد المرشحين النادرين الذين أخذوا موقفاً صريحاً وشجاعاً حول الصراع فى الشرق الأوسط... إذن الصوت الانتخابى اليهودى غير موجود... إلا عندما نستثيره."

وبالإضافة إلى واقع أن ذلك أعطانى أهمية كبيرة بعزو هزيمة ليونيل جوسبان لى، يمكن للمرء أن يندهش من التأكيدات التى تقول يوماً إثر يوم، أنه لا يوجد صوت انتخابى يهودى يفسر هزيمة أحد المرشحين الرئيسيين من خلال صوت عقابى من قبل أبناء الطائفة، أنها بديهة طريفة عندما نقول: "مادة ١، الصوت الانتخابى اليهودى غير موجود. مادة ٢ الصوت اليهودى جعل جوسبان يخسر."

١- معنونة "لويين ينبنى أن يشكر بونيفاس". ومع أننى لم أشعر بفرح بما حققه لويين فى الجولة الأولى، على نقىض موقف رئيس ال كريف والذى أشك أن يكون لوران أرولاي قد وجه له أدنى نقد.

أنا لا أعتقد بأن صوتا يهوديا أيا كان قد دفع إلى فشل جوسبان. بالمقابل فإن تصور الحزب الاشتراكي على أنه موال لإسرائيل قد لعب دوره في فقدان أصوات ذهبت إلى جاك شيراك. وهناك صورتان مذهلتان هما بالتأكيد صورة جاك شيراك وهو يتعارك مع العساكر الإسرائيليين في القدس، وصورة جوسبان وهو يتعرض للرمي بالحجارة في ساحة جامعة بيرزيت. في العمق اعتقد أن الرجلين يشتركان في التحليل ذاته، أي الأمن لإسرائيل وإنشاء دولة فلسطينية قابلة للحياة. وقد اقترح ليونيل جوسبان حتى إرسال قوة للوقوف بين المتنازعين، وذلك أثناء حملته الانتخابية. لكن الصور كانت أكثر تأثيراً من المقترحات، فالتصورات يمكن أن تغلب على الواقع. وأنا أتمسك بأن كثيراً من الشباب وليس فقط من أبناء المهاجرين^(١) لم يصوتوا لصالح جوسبان لأنهم يعتبرونه - سواء عن صواب أم عن خطأ - من حزب موال لإسرائيل في لحظة تبدو فيها سياسة هذه الدولة بشأن الفلسطينيين غير مقبولة أكثر فأكثر.

كنت إذن الرجل الذي ينبغي محاربته، واتسع نطاق القضية بعد نشر مقابله معي في صحيفة سويسرية هي صحيفة الزمن Le Temps في ١١ سبتمبر.

وستفتح الصحفية السابقة اليزابيث شملا الملاحقة في موقعها "proche orient. info" متحدثة عنى بوصفى الملهم لليسار الفرنسي، وبوصفى

١ - هكذا صرح برتران كونتا، وهو مغنى فرقة لها شعبية كبيرة اسمها نوار ديزير، عشية الجولة الاولى: "لقد شعرت باشمزاز من تصريحات شتراوس كاهن الذى قال إن جوزيه بوفيه (الذى تم طرده من رام الله من قبل العساكر الإسرائيليين منذ فترة قليلة، لم يعد يعرف ماذا عليه أن يفعل، حتى يجذب عدسات الكاميرا نحوه، ولا شئ أكثر من ذلك يدفعنى إلى الامتناع عن المشاركة فى الجولة الثانية من الانتخابات" لوموند ٢٠ أبريل (٢٠٠٠) "فرقة نوار ديزير حملتها رياح الاضطرابات السياسية".

مستشاراً لليونيل جوسبان والحزب الاشتراكي (هكذا ١). وجعلتني أقول أنني أمائل بين إسرائيل والديكتاتوريات الشرق أوسطية، وأنتى وضعت إسرائيل ضمن "محور الشر" الذى حدده جورج بوش الابن. وسرعان ما ستطلق حملة مكثفة، ولن يكون الحديث عن مقابلتى مع جريدة الزمن السويسرية، وإنما التقديم الذى قدمته اليزابيث شملا لذلك.

وكان كل هذا مناقضا لواقع الأمور. فمحاولتى كانت إظهار عدم كفاءة مفهوم "محور الشر". وتساءلت إذا كان المعيار هو امتلاك الأسلحة النووية فإن جورج بوش حينئذ قد نسى دولة إسرائيل. لم أكن أريد وضع إسرائيل فى محور الشر حيث أنني كنت أفند صلاحية مثل هذا المفهوم.

وسيزهد بعض الاشتراكيين إلى حد توقيع بيان ضدى. ومرة أخرى ينبغي تقدير طبيعة هذا الأسلوب المتمثل فى ألا يكون هناك نقاش مباشر مع شخص نختلف معه، وإنما تمرير نشرة دورية هجائية ضده. لقد حذرنى صديق اشتراكي يهودى رفض التوقيع على البيان ضدى. وانتهى الأمر لأن قصة التوقيع على بيان أخذت توجهها طائفياً واضحاً^(١).

غير أن أعضاء مجلس إدارة معهد العلاقات الدولية، هم الذين سيتعرضون لهجوم من الطلبات التى تريد أن يعلن المعهد رفضه لى.

وقام بعض المسؤولين الرسميين بالطائفة، بتقديم طلبات لوزراء الدفاع والخارجية تطالب بإلغاء عقود البحث الموقعة مع معهد العلاقات الدولية. وفى أكتوبر (٢٠٠٢) سيشرعون فى حملة لدى مجلس إدارة المعهد IRIS بغرض عزلى من منصبى. وفى ٧ نوفمبر عقد مجلس الإدارة اجتماعاً مع

١- وهم أنفسهم الذين أخطروا مجلة الأكسبريس حيث سيقوم إيريك كونا بنشر ذلك، وكذلك اليزابيث شملا التى، بعد أن رفضت لمدة طويلة إدخال حق الرد، أعلمتني أنها تنوى نشر الرد مع البيان الموقع ضدى، لكنها لم تفعل شيئاً.

جدول أعمال "إدارة المعهد" وتحت هذه التسمية المحايدة كان إقصائي متوقعاً حيث إن تصريحاتي، كما يرى البعض، قد تضع استمرار المعهد في خطر.

وتلقيت قبل ذلك رسالة من باتريك كارى عضو مجلس إدارة المعهد يعبر لى عن اختلافه الكبير معى، وبالنسبة له فانا قد أخطأت فى ادعائى أن العالم لم يتغير منذ ١١ سبتمبر. وكان يعيب على أيضاً، على نقيض موقفه، بأننى "لم أقبل نظرية محور الشر". وأخيراً أننى أخطأت، كما يقول، لأننى وضعت إسرائيل فى محور الشر. ويخلص إلى أنه سيستقيل من مجلس الإدارة إلا إذا تخليت عن وظائفى. فلتترك جانباً التناقضات المتمثلة فى انتقادى فى آن واحد لأننى لم أقبل نظرية محور الشر، ولأننى فى الوقت ذاته أضمت إسرائيل إلى محور الشر. ولتترك جانباً أيضاً الدهشة عندما نرى إنساناً ناضجاً وموهوباً عقلياً، وكان مفتشاً مالياً، ورئيساً لبنك ومديراً لإدارة وزارة الدفاع من (١٩٨٤) إلى (١٩٨٦)، يمكن أن يفكر بمثل هذه الطريقة البسيطة. المشكلة الأكثر خطورة والتي فرضت نفسها، هى مشكلة حرية التعبير لدى الباحثين، لأن القضية، أبعد من حالتى، أن أغلب الباحثين كانوا يستشعرون أنهم هم المستهدفون. فهل كان على الباحثين قبل أن يعبروا عن أنفسهم أن يتحققوا عما إذا كانوا على اختلاف مع هذا العضو أو ذاك من أعضاء مجلس الإدارة؟

وانطلاقاً من أن هذا الأخير مكون وفق مبدأ التنوع فلإن الإجابة على التساؤل تكون مستحيلة. البعض خضع للمضغوط والبعض الآخر استاء من هذا النمط من التعامل مع الباحثين ووجدوا ثقتهم بى. وجعلوا من قضيتى قضية مبدأ من أجل الدفاع عن حرية الباحثين فى التعبير طالما يحترمون قانون الجمهورية.

ويوضح هذا الأمر، على أية حال، أن خلف التأكيد النظرى على الحق فى نقد إسرائيل، فإن الممارسة العملية لهذا الحق تكشف عن مطالبة بحذف قروض لمركز البحث الذى تديره، بل وحتى المطالبة بإقالتك من منصبك كمدير للمركز. بالطبع إذا كنت انتقدت السلطة الفلسطينية لم يكن شئ من هذا ليحدث. وكذلك لو كان الأمر يتعلق بأى حكومة أخرى. لقد انتقدت فى (١٩٩٥) التجارب النووية الفرنسية بدون أن اتعرض لأى انتقام أو تهديد بالانتقام.

وإذا كان الأمر قد وصل فى فرنسا اليوم إلى المطالبة بفصل مدير مركز أبحاث، لأنه أصدر حكماً سلبياً على السياسة الحالية لحكومة إسرائيل، فإن ذلك ينبغى أن يكون باعثاً للتأمل لدى كل منا. لأنه بالمقابل لم يكن هناك حتى الادعاء الكاذب المستخدم بشأن مذكرتى لاتهامى بأننى استهدفت بالهجوم الشعب اليهودى فى فرنسا.

ينبغى بالتأكيد تجنب البارانونيا، ولن أسقط فى فخ الاعتقاد، تبعاً لذلك، أن مواقفى هى التى جعلت بعض مشروعاتى تفشل. ومع ذلك فإن البعض خوفاً من الاتهام بالتأمين والموافقة على معادائى للسامية المتخيلة قد فضلوا الامتناع عن المشاركة بمؤسساتهم أو بالمشاركة مع اسمى. آخرون قرروا، عن اقتناع، معاقبتى أو معاقبة المعهد الذى أديره باستخدام المسئوليات التى يحتلونها فى مؤسسات لا علاقة لها البتة مع هذه القضية المثارة. واستخدموا نفوذهم لأغراض طائفية.

أعرف أن هناك أشخاصاً يكرهوننى بدون أن يعرفونى. والأخطر أن البعض منهم من ذوى النوايا الحسنة، لأن ما يعرفونه عنى هو الأقوال المشوهة وليس مواقفى الحقيقية. وأمام هذا الهجوم المتواصل اتبنتى رغبة فى ألا أتحدث بعد اليوم عن هذا الموضوع، فضلاً عن أن بعض أصدقائى

نصحونى بذلك بفرض حمايتى . لكن بعد تردد فترة طويلة قررت ألا أصمت ، لأنه لا يوجد أى سبب يجعلنى لا أتناول هذه الموضوعات مع اختلافات لكن بحرية وجدية . ولا ينبغي أن يكون الحديث عن الشرق الأوسط مصاغاً صياغة درامية ، عليه أن يخرج من نطاق الشتائم والتهديدات والأبلسة والعودة إلى إطار الحوار الديمقراطى . إنه من الهام جداً ألا نخضع أمام الابتزازات التى تهدف إلى خنق هذا الحوار الديمقراطى .

الخاتمة

فى المستقبل ستعايش الدولتان: الإسرائيلية والفلسطينية فى سلام فى الشرق الأوسط. وسيبقى النور عاجلاً أم آجلاً ما كان يتم التفاوض عليه فى طابا فى الفترة ١٨ إلى ٢٨ يناير (٢٠٠١) قبل انتخاب شارون. ليس هناك حل عسكرى لهذا الصراع، فقط الحل السياسى هو الذى يمكن أن يضع حداً لهذا الصراع. والذين يخلعون بالقضاء اليهود فى البحر، أو يخلعون بطرد الفلسطينيين إلى الأردن أو سوريا أو لبنان أو أى مكان آخر، سيرون فى الطريق الخاطئ. فى اللحظة الراهنة، ومع الأسف، لم يعمل المتنازعون على وضع الحل السلمى موضع التنفيذ، والجماعة الدولية عاجزة عن فرض تسوية كما فعلت أحياناً فى صراعات أخرى كانت قد دامت طويلاً.

فى نهاية المطاف السلام أمر حتمى. والمشكلة الوحيدة هى معرفة كم من القتلى سيقعون من الآن وحتى لحظة تحقيق السلام. اليوم نحن نعيش مارقاً.

ينبغى على فرنسا بالتأكيد الاستمرار فى عمل ما فى وسعها على الصعيد الدولى لتعزيز فرص التسوية. يمكن أن يكون لكل فرنسى رأيه المختلف فيما يتعلق بالحلول التى ينبغى اتباعها فى الشرق الأوسط، لكن هناك تحدٍ آخر علينا أن نهض به على الصعيد الداخلى، وهو منع هذه الحرب من أن تنتقل كل يوم أكثر إلى أراضينا.

ينبغي التأكيد أولاً على أن النقاشات مسموح بها للجميع ضمن نطاق الجمهورية، وأن أى عنف لا ينبغي التسامح معه. وأن الاعتداءات المعادية للسامية وغير المحتملة ينبغي أن يكون أمر إدانتها هو مسئولية الجميع. وأن العنف الذى يمارس ضد أولئك الذين يتسقدون الحكومة الإسرائيلية الحالية لم يعد مقبولاً كذلك.

وينبغي، على وجه التحديد، تجنب محاولات إضفاء الطابع الطائفى على الحياة السياسية الفرنسية. وأن يكون هناك وجود لطوائف وأنها قادرة على تنظيم نفسها، لهو واقع يغنى فرنسا باختلافاتها. غير أن فرنسا لا يمكن أن تحدد سياستها الخارجية انطلاقاً من ضغط طوائفها أو ثقل وزنها. والطريقة الوحيدة للخروج من هذا الفخ هى احترام المبادئ العالمية. ومع الأسف فإن علينا الاعتراف بأن الحكومة الإسرائيلية لا تطبق هذه المبادئ العالمية.

لا يمكن فى وقت واحد أن نشعر بالأسف نتيجة تصدير صراع الشرق الأوسط إلى أرضنا، وأن نجعل من التضامن مع الحكومة الإسرائيلية أولوية مطلقة. لا يمكن أن نقلق من صعوبات الحديث فى بعض المؤسسات التعليمية عن الإبادة النازية، وأن نصنع فى الوقت ذاته هذه الصعوبات فى كل مرة تعرض فيها الحكومة الإسرائيلية إلى النقد. فغالبية الفرنسيين يرفضون العداء للسامية، لكن غالبية مماثلة منهم يدينون السياسة الحالية لحكومة شارون. وأمام واقع الطابع المثير لهذه السياسة لا ينبغي أن نندesh من جراء ذلك.

إن الحوار والنقاش بين مختلف الآراء أمر مشروع. ينبغي أن يتم فى وضوح النهار، ولا يتوافق مع القدر وحملات التشهير ودعوات الحقد والتشوية المتعمد لأولئك الذين يتم الاختلاف معهم. إنه تراجع خطير

يؤمن عليه، مع الأسف، بعض المثقفين الذى ينبغى أن يكون دورهم مع ذلك هو تفضيل الحوار وليس القدر^(١).

ولأن إسرائيل قد استنفذت كثيراً من مخزون التعاطف الذى تتمتع به فى فرنسا، فإن أنصارها بصورة مطلقة، والواعين إلى أنه لم يعد ممكناً اللعب على العواطف أو القناعات، يستخدمون منطق علاقات القوة والترهيب، ويصدرون فتاوى ضد الذين يعبرون عن اختلافهم مع الحكومة الإسرائيلية. ولا يمكن لهذه الاستراتيجية إلا أن تكون مكلفة على الأمد القصير وكارثية على الأمد البعيد. كارثية لأن الظهور بمظهر المدافع فى كل الظروف عن حكومة تنتهك حقوق الإنسان، ليس الطريق الأفضل لتحقيق الشعبية. وأيضاً كارثية لإسرائيل، لأنها تشجع على اتباع سياسة الصمت السياسى وازاء حكومتها. والذين يقولون من حيث المبدأ إنهم مع إنشاء دولة فلسطينية، ولا نجدهم أبداً منذ ثلاث سنوات يتجراؤون على توجيه أدنى نقد لشارون، هم فى الواقع ليسوا فقط منافقين، وإنما لا يساعدون فى شئ معسكر السلام فى إسرائيل. وإذا كانت الحكومة الإسرائيلية لديها القناعة بأنها يمكنها أن تُخضع الفلسطينيين إلى أى شئ، وتتكلف محتملة، فإنه من واجب أصدقائها أن يحذروها من مخاطر مثل هذا الوهم.

وعندما يأتى السلام أخيراً، فإن الذين كانوا يؤمنون ويساندون شارون بصورة مطلقة، لن يكون لهم أى دور فى مجئ هذا السلام، وإنما يكون لهم على العكس تأخير استحقاقات السلام.

سيكون دورهم فى هذه الفترة تصدير هذا الصراع إلى فرنسا، والقبول الضمنى بأن من يحدد أجندة هذه القضايا هم الأكثر راديكالية.

١- انظر ايريك حزان "مشقون مفسدون" لوموند ٢٢ يناير (٢٠٠٣)، وفى ٢٦ يناير (٢٠٠٣) وردا على هذا المقال كتب الان فينكلركوت متهماً ايريك حزان بالعداء للسامية

إن التحدى واضح وهام، وهو تحدى حرية الحوار الديمقراطي فى بلدنا.

ومع إعادة قراءة المذكرة التى كتبتها قبل عامين، والتى سببت لى كثيراً من المرات، لاحظ أن المخاوف التى عبرت عنها، قد تحققت بصورة مزعجة على نطاق كبير. كما أصبحت مواقف المسئولين الرسميين للطائفة اليهودية ومثقفىها العضوين أكثر تشدداً مع ازدياد تدهور الأوضاع فى الشرق- الأوسط. وبصورة آلية صار الدعم الأكثر قوة لسياسة ينظر لها غالبية الفرنسيين بأنها غير مقبولة أكثر فأكثر، مصدراً لانعدام التعاطف والشعبية. ومرة أخرى أقول إن من حق أى شخص أن يساند شارون دون أن يتعرض لتهديد أو عقاب أو أعمال عنف. لكن لا يمكن أن يفعل المرء ذلك ويعتقد أنه سيكون مصدراً للتقدير والتعاطف. إن قادة اتحاد الطلاب اليهود بفرنسا مستاءون من أن : "لم يعد شيئاً مريحاً أن تكون يهودياً فى نانثير أو جيسيو أو فلتانوس"^(١). لكن هل ذلك لأنهم يهود أم لأنهم باعتبارهم يهوداً كانوا قد اعتبروا أنه من الضرورى مساندة شارون؟ تبدو لى الفرضية الثانية هى الأكثر صحة. لقد كنت طالباً ثم معلماً فى فلتانوس من (١٩٧٤) إلى (١٩٩٨). وفى هذه الكلية التى شهدت انطلاق جمعية SOS لمكافحة العنصرية، كان لاتحاد الطلاب اليهود بفرنسا جذور راسخة وصلت حتى إلى حد تقديم قوائم انتخابية لمجلس الكلية تحت رمزهم الانتخابى- وكان مندمجاً تماماً ولم يشهد مشاكل كبيرة من الاعتداءات على مدار الخمسة والعشرين سنة السابقة التى أمضيتها فى فلتانوس، وكتبت مذكرتى الشهيرة وأنا أرى تغير صور الإدراك السياسى لدى الطلاب.

١- الفيجارو ٧ يناير (٢٠٠٣).

لقد أعلن اثنان من المسؤولين القوميين لاتحاد طلاب يهود فرنسا رفضهم لانتفاضات الساحات الطلابية الجامعية^(١). ويشعران بالأسف لأن صراع الشرق الأوسط قد انتقل إلى جامعاتنا". ويندهش بول برنار وباتريك كلوجمان "لا نرى أحداً متزعجاً من مذابح المسيحيين في السودان ونيجيريا ولا من احتلال الصين للتبت، أو احتلال سوريا للبنان أو احتلال روسيا للشيشان".^(٢) يرى المرء بوضوح نوعية الصراعات التي يقارنون بينها وبين وضع الأراضي المحتلة. وفي مواجهة الاستياء الانتقائي يمكن أن نجيبهم أن فلسطين ليست بالفعل الصراع الوحيد في العالم حيث تنتهك حقوق الإنسان. ومع ذلك فهو الصراع الوحيد - من جهة - الذي يقع في تناقض كامل مع القانون الدولي وقرارات مجلس الأمن بالأمم المتحدة، والصراعات الأخرى هي صراعات داخلية (الامر الذي لا يقلل من خطورتها). ومن جهة أخرى وحيث إن إسرائيل تعتبر نفسها، وينظر إليها على أنها مثل الديمقراطيات الغربية، فلذلك يمكن للمرء أن يكون أكثر تشدداً معها. وأن يجعلها تدرك أنه إذا جاءت جمعية طلابية للدفاع عن سياسة بوتين في الشيشان أو سياسة الصين في التبت أو مذابح المسيحيين في السودان فإنها لن تستقبل بحفاوة.

وهذان المسئولان هما من أنصار الحوار وليساً من المتطرفين في شيء وأعرف أنهما مخلصان وقلقان من صعود التوترات. لكن ألا يتحمل اتحاد

١- بول برنار وباتريك كلوجمان "انتفاضة الساحات الطلابية الجامعية، لوموند ٢٢ يناير (٢٠٠٣).

٢- كذلك كتب برنار هنري ليفي بشأن عريضة السوربون السادسة : لقد صوت الأساتذة على هذه العريضة وهم يعبرون عن استياء انتقائي، إذ لم نسمع صوتهم عندما سحق الروس جروزني، ولا عندما غزا الصينيون التبت " الفيجارو ٨ يناير (٢٠٠٣).

طلاب يهود فرنسا، بوصفه تنظيمًا جانبا من المسئولية فى تصدير صراع الشرق الأوسط إلى جامعاتنا؟ وباشتراكه فى المحاكمة المرفوعة ضد دانييل ميرميه^(١) وبالاحتجاج كلما أدينى إسرائيل، وبالظهور كمُدافع عن حكومتها فإن هذا الاتحاد قد عمل على إضعاف صورته.

وكان يكفى هذا الاتحاد أن يأخذ مسافة ابتعاد عن شارون حتى يعاد له الاعتبار على نطاق واسع، والأمر الهام هو معرفة ما إذا كان من السهولة بمكان تغيير رأى الطلاب الفرنسيين حول شارون، والسياسة التى يتبعها شارون ضد الفلسطينيين، أو حرية التعبير لدى الاتحاد حول هذه المسألة. لأن هناك، فى الحقيقة، عددا كبيرا من المناضلين فى هذا الاتحاد يرون جيدا الكارثة التى تفضى إليها سياسة إسرائيل الراهنة. غير أنهم لا يتجرأون على التعبير عنها خارج المناقشات الداخلية للاتحاد. ولا يبدو لى مؤكدا أن هذه هى الطريقة الأفضل لخدمة القضية التى يدافعون عنها.

لقد أعطى روجيه كوكيرمان توجها أكثر تشدداً للمجلس التمثيلى (كريف)، بحديثه عن قيم الجمهورية فى الوقت الذى كان ينمى فيه الانطواء الطائفى، وبتعبيره عن الابتهاج للنجاح الانتخابى الذى حققه لوبن فى الجولة الأولى من الانتخابات الفرنسية، فى الوقت الذى كان يدين فيه المحور المزعوم عن الخطر الأحمر والبنى والأخضر، ومحاولة التقليل من انحرافات الكتائب اليهودية لليمين المتطرف، والمبالغة فى تقدير حجم العداء للسامية فى فرنسا، وكذلك محاولته لإيجاد رابطة مطلقة بين أعضاء الجالية اليهودية بفرنسا، وتصنيف الأحزاب السياسية فى فرنسا وفقا لموقفها من حكومة إسرائيل، وإدانة توريد صراع الشرق-الأوسط إلى فرنسا، ورفض المناقشات العلنية المتعارضة، والميل نحو الوشايات العامة للذين يرون أنهم

١- لحسن الحظ قام اتحاد طلاب يهود فرنسا بالتخلى عن مشاركته فى هذه الدعوى.

خصوصاً لهم، وإدانة انتشار كراهية اليهود لكن التشهير الفوري بالذين ينتقدون شارون، وإعلان أن المثقفين مثل الآن منك هم أكثر خطراً من ألوية الدفاع الذاتي اليهودية التي تستخدم طرقاً عنيفة، والهجوم على اليهود الذين ينتقدون بشدة شارون والأسف على أن الطائفة اليهودية لم تعد تدرك في تنوعها.

وفي العشاء السنوي الذي نظمه المجلس التمثيلي (كريف) في يناير (٢٠٠٣) استعاد كوكيرمان في الحقيقة منطق الكسندر ديل فال، وهاجم بشدة "التحالف البنى-الأخضر-الأحمر"، مستهدفاً بذلك الرابطة الشيوعية الثورية والكفاح العمالي، وأنصار البيئة وفيدرالية الفلاحين. ورفع صوته ضد "تيار من اليسار المتطرف، المعادى للعولمة، المعادى للرأسمالية، المعادى لأمريكا، المعادى للصهيونية"، وحيث تقدم لنا الرقابة الجديدة، في طبخة على نار هادئة، فانتازمات قديمة مع حساء على الموضة وهو العداء للصهيونية^(١).

وهو الأمر الذي أثار استياءاً لدى رئيس المجلس التمثيلي (كريف) في منطقة Rhone-Alpes، وهو الآن جاكو بوفيسك الذي أكد أن كوكيرمان كان مخطئاً في الظهور كمدافع عن سياسة الحكومة الإسرائيلية لأنه ليس من مهام المجلس التمثيلي (كريف) أن يكون سفارة ثانية لدولة إسرائيل في باريس^(٢). وبسلوكه على هذا النحو صحح لحسن الحظ الانطباع الكارثي الذي خلفه كوكيرمان وأعطى صورة جديدة من الانفتاح والتسامح حظيت بترحيب خاص.

١- ليبراسيون ٢٧ يناير (٢٠٠٣)، تساهل كوكيرمان أثناء خطابه أيضاً عن "إعادة كتابة تاريخ فرنسا بالبداهة بموضوعات عن شارل مارتل أو عن الصليبيين".

٢- الآن جاكو بوفيسك "ألا يوجد خلط" ليبراسيون ٥ فبراير (٢٠٠٣).

إن الرئيس الحالي للمجلس التمثيلي (كريف) هو رجل إطفاء يشعل النار، وواقع أنه لا يحظى بنقد كبير من قبل الصحافة الفرنسية يثبت أن هذه الأخيرة ليست معادية للموالين لإسرائيل.

لقد عرف تيوكلاين^(١) كيف يكافح العداء للسامية في فرنسا موضحاً أنه يمكن أن يكون مسئولاً سابقاً من الطراز الرفيع للطائفة، وارتباطه بإسرائيل ليس موضع شك، وبدون أن يكون موافقاً على عمل حكومتها. وساهم أكثر من أى شخص آخر في تجنب تصدير صراع الشرق الأوسط إلى فرنسا عندما قام بتفضيل ما هو عالمي على ما هو طائفي.

وفي كتابها الرائع "قصة صفة"^(٢) أوضحت ميشيل مانسو بجلاء كم هو من الزائف الخلط بين يهود فرنسا ومساندة شارون.

ينبغي إعادة الحوار بسرعة أكبر، وحتى لا يصبح المعتدلون رهينة في أيدي المتطرفين، وحتى يتغلب التسامح والحوار الديمقراطي على الوشاية والإقصاء. ومن أجل أن نكافح العداء للسامية نحن في حاجة إلى أن نسمع ونقرأ كل الأصوات، مع تنوع تعبيراتها، التي توضح أن كون الإنسان يهودياً لا يعنى بصورة آلية مساندة شارون، أو الصمت على تجاوزاته. ينبغي أن يكون ممكناً من جديد نقد إسرائيل وحكومتها في فرنسا، ودون أن يواجه المرء تهديدات وانتقامات.

١- في مقاله التأسيسي المنشور في لوموند ٦ سبتمبر (٢٠٠١) ثم في تصريحات أخرى عديدة بعد ذلك.

٢- دار استوك (٢٠٠٣).

ملاحق الكتاب

الملحق الأول

مذكرة سياسية

مرسلة إلى فرانسوا هولاند

وهنري ناليه

(أبويل/نسيان ٢٠٠١)

الشرق الأوسط. الاشتراكيون

الإنصاف الدولي والفعالية الانتخابية

فلتخيل : قيام بلد باحتلال أراض، فى نهاية صراع، متسهماً بذلك القوانين الدولية. ولا يزال هذا الاحتلال مستمراً، بعد مرور أربعة وثلاثين عاماً، رغم إدانات المجتمع الدولي. ويعيش سكان هذه الأراضى المحتلة فى ظل إكراهات فادحة، وقوانين استثنائية ونفى لحقهم فى تقرير المصير، وممارسات شائعة من تدمير المنازل، ومصادرة الأراضى، والسجن بدون أحكام والإذلال اليومي، وحتى تقنين التعذيب، مؤخراً، تحت مسمى "ضغوط جسدية معتدلة".

أمام هذا الوضع يثور هؤلاء السكان، ويطالبون بإنشاء دولة مستقلة فى الأراضى المحتلة، وهو أمر لا يتعدى تطبيق ميثاق الأمم المتحدة. وتحدث حينئذ دورة من العنف والقمع، حيث تطلق عناصر أمن قوات الاحتلال النار، وتقتل المتظاهرين بصورة منتظمة، وتحدث عمليات تؤدى إلى وقوع ضحايا بين سكان الدولة التى تمارس الاحتلال.

فى أى حالة من هذا القبيل فإن أى شخص إنسانى التزعة ، ولاسيما إذا كان من أهل اليسار ، لا يمكنه إلا أن يدين القوة المحتلة .

فلتخيل بلداً رئيس وزرائه متورط بصورة مباشرة بمذابح لمدينين ، أغلبهم من النساء والأطفال ، فى معسكر للاجئين العزل . ونجد فى هذا البلد زعيم ثالث حزب فى السلطة الحاكمة يصف أفراد واحدة من الجماعات القومية الرئيسية لهذا البلد بأنهم ثعابين بل وحتى أفاع ، ويقترح إعدام هؤلاء الأشرار والمجرمين وقذفهم بالصواريخ . ونجد أيضاً فى هذا البلد متطرفين مسلحين يقومون بتنظيم مذابح ضد المدينين العزل ، ودون أن يتعرضوا لأذى مسالة .

إن هذا الأمر لن يكون وضعاً مقبولاً . ومع ذلك يتم التغاضى عنه فى الشرق الأوسط . كيف يمكن إذن فى هذه الحالة تفسير ليس فقط هذا التشويه بل الخرق لأبسط مبادئ احترام الآخر؟
ثمة ثلاثة أمور لا جدال فيها :

(١) تعرض الشعب اليهودى لأكثر المعاملات وحشية فى "الشوا" . ومع أن الكلمة صارت تستخدم أكثر فأكثر فى غير محلها فإن الشعب اليهودى هو الوحيد الذى قاسى من إبادة فعلية بقصد الإبادة الشاملة له بوصفه شعباً . فى مواجهة هذا التآرم (انتهى إلى سلوك معاد للسامية ذائع الانتشار) وحيث كان الشعب اليهودى وحيداً فإن إسرائيل تمثل الملاذ واليقين بأن الأسوأ لا يمكن أن يعود من جديد أبداً .

(٢) دولة إسرائيل الديمقراطية (حتى إذا كان السكان العرب لا يتمتعون بالحقوق ذاتها التى يتمتع بها السكان اليهود) محاطة بأنظمة تسلطية ، إن لم تكن ديكتاتورية ، وأن عليها أن تناضل حتى تجعل وجودها معترفاً به من قبل جيرانها .

٣) الدفاع عن إسرائيل في هذه الظروف يسبق أى شئ آخر، بما في ذلك المبادئ التى قادت مؤسسيها.

لكن هذه الأمور التى لاجدال فيها لا تبرر أن المعاناة التى عاشها الشعب اليهودى تعطيه الحق فى ممارسة الاضطهاد بدوره. وهل ينبغى قبول انتهاكات حقوق شعب آخر حتى لا تحدث "الشوا" مرة ثانية؟

واستناداً إلى لحظة التأزم هذه، يتهم البعض كل من يعارض سياسة حكومة إسرائيل بأنه معاد للسامية عملياً ويشبهه فى أنه لا يدين ما حدث فى "الشوا".

والحال إنه حتى إذا لم يكن هناك ما يماثل رعب "الشوا"، فإن هذا الاتهام والاشتباه فى الذين يعارضون سياسة حكومة إسرائيل لم يعد من الآن فصاعداً مطابقاً للواقع بل هو غير مقبول أيضاً.

بالطبع هناك عناصر معادية للسامية فى صفوف المتعاطفين مع الفلسطينيين، غير أنهم أقلية ولا يسمح ذلك لأحد بالقول إن الذين يطالبون بتطبيق المبادئ الدولية فى الشرق الأوسط يفعلون ذلك حقداً على الشعب اليهودى.

اليوم نجد الضحايا الأساسيين هم من الفلسطينيين. وينبغى على المرء ألا يكون مبصراً للواقع حتى يقبل ما يحدث فيه. لكن هذا لا يعنى بالتاكيد أنه لا توجد أى أخطاء من جانب الفلسطينيين أو أن الفساد لا يستشرى بينهم، أو أن عرفات لم يضيع فرصة تاريخية فى كامب دافيد، وأنه لا توجد عمليات عمياء... الخ لكن يظل أيضاً أنه لا يمكن أن نضع بالقدر نفسه المحتل مع الواقع تحت الاحتلال. على أية حال، هذا هو ما يشعر به أغلب

الفرنسيين ولاسيما الشباب، وأنا مندهش، فى هذا الشأن، من تطور وعى الشباب خاصة الطلاب، الذين كانوا فيما مضى منذ عشرين سنة يقتسمون التعاطف مناصفة مع الإسرائيليين والفلسطينيين أما اليوم فالتعاطف يميل بصورة كبيرة تجاه الفلسطينيين.

ولم يعد الربط بين مكافحة العداء للسامية والدفاع عن إسرائيل بأى ثمن يجد مصداقية كبيرة، بل يكشف حتى عن تأثير مضاد. فلا يمكن مناهضة العداء للسامية مع السماح بالقمع الحالى للفلسطينيين من قبل إسرائيل. بل بالعكس، ومع الأسف، فإن التصرف بهذه الطريقة يؤدى إلى انتشار العداء للسامية.

وهذا الإرهاب الفكرى المتمثل فى إلصاق تهمة العداء للسامية لكل من لا يقبل سياسة حكومات إسرائيل (وليس دولة إسرائيل) سترك آثاره على المدى القصير، وربما يكون كارثيا على المدى الوسيط. ولا يأتى هذا من تقليل معارضة الحكومة الإسرائيلية، وإنما يأتى سواء من تعديل الأسلوب الذى يتحول إلى أسلوب أكثر غموضا وأكثر دهاء، أو يأتى من تشديد وتطوير حساسية ما إزاء الطائفة اليهودية (فى فرنسا) ويعزلها على الصعيد القومى.

وهناك، لحسن الحظ، بعض أصوات ممثلى الطائفة اليهودية مثل رونى برومان وبير فيدال ناكيه الذين أعلنوا رفضهم لسياسة القمع الإسرائيلى، ورفضهم لخلط الأوراق المخيف.

وهذا الربط بين مكافحة العداء للسامية ومساندة أو عدم إدانة شارون لا يخدم فى شئ القضية الأولى، بل هو بعيد عن ذلك.

هناك حالات- ونحن عايشنا ما يماثلها فى فرنسا - حيث السياسة التى تتبعها الحكومة لا تخدم الأمة التى تزعم هذه الحكومة خدمتها. لن يتم مساعدة هذه الأمة إلا بالابتعاد عن هذه الحكومة المعنية.

وفى تقديرى أن الطائفة اليهودية ستخسر أيضاً على المدى المتوسط إذا راهنت على ثقلها الانتخابى من أجل ألا تتعرض الحكومة الإسرائيلية للنقد. فالطائفة التى يتتبع أفرادها إلى أصل عربى أو مسلم تنظم نفسها وتريد أن تشكل ثقلًا مضاداً، على الأقل فى فرنسا، سيلقى تأثيره سريعاً، إذا لم يكن هذا قد حدث بالفعل.

من الأفضل إذن لكل طائفة أن تحترم المبادئ العالمية وليس ثقل كل طائفة.

وأمام الرغبة فى الإبقاء على توازن متكافئ بين قوات الاحتلال الإسرائيلى والمتظاهرين الفلسطينيين، ووضع فى ميزان واحد العمليات البائسة للفلسطينيين المستعدين للانتحار، لأنه لا يوجد أمامهم آفاق أخرى، والسياسة المخططة للقمع الذى تنفذه الحكومة الإسرائيلية فإن الحزب الاشتراكى والحكومة ينظر لهم من عدد أكبر فأكبر من الرأى العام على أنهما "غير عادلين". ولماذا ما يصلح لأهل كوسوفا لا يصلح للفلسطينيين؟ ولماذا يصفى البعض طابع الشيطان على هيدر ويعامل شارون بصورة طبيعية، وهو الذى لم يقتصر على التهديدات اللفظية بل انتقل إلى الفعل؟ هذه الملاحظات نستمع إليها أكثر فأكثر هذه الأيام. وما يشير الاهتمام فى هذا الشأن هو عدد أبناء المهاجرين والفرنسيين المسلمين من كل الأعمار والذين يعلنون أنهم ينتمون لمعسكر اليسار، لكنهم يؤكدون أنهم لا يريدون التصويت لصالح جوسبان فى الانتخابات الرئاسية، نظراً لموقف الحزب من الوضع فى الشرق الأوسط.

موقف الحزب الاشتراكي ينتظر له على أنه غير متوازن في الشرق الأوسط - وبالتأكيد يعتقدون مرة أخرى أنه ليس لصالح العرب - ويأتي هذا التصور ليؤكد أن الطائفة العربية المسلمة لم تؤخذ في الاعتبار، بل وحتى تم إهمالها من قبل الأسرة (الحزب) الاشتراكية .

وقد يؤدي الوضع في الشرق الأوسط وتردد الاشتراكيين في إزالة القمع الإسرائيلي إلى تدعيم انطواء المسلمين على أنفسهم في فرنسا وهو أمر لا يمكن أن يسعد أحداً من اليهود أو المسلمين أو المسيحيين أو الوثنيين .

من الأفضل أن يخسر الإنسان الانتخابات على أن يخسر نفسه، لكن الذين يقولون ذلك، ويضعون بالقدر نفسه الحكومة الإسرائيلية مع الفلسطينيين يغامرون بخسارة الاثنين معا (أي الانتخابات والنفس). فهل مساندة شارون تستحق أن نخسر انتخابات (٢٠٠٢)؟!

لقد حان الوقت لكي يغير الحزب الاشتراكي موقفه الذي يريد توازناً بين الحكومة الإسرائيلية والفلسطينيين والذي صار غير طبيعي أكثر فأكثر بحكم واقع الوضع في الميدان، وينظر له كذلك على هذا النحو، وفضلاً عن ذلك لا يخدم بل يضر مصالح الشعب الإسرائيلي والطائفة اليهودية الفرنسية على المدى الوسيط والبعيد .

الملحق الثانى

لقاء مع باسكال بونيفاس

الأسئلة الداخلية الصعبة لموقف فرنسا المناهض للتفرد الأمريكى الإسرائيلي

باسكال بونيفاس باحث فى مجال القضايا الجيواستراتيجية، يترأس معهد العلاقات الدولية والاستراتيجية iris فى باريس، وأصدر أعمالاً أبرزها: "إرادة العجز" (١٩٩٥)، "من يجرو على نقد إسرائيل؟" (٢٠٠٣)، "فرنسا ضد الامبراطورية" (٢٠٠٣). والكتابان الأخيران صدرتا هذا الصيف عن دار "روبير لافون" الفرنسية.

فى "من يجرو على نقد إسرائيل؟" يروى المؤلف قصة صراعه مع أقطاب الحزب الاشتراكى الفرنسى. إذ كان بونيفاس أرسل مذكرة سياسية الى قادة الحزب فى نيسان (إبريل) (٢٠٠١) يسأل فيها: لماذا لا نطبق فى الشرق الأوسط المعايير والمبادئ ذاتها كما نفعل فى الصراعات الأخرى؟ ولماذا نقبل الخرق الدائم للقانون الدولى واتفاقات جنيف وقرارات الأمم المتحدة، وحذر بونيفاس قادة الحزب من آثار السياسة التى ينتهجونها تجاه مواقف الحكومة الإسرائيلية، ومن الشعور المتعاضم بالظلم لدى أبناء المهاجرين القادمين من المغرب، مما سيؤدى الى فقدان أصوات أبناء هذه الجالية فى انتخابات الرئاسة الفرنسية (٢٠٠١). وهو ما تحقق بالفعل!

هوجم بونيفاس واتهم بالعداء للسامية، وانه جارودى اخر فى فرنسا وتلقى تهديدات، وتعرض لضغوط. وكانت إجابته على الحملة كتاب "من يجرؤ على نقد إسرائيل؟" بعنوانه المثير، وفيه يرصد مجموعة من الوقائع والأحداث والتصريحات، بعضها يتعلق بما عايشه شخصياً وبعضها الآخر يمتد الى مجال التحليل السياسى لأزمة الشرق الأوسط وتداعياتها.

أما "فرنسا ضد الامبراطورية" فيتناول حقيقة الحرب الأميركية على العراق، وانعكاساتها الإقليمية والدولية، والتحول من عالم متعدد الأقطاب الى عالم القطب الواحد، وموقف فرنسا الراض للهيمنة الأميركية، وملامح الصراع فى مرحلة ما بعد حرب العراق. هنا حوار مع باسكال بونيفاس حول القضايا التى تناولها(*).

● ما معاييرك فى رؤية الأحداث والأزمات السياسية وتحليلها؟!

- □ يشغلنى دائماً إيضاح طبيعة المواقف المعلنة، ما يصمد منها أمام الاختبار النقدى وما لا يصمد. ومنهجى هو ألا أسلم بالبيانات والأحداث بالصورة التى تعلن بها هذه الأحداث وتفسر، وأن أنظر إليها من خلال وجهات نظر أخرى غير رسمية، كوجهات نظر المنظمات غير الحكومية على سبيل المثال، وأرى واجباً فى إظهار ما هو خفى خلف ما هو مرئى، من أجل هذا لابد من توافر خبرة ما، ومسافة ما، حتى لا نأخذ ما يقال على السطح الخارجى للأحداث كأنه الحقيقة. إنه أمر سهل أن ينسخ المرء، فى تحليله، ما يقال فى العلن لإعطاء شرعية لبعض المواقف فى العلاقات

(*) أدار اللقاء مترجم الكتاب ونشر بجريدة "الحياة" بتاريخ ٢١ أكتوبر (٢٠٠٣). ونعيد نشره هنا كملحق لهذا الكتاب، لأنه يلقى أضواءً على فكر المؤلف ومواقفه فى قضايا أخرى على درجة كبيرة من الأهمية

الدولية، فى حين أن المسافة التقدية والدقة، وهما متلازمان فى أحيان كثيرة، تسمحان بتأسيس موقف يؤدي الى فهم الأسباب الحقيقية خلف ما يقال .

● نتحدث فى كتبك عن ضرورة الاستناد الى القانون الدولى والمبادئ الدولية لكنك لا تستنى منطق المصالح؟!

□ نعم، لأننى أعتقد بان المبادئ والمصالح لا تتعارضان بصورة دائمة، وإنما تلتقيان فى بعض الأحيان. وإذا أردنا أن ندافع حقاً عن المبادئ والأخلاق فعلينا أن نضع فى حسابنا مصالح الأفراد والجماعات والدول، والا ينبغي أن تطفى مصالح البعض على مصالح البعض الآخر. هذا الأفق هو الذى يسمح بالوصول الى حلول تحقق ما هو أخلاقى. وفى تقديرى أن المجتمع الدولى سيكون أكثر سلاماً وأكثر عدلاً اذا استندنا فى رؤيتنا، وحلولنا للمشكلات، الى المبادئ والمصالح فى آن معاً. وأضيف: إذا أردنا أن نتحدث عن المبادئ والأخلاق فعلينا أن نحدد عن أى أخلاق وأى مبادئ نتحدث؟

● عمّ نتحدث بالتحديد؟

□ نتحدث وأنا أنظر إلى الحرب فى العراق حيث كانت هناك تصريحات تفصح عن مبادئ وأخلاق بينما السلوك العملى لأصحابها على النقيض من ذلك. لقد اكتشف العالم سياسة الكيل بمكيالين، أى الاستناد الى مبادئ وقيم فى موقف والاستناد الى غيرها فى مواقف مماثلة. وأنا كفرنسى وكفربى وكموطن عالمى أريد أن تكون هناك صدقية أمام الشعوب الاخرى، لا يمكن أن أقبل بمعايير مزدوجة فى التعامل مع أوضاع متماثلة.

● قبل أن نتحاور بصدد كتابيك الأخيرين أريد بعض الإيضاحات فى ما يتعلق ببعض التسميات والمصطلحات التى يكثّر استخدامها فى الفترة الأخيرة، من قبيل الانتقال فى وصف أميركا من "قوة عظمى" (Super puissance) الى "القوة الأعظم" (Hyper puissance).

□ نهذا التعبير لا يعود لى وإنما إلى أوبير فيدرين، وزير خارجية فرنسا السابق. إذ وصف أميركا بأنها قوة عظمى فى فترة وجود قوة أخرى هى الاتحاد السوفياتى، وبانهياره لم يبق لها منافس، حينها رأى فيدرين أن كلمة القوة العظمى لم تعد كافية لوصف تفوق الولايات المتحدة.

● ألا تعتقد أن مثل هذا التمييز يتضمن نغمة تمجيدية لقوة أميركا؟

□ نلا يتضمن ذلك، فقط هو يعبر عن ملاحظة ووصف لواقع هو أن أميركا لا يوجد لها منافس اليوم كما كان الأمر فى الماضى.

● هناك أيضا تعبير آخر محير بالنسبة إلى وهو استخدام وصف القوة الفظة (Hard Power) كمترادف لقوة أميركا، والقوة الهادئة (Soft Power) كمترادف لقوة فرنسا.

□ نلقوة الفظة هى التى تستند الى وسائل القوة التقليدية فى الإكراه والإرغام عبر الوسائل العسكرية والاقتصادية، بينما القوة الهادئة هى التى تمارس سلطتها عن طريق التفاهم والإقناع، والنموذج العملى لذلك ما حدث فى العراق حيث مارست أميركا القوة الفظة، وما نتج عن ذلك من فقدان أميركا شعبيتها بصورة لم تحدث من قبل بهذا الحجم، ولم تنجح هذه القوة الفظة فى إقناع العراقيين الذين قالت إنها جاءت لخدمتهم! بينما مارست فرنسا سياسة القوة الهادئة وحقت شعبية داخل فرنسا وخارجها لم تتحق لها بهذا الحجم الكبير منذ عقود.

● من التعليقات التي صدرت في شأن كتابك الأخير هناك مقالة لفيليب ساغان (الرئيس السابق للجمعية الوطنية الفرنسية - البرلمان) في جريدة "الفيغارو" ينتقد فيها المنطق الذي استخدمته في الحديث عن رأى عام فرنسى مؤيد لموقف شيراك قبل الحرب وبعدها، ويرى أنه موقف تنقصه الدراسات التفصيلية لهذا الرأى العام الفرنسى، وأنه لم يكن موحداً ولا متناغماً الى الحد الذى تشير إليه أنت فى كتابك. ما دلالة هذا النقد فى رأيك؟

□ أعتقد أن فيليب ساغان يقف الى جانب المجموعة الرئاسية، حيث توجد شخصيات أخرى لم توافق على الموقف الفرنسى من حرب العراق مثل ألان مادلان وبيير لولوش. لكن ما يمكن ملاحظته فى هذا أن أكثر قطاعات المجتمع الفرنسى أيدت موقف الرئيس شيراك حتى أولئك الذين يختلفون معه فى سياسته الداخلية. كانت أكثرية الفرنسيين مع شيراك وأيدت موقفه.

● قلت فى كتابك "فرنسا ضد الأمبراطورية" أن أزمة المجتمع الدولى اليوم تنبع من أن أميركا، مع إدراكها لقوتها التى لا يناظرها شئ، تعمل على تجاوز الأعراف والقوانين والمؤسسات الدولية، وأن أميركا صارت مخمورة/ مسطولة بقوتها؟

□ تماماً. أميركا فى حال انبهار بقوتها الذاتية، وتعتقد بأنه طالما لا يوجد مثيل لقوتها اليوم، وأنها صارت الأمة الوحيدة الضرورية فى هذا العالم، وأن لها مصالح أساسية تتجاوز حدود الدول الأخرى، فإنه يمكنها القيام بأعمال خارج نطاق المؤسسات والقوانين الدولية، حتى لو كانت هذه الأعمال مرفوضة من البلاد والشعوب الأخرى. وأنها هى دائماً على صواب، وهذه الرؤية متشيرة على نطاق واسع فى أميركا وليست قاصرة فقط على الجمهوريين.

● مع تقديري لأهمية هذه النظرة ألا ترى أن أزمة المجتمع الدولي اليوم لا تكمن فقط في هذا الجانب "أى أدراك أميركا الجديد لقوتها وتصرفها في معزل عن القانون والمؤسسات الدولية، وإنما تمتد الى الخلل العالمى فى موازين القوى قبل الوعى الجديد لأميركا بقوتها وجبروتها؟!

□ هناك عاملان يلعبان دورهما الحاسم: الأول هو الفارق فى القوة بين أميركا والبلاد الأخرى والثانى هو النتائج التى تستخلصها أميركا من هذا الفارق. فأميركا خرجت من الحرب العالمية الثانية قوية جداً لكنها لم تستخلص نتائج الهيمنة على العالم بل استخلصت نتائج تفضى إلى مساعدة الدول والمؤسسات على خلق عالم متعدد الأطراف والأقطاب. أما اليوم فأميركا توصلت الى نتائج أخرى، وصلت الى حد العمل على القضاء على تلك المؤسسات والقوانين التى تمثل نظاماً متعدد الأطراف والأقطاب.

● قلت فى كتابك "فرنسا ضد الامبراطورية" أن إحدى التحديات الكبيرة التى تواجه المجتمع الدولي يكمن فى العثور على نقطة توازن بين "حق التدخل وحق السيادة". لمن توجه كلامك هنا؟ ومن الذى يمكنه العثور على نقطة التوازن التى تنشدها؟ ووفق أى معايير فى نظرك؟

□ أوجه حديثى إلى الذين فى بلادنا، فى فرنسا وأوروبا، يعتبرون أن الحدود القديمة للدول تتغير الآن، أو فى طريقها للتغير، وأن حق التدخل هو من الواجبات الأخلاقية اليوم، كما أنه حديث موجه للإعلان عن موقف لا يمكن فيه القبول بظهور "بينوشيه" من جديد، أو "خمير حمر" من جديد. التحدى الأكبر اليوم هو الجمع بين المبدأين بطريقة يكون من شأنها ألا يكون الحق فى السيادة مبرراً لاستمرار الطغاة والطفغيان، وألا يكون حق التدخل فى الوقت ذاته مبرراً للاحتلال وتحقيق مصالح لا صلة

لها بالواجب الأخلاقى. فالملاحظ اليوم، مع تعدد أشكال التدخل، إن التدخل يتم ليس لأن الدولة المعنية مدانة وإنما لأنها ضعيفة.

● هل توضح بصورة أكثر تفصيلاً؟

□ خذ نموذجى العراق وكوريا الشمالية، ستجد أن العراق هوجم لأنه لم يعد يمثل تهديداً عسكرياً، وكل ما فى الأمر أنه يمثل مخاطر محدودة. فجيше الذى تم تقديمه، خطأ، على أنه رابع جيش فى العالم عام ١٩٩٠، تعرض لهزيمة ثقيلة، وأضعف من خلال اثنى عشر عاما من الحصار بينما نجد أميركا صبورة مع كوريا الشمالية، لأنها تعرف أنها قادرة على إلحاق خسائر بخصمها.

● أميركا تريد أن تعاقب الأقوياء أيضاً، وليس الضعفاء فقط، ألم نستمع إلى كوندوليزا رايس تقول: إن أميركا ستغاضى عن موقف ألمانيا وموقف روسيا لكنها ستعاقب فرنسا؟

□ هى تصريحات تتم فى إطار دعائى، ولا أعرف على أى شئ تريد أن تعاقب فرنسا! أرى أن فرنسا خرجت قوية من هذا الصراع، وصارت مكانتها فى العالم أقوى بكثير مما كانت عليه قبل حرب العراق، لأنها استطاعت أثناء الأزمة أن تقف فى وجه أميركا، وأصبحت صوت من يشاركونها الرأى ولا يملكون القوة على إعلانه.

● قلت إن الارهاب نابع من شعور بالظلم، هل تقصد مسألة شعور نفسى وهمى، أم أن هناك فى الواقع من الظلم والخلل ما يدفع بالبعض الى القيام بهذه الأعمال المدانة؟

□ هناك الظلم وهناك الوعى بالظلم. هناك حالات يوجد فيها ظلم واضح، لكن الناس لا تتحرك ضد هذا الظلم، وهناك حالات أخرى يحتدم فيها الوعى بالظلم، ولا يجد الناس أفقا سياسيا للحل الذى

ينتظرونه، فتكون النتيجة هى الاندفاع نحو الأعمال الإرهابية التى ندينها جميعاً.

● كتابك قبل الأخير: "من يجرو على نقد إسرائيل؟" أثار الاحتجاج والتأييد الصامت، بعد كل هذه الضجة هل ترى أن العنوان كان مبرراً؟

□ لطريقة التى قوبل بها كتابى تؤكد أن سؤالى كان مبرراً، لكثرة ما تعرض له من نقد، فانا أعرف أن فرنسا بلد ديمقراطى، وأنه يمكن نقد سياسات إسرائيل، وهو ما قمت به، لكن، عندما يحدث أن تمارس نقد سياسات هذا البلد فإنك تتعرض لعواقب وخيمة، وهو ما لا يحدث عندما تتعرض بالنقد لبلاد أخرى كمصر أو سورية أو أميركا أو حتى فرنسا.

● كتابك هذا رفضته دور نشر عدة قبل أن يصدر عن دار روبير لافون، ما الأسباب التى قدمتها هذه الدور فى رفض كتابك؟

□ ناك سبعة دور نشر رفضت الكتاب، وكانت تبرر ذلك بدعاوى أنه لا يوجد جمهور لمثل هذا النمط من الكتب، أو أن المواضيع المطروقة فى الكتاب قد تم تناولها من قبل مراراً، وهناك من كانوا يبررون رفضهم بأنهم يخشون العواقب فى حال نشر الكتاب.

● فى كتابك "من يجرو على نقد إسرائيل" ؟ تسأل: لماذا لا نطبق فى الشرق الأوسط المبادئ والمعايير ذاتها كما نفعل فى الصراعات الأخرى؟ طرحت السؤال، لكن أريد أن يعرف القارئ إجابتك عن هذا السؤال؟

□ لجملة من الأسباب أولها أن هناك عقدة ذنب تاريخية إزاء الشعب اليهودى وإنه ينظر الى إسرائيل على أنها حليفة للبلاد الغربية، وأنها البلد الوحيد الديمقراطى القريب من الغرب فى هذه المنطقة من العالم، وثالثاً، وهو سبب قد يكون أقل نبلاً، العداء للمسلمين فى بعض الحالات والأوقات، وحيث يكون عدو المسلمين صديقاً لدى البعض هنا.

● قلت لا يوجد لوبى يهودى فى فرنسا، وإنما لوبى موال لإسرائيل.
ما دلالة ذلك؟

□ نعم، لأن يهود فرنسا ليس لديهم جميعا رأى ذاته إزاء المشكلات المطروحة فى الشرق الأوسط، ويمكنك أن تجد فى المنظمات المتعاطفة مع الفلسطينيين الكثير من اليهود. لكن المشكلة هى أن الممثلين الرسميين للطائفة اليهودية هم فى معظمهم يدعمون سياسة إسرائيل فى بشكل مطلق ومهما فعلت، ويمارسون ضغوطا على رأى العام الفرنسى وأجهزة الإعلام، حتى لا تنتقد سياسة إسرائيل، بدعوى أنه اذا انتقدنا سياسة إسرائيل فنحن معادون للسامية. أنا انتقد حكومة إسرائيل، وهذا حقى، ولا أنتقد اليهود فى بشكل عام، أو بصفتهم يهوداً، كما لا أنتقد دولة إسرائيل بصفتهها دولة، ولم أضع وجودها موضع سؤال، وإنما انتقد سياسات حكومة إسرائيل. وأنا أفعل ذلك مع سياسات أخرى. فعندما أنتقد الحكومة الفرنسية، وهو ما يحدث أحيانا، فليس معنى ذلك أننى معاد لفرنسا، وعندما أنتقد سياسات ياسر عرفات، فليس من المعقول وصفى بأننى ضد العرب وهو ما لم يحدث.

● ذكرت مجموعة من الأسباب تفسر المعاملة الخاصة والتميزة التى تحظى بها إسرائيل لكن، هل تبرر هذه الأسباب مثل تلك المعاملة؟

□ نالتأكيد لا، فإذا أعطينا الانطباع بأننا نطبق سياسة الكيل بمكيالين، وأن المبادئ والقواعد الدولية ينتهى مفعولها عند حدود منطقة الشرق الأوسط سنجد أنفسنا فى وضع خطر جداً، ولن يكون مجدياً أن نعمل على تنفيذ نظرية صدام الحضارات، فى الوقت الذى تتبع فيه سياسة تفضى الى مثل هذا الصدام.

● قلت إن نقد سياسة إسرائيل في فرنسا مباح، لكن نتائجه وخيمه العواقب على من يمارس هذا النقد. هل تعرضت فعلاً لمثل هذه العواقب من جراء نقدك سياسة شارون؟

□ عم، تلقيت أولاً رسائل بريدية وإلكترونية تحمل إهانات وشتائم، ثم تلقيت تهديدات بالقتل، وتهديدات لأسرتي، وتهديدات لى فى عملى المهنى وحدثت ضغوط على المركز الذى أديره من أجل إقالتى من منصبى، وهناك من رفض التعاون والعمل معى. لقد عانيت كثيراً على المستوى الشخصى والوظيفى لأننى قلت ما أعتقد بأنه الحقيقة.

● إذا كان الأمر على هذا النحو فينبغى أن أخاف بدورى من اللقاء معك ومن نشر هذا الحوار؟!

□ ضحك) لكنى لم أسمع عن اهتمام كبير من جانب الصحافة العربية باستثناء مقالة فى جريدة "الحياة" . . . كيف تفسر أنت هذا؟

● على رغم أن كتاباتك من المفروض أنها تسير فى الاتجاه الذى يصح الخلل ويدعم موقف الدول العربية والإسلامية. . .

□ أحرص دائماً على أن يسير الخط الحاكم لكتبى وأفكارى فى إطار خدمة المبادئ والقيم الإنسانية أولاً وقبل أى شئ آخر،

● هل تعتقد أن هناك أسئلة لم أطرحها وتود الحديث عنها؟

□ لا، الحديث شمل رؤية عامة لما أردت التحدث عنه. وأمنى أن يجد كتابى مترجماً وناشراً باللغة العربية!!

المؤلف : باسكال بونيفاس

كاتب وصحافي وجامعى فرنسى، يرأس معهد العلاقات الدولية والاستراتيجية، ويتولى التدريس بمعهد الدراسات السياسية فى باريس، ويرأس تحرير مجلة فصلية هى مجلة العلاقات الدولية والاستراتيجية. وهو عضو اللجنة الإستشارية لدى السكرتير العام للأمم المتحدة فى قضايا نزع التسليح، وهو من المعلقين البارزين على الأحداث السياسية فى أجهزة الاعلام الفرنسية. وكتب وأشرف على العديد من المؤلفات المتعلقة بقضايا دولية واستراتيجية، والتى بلغ عددها حوالى ثلاثين مؤلفاً، أهمها :

كتاب حروب الغد وكتاب الأرض دائرية وكتاب إرادة المعجز (عن دار سوى) وكتاب دروس ١١ سبتمبر (عن دار المطبوعات الجامعية الفرنسية) وصدر له، فى الصيف الماضى، من يجرؤ على نقد إسرائيل؟ ثم فرنسا والامبراطورية، عن دار روبريلافون (٢٠٠٣)

المترجم : أحمد الشيخ

كاتب وصحافي ومترجم مصرى، عمل فى مجلة اليسار العربى (١٩٧٩-١٩٨١)، وجريدة الوطن الكويتية (١٩٨١ - ١٩٨٦)، ومجلة الفرسان (١٩٨٦ - ١٩٨٨)، كما شارك بالكتابة فى عديد من الصحف والمجلات العربية مثل : الحياة (لندن)، الشرق الأوسط (لندن) الأهرام العربى (القاهرة) العربى (الكويت)، .. وغيرها، ويدير حالياً المركز العربى للدراسات الغربية (القاهرة).

ترجم كتاب : الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية - كلود كاهن - دار سينا - ١٩٩٥

ومؤلف كتاب : من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب - حوار الاستشراق (١٩٩٩)

وكتاب : من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب - المثقفون العرب والغرب (٢٠٠٠) عن المركز العربى للدراسات الغربية.

الكتاب : من يجرؤ على نقد إسرائيل؟

محتويات الكتاب

ص

٥

تقديم المترجم

١٧

الفصل الأول : نقد إسرائيل

حق نظري ممارسته عملية شائكة

٤٧

الفصل الثاني : محاكمة الإعلام الفرنسي

٧٧

الفصل الثالث : كراهية اليهود

وقائع وصياغة درامية

١٢٣

الفصل الرابع : صراع مستورد

١٤٧

الفصل الخامس : اليمين المتطرف والعداء للسامية

١٦٣

الفصل السادس : "العداء للسامية"

وجهة نظر إسرائيلية وأمريكية

١٨١

الفصل السابع : الكيـل بمكيالين

١٩١

الفصل الثامن : مخاطر إضفاء الطابع الطائفي

على السياسة الفرنسية

٢٠٥

الفصل التاسع : فتوى في باريس

٢٣٧

الخاتمة

٢٤٥

الملاحق

صدر عن المركز العربى للدراسات الغربية

- من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب
الجزء الأول : حوار الاستشراق (١٩٩٩)
تأليف : أحمد الشيخ
- من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب
الجزء الثانى : المثقفون العرب والغرب (٢٠٠٠)
تأليف : أحمد الشيخ
- نشأة وعليها الكلام (٢٠٠٢)
الرحيل المبكر - على بن عاشور (٢٠٠٢)
تأليف : الطيب ولد
العروسى (مع آخرين)

وصدر بالتعاون مع المنظمة الدولية للفرانكوفونية

- متباق الفرانكوفونية
(الترجمة العربية)
- إعلان باماكور
(الترجمة العربية)
- إعلان كوتونو
(الترجمة العربية)
- إعلان لوكسمبورج
(الترجمة العربية)

ويصدر عن المركز

- من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب
الجزء الثالث : المستشرقون العرب : أزمة المناهج
تأليف : أحمد الشيخ



العنوان : القاهرة - الألف مسكن ممر ٤ فيلا ١٣٧ (ب)

ت و فاكس : ٤٩٣٣٤٧٦ - ٢٤١٦٤٧٦٩

E-mail:elsheikhahmed 11 @ Hotmail.com

